

الجَاهْلِيَّةُ فِي الشِّعْرِ الْجَاهْلِيِّ

أَخْلَاقُ الْهَرْبِ
بَيْنَ

الْجَاهْلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ

مَارَاسَةٌ مُقَارِنَةٌ عَلَى ضَوْءِ الْإِسْلَامِ

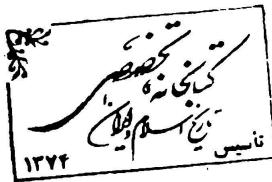
مُحَمَّدُ النَّاصِفُ

بِدار الرِّسَالَةِ - مَكَّةُ الْمُكَرَّمَةِ

الْمُمْلَكَةُ الْعَرَبِيَّةُ السُّعُودِيَّةُ

الجَاهِلِيَّةُ فِي الشِّعْرِ الْجَاهِلِيِّ

أَخْلَاقُ الْعَرَبِ بَيْنَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ
دِرَاسَةٌ مَقَارِنَةٌ عَلَى ضُوءِ الْإِسْلَامِ



محمد الناصر



الطبعة الأولى

١٤١٣ - ١٩٩٢

الناشر

دار الرسالة - مكة المكرمة

ت: ٥٥٧٠٦٤٨ - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمه ونستعينه ونستغفره ، ونعود بالله من شرور أفسنا وسیئات أعمالنا ، من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، وأصلى وأسلم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وبعد :

هذا هو الكتاب الثاني « أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام » من سلسلة : الجاهلية في الشعر الجاهلي .

وقد وعدت بإنجازه في مقدمة الكتاب الأول منها^(١) ، فحمدًا لله اللهم ، على فضلك ونعمك التي لا تمحى .

إن أهمية الأخلاق في بناء المجتمعات لا يماري فيها إلا مكابر ، وإن أزمة الحضارة الحديثة أزمة أخلاقية بلاشك .

« إن الدول لا تسود ولا تعلو بالحديد والنار ولا بالمال ، ولكنها تسود وتعلو بالخلق المتأسك ». .

وإن أعلى مصادر الخلق المتأسك ، وأعمقها جذوراً ، وأدومها أثراً هو الدين ، فهو الذي يجمع الناس على التواد والتراحم ، ويكشف بعضهم عن بعض .

(١) الحياة السياسية عند العرب : دراسة مقارنة على ضوء الإسلام .

وهذه هي دول الغرب يستطيع كل ذي بصر أن يرى كارأى المؤرخ الإنجليزى « توينبى » قبل الحرب العالمية الأولى مظاهر تدهورها وانحلالها ، وهى في كامل مجدها الصناعى والآل .

لم يعوزها المال ، ولم تنقصها الآلات ولا المعرف .. ولكن أغونّها الحُلُق والدين ، فسرى الفساد في جسدها ودبَّ الخلاف في صفوفها ^(١) وما يزال .

لقد رصدت في هذا الكتاب مكارم أخلاق العرب ومساوئها في العصر الحالى ، حيث كانت أخلاق القوم خليطاً من الفضائل والرذائل ، حتى إذا جاء الإسلام ، ارتفع بمكارم الأخلاق : « إِنَّمَا يُعَثِّرُ لِأَنَّمَا مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ » ^(٢) فصَحَّ مسارها ، وصَفَّيَ النية فيها ، ووجهها الوجهة البناءة ، فارتفع جيل الْذَّرْوَةَ بها إلى القمم العالية شفافيةً ونقاءً وصفاءً . وسارت الأجيال المؤمنة بخدوها الشوق إلى اللحاق بذلك الجيل الفريد ، لتقود العالم إلى شاطئِ الأمان والإيمان .

ثم اجتَهَّتَ هذا الدين مساوىء الأخلاق والعادات بعد أن ربط بين قلوب المؤمنين ومصادر التلقى من الكتاب والسنة .

وقد شدَّ من عزمى على المضى في هذا البحث ، أنى وجدت كثيراً من القيم الأخلاقية قد اهترت في حياتنا المعاصرة ، فشاع كثير من الرذائل من جديد ، حيث انحدر كثير من الناس إلى مهاوى الرذيلة في المجون والخمور والميسر والمخدرات ، وشيوخ أدوات العزف واللهو الحرام .

(١) حصنونا مهددة من داخلها : د. محمد محمد حسين رحمة الله ص ١٧-١٨ .

(٢) موطأ الإمام مالك : (كتاب الجامع) ، والمستند للإمام أحمد : (٣٨١/٢) .

وانظر : مشكاة المصايِّع ، ١٤١١/٣ .

وما يُؤسف له أن كثيراً من القيم الأصلية عند العرب في الجاهلية قد اختفت في واقعنا المعاصر ، فبات الكرم نادراً والشجاعة أقوالاً ناهيك عن الروءة والغيرة والعفة .

ولذلك أوردت نماذج من مكارم الأخلاق ، وفضلت فيها القول معتمداً على شعر العرب وتاريخهم .

وأوضحت الصورة في عرض موقف الإسلام من هذه الأخلاق ، عسى أن يعود إلى الأذهان ما فقدناه من قيم نبيلة نحن في أمس الحاجة إليها .

أما الفصل الأخير، فقد حُصصَ للسمات الأخلاقية في المجتمعات الإسلامية ، ذلك أن الأخلاق لدى المسلمين ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالإيمان والعقيدة ، وأن العبادة الحقة تهذب النفوس ، وترتكّي الأخلاق ، وأن أخلاق المؤمنين أخلاق عملية طبقة في عالم الواقع وليس في عالم الكلام والنظريات .

وبالمقارنة تبين أنَّ السمات الأخلاقية في المجتمعات الجاهلية تناقض تماماً سمات المؤمنين الصادقين في سلوكهم وأخلاقهم .. مما يظهر لنا فضل الله سبحانه وتعالى علينا في صفاء هذا المنهل من تعاليم الكتاب العظيم وتوجيه رسول رب العالمين ، وتربيته الفريدة لذلك الجيل الرائد .

إن إعادة البناء العقدي الأخلاقى لهذه الأمة واجب دعوى ، وأمانة ضخمة ، وإن التربية الأخلاقية الواقعية بالإيمان الحى النابض تقدم هذه الأمة خدمة جليلة تنقذها مما هي فيه من ضعف وتردد ، وتحفظها من الانهيار ، لأن مفاسد الأخلاق من أكير عوامل الهدم في الحضارات الإنسانية .

وعسى أن تكون هذه التربية لِبَنةً من لبنات البناء المترقب خيرية الحياة
الإسلامية في جميع مجالات الحياة .

وما ذلك على الله يبعيد . وآخر دعوانا أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

مكة المكرمة ١٤١١/٧/١٣ هـ

الفصل الأول

المجتمع العربي بين الجاهلية والإسلام

المبحث الأول :

لحة عن المجتمع العربي في العصر الجاهلي

- ١ - النظام القبلي .
- طبقات الناس في القبيلة :
 - أ - أبناء القبيلة الصرحاء .
 - ب - طبقة الموالى .
 - ج - طبقة الرقيق والعبد .
- ٢ - الناس في المجتمع الجاهلي منازل ودرجات .
- ٣ - معايش العرب ونظرتهم إلى المهن .

المبحث الثاني :

رایة العدل والمساواة ترفرف على الناس
في ظلال الدعوة الإسلامية

المبحث الأول

لحة عن المجتمع العربي في العصر الجاهلي

إن الحديث عن أخلاق العرب ، يستلزم منا أن نلقي نظرة على طبيعة المجتمع الجاهلي ، وطبقات الناس في هذا المجتمع ومنازلهم ودرجاتهم ، وما يترتب على ذلك من أعراف وتقاليد . حيث أن الصلة قوية بين القيم الخلقية والأعراف الموروثة .

ولابد من أن نلاحظ الأثر العظيم الذي هزَ به الإسلام المجتمع العربي ، والنقلة السريعة التي أحدثها هذا الدين في المجتمعات العربية والإنسانية ، حيث أسس حضارته على العدل والمساواة ، وعمل على تفتيت الفوارق بين الطبقات الاجتماعية ، وغيرَ كثيراً من القيم والمفاهيم لدى الناس جميعاً .

إذ انطلق الإسلام من مفهوم التوحيد ، وصفاء العقيدة في إرجاع الناس إلى أصلهم الواحد : « كلكم لآدم وأدَم من تراب » « الناس سواسية كأسنان المشط » . كان النظام في العصر الجاهلي يعتمد على أعراف عدّة منها :

١ - النظام القبلي :

وهو النظام السائد آنذاك ، فالقبيلة عماد الحياة في الbadية ، حيث لا شرط تؤدب المعتدين ، ولا سجون يعاقب فيها الخارجون على النظام

الاجتماعي ، وكل ما هنالك عصبية تأخذ بالحق لأهلها ، وأعراف يجب أن تطاع .

وكان الرابط الذي يربط شمل القبيلة هو النسب ، وهو عندهم ، رمز المجتمع السياسي في الbadia ، فالقبيلة هي الحكومة التي يفهمها الأعرابي .

والعربي - شأن بقية الساميين - لم يفهم الدولة إلا أنها دولة القبيلة ، دولة صلة الرحم ، دولة العظم واللحم ، والحكام يختارون من القبيلة ، وكانت أحكامهم نافذة فيها^(١) .

ويعتمد هذا النظام على العصبية للأهل والعشيرة ، ومن شروطها أن يدعوا الرجل إلى نصرة عصبه ، والتألب معهم على من يناوئهم ، ظالمين كانوا أو مظلومين .. وكانوا يعتبرون هذا العُرف ضروريًا للقبائل ، لأنها لا تستطيع أن تدافع عن نفسها إلا إذا كانت ذات عصبية ونسب ، وبذلك تشنّد شوكها .

وتشمل العصبية الصراحاء من أبناء القبائل والموالي والجيران كما أنها تشمل أهل المبدر والحضر .

وكان للعصبية صلة كبيرة بالعقوبات ، فعلى درجة العصبية تقع المسؤولية ، وأقرب الناس إلى الجاني يكون عادة أول من يتناوله الأخذ بالثار ، ثم الأبعد فالأبعد ..

وتكون شدة العصبية وقوتها تابعة لدرجة قرب الدم ونسب أو ^{بعدهما}^(٢) .

ومن مظاهر هذه العصبية الحميمية : وهي الأنفة والغيرة أو الغضب .

(١) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : د. جواد على ٣١٣/٤ - ٣١٥

٣٩٤ - ٣٩٢

فالرجل يغضب وتأخذه حمته من أن يترك سُنّة آبائه وأجداده ، ويعتبرون ذلك العرف ميراثاً اجتماعياً ، يضعه الآباء ليصير سُنّة ثابتة يسير عليها الأبناء .

يقول أليد في معلقته مفتخرًا :^(١)

مِنْ مَغْشِرِ سَنَّتِهِ لَهُمْ آباؤُهُمْ وَلَكُلِّ قَوْمٍ سَنَّةٌ وَإِمَامُهَا
وَقَدْ نَهَىُ الْإِسْلَامُ عَنْ هَذِهِ الْحَمِيمَةِ ، وَنَزَلَ الْوَحْيُ بِنَدَدِهَا ، يَقُولُ
جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ إِذْ جَعَلَ اللَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيمَةَ حَمِيمَةً
الْمَعْتَهِلَيَّةَ ﴾^(٢) .

لقد كانت العصبية عميقـةـ الحذور في حـيـاةـ العـرـبـيـ ، وـكـانـتـ أـسـاسـ التـعـاملـ معـ أـبـانـاءـ القـبـائلـ الـأـخـرىـ ، وـلـهـاـ آـثـارـ رـاسـخـةـ ظـهـرـتـ فـيـ الشـعـرـ الجـاهـلـيـ
وـخـلـالـ اـخـرـوـبـ وـالـعـادـاتـ^(٣)

صفات الرئيس :

كان على من يسود قومه أن يتحلى بخلال حميدة وسجايا طيبة ، وأن
يتحمل أذى قومه ، وأن يكون شريفاً في أفعاله ، حليماً كريماً ، وأن
يكظم عيشه ، جاء في المثل : « احْلُمْ تَسْنُدْ » ، وأن يحترم الناس ، ويؤلف
بيهم ، ويكتسب مودتهم ، وأن يكون ملاذهم ، وأن يجعل بيته مصيفاً لكل
من يرقد إليه .

(١) سنت : أى وضعت ، وانظر : ملامع من دور الإسلام في بناء العمارة العربية

د. محمد رشاد خليل ط ١ سنة ١٩٨٢ م .

(٢) سورة الفتح : الآية ٢٦

(٣) تحدثت عن هذا الموضوع مفصلاً في (الحياة السياسية من حـيـاةـ العـرـبـيـ قبلـ الإـسـلـامـ)
الجزء الأول

ومن صفات رئيس القبيلة أن يكون شجاعاً وفي مقدمة قومه في حرهم وغزوهم ، مقداماً لا يهاب الموت حتى يحقق النصر لنفسه وقومه ، فهو قائد القبيلة وواضع خطط الحرب لها .

وما كانت قيادة القبيلة بالأمر السهل ، ولا سيما إذا كانت كبيرة ذات عشائر وبطون متباعدة ، وكان الرئيس يعلن الحرب على العشيرة العامة المنشقة ، وقليل هم الذين يستطيعون أن يسودوا القبائل الكثيرة^(١) .

طبقات الناس في القبيلة :

كثيراً ما كان لكل قبيلة حاضرة وبادية في آن واحد ، ولم تكن الباية منقطعة عن الحاضرة كما يدو للوهلة الأولى ، وإذا صع هذا على بعض القبائل المتبدية التي لا هم لها إلا الغزو والتجاع الكلا فإن كثرة القبائل كانت على صلة دائمة بالمدن .

وقد شملت الطبقية القبيلة نفسها ، فكان فيها طوائف متعددة ليسوا سواس ، فيها أبناءها الصرقاء ، وفيها موالياها وعيدها كذلك .

أ - أبناء القبيلة الصرقاء :

هم أبناءها وذوو الدم النقي الذي لا تشوبه شائبة حسماً يعتقدون به هم الذين يتمنون إلى أب واحد ، منهم تكون الطبقة الأرستقراطية في القبيلة ، وفيهم رياستها وبيوتات الشرف فيها ، ومن هنا كان حرص هذه الطبقة على أن يظل دمها نقياً ، وأن تجمع الشرف من كل طرفه الآباء والأمهات^(٢) .

(١) انظر : تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد على ٣٤٤/٤ .

(٢) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي د. يوسف خليف الله ص ١١٣

والنسب هو أساس العصبية ، ولذا حرص العربي على حفظ نسبه ، ولا يزال يحرص عليه ، ويدأ النسب بالأب غالباً وبالأم قليلاً ، والبيت عند العرب يبت الأب ، ولذلك صار النظام عندهم أبوياً ، السلطة العليا فيه للأب ، يتساوى في ذلك مجتمع الحضر ، ومجتمع أهل الوبر .

وللحؤوله مكانة كبيرة عند العرب ، قد تقوى أحياناً على العمومه ، كأن يموت الرجل وله خلاف مع إخوته ، فتقوم عندها الحؤوله مكان العمومه في رعاية الأولاد وحمايتهم ومدتهم بالعصبية .

ولذلك كان الجاهليون يقولون رجل معم ورجل مخول ، ويقال :
كريم الأعمام والأحوال على سبيل المدح والتقدير^(١) .

لقد كان الاعتزاز بالنسب مجال فخر الشعراء ، وتباهي أبناء القبائل .. والشعر الجاهلي زاخر بهذه المعانى .

بل نلاحظ أن الغلو بأحساب القبائل والمحافظة على أمجادها الموروثة ، قد وقف دون قبول دعوة الخير ، دعوة الإسلام من الرسول ﷺ .

لقد جاهاج الجahليه العربية الطليعة الأولى للدعوة السمحنة ، بمحجة المحافظة على ما كان عليه عرف الآباء والأجداد .

ب - طبقة الموالي :

تعتبر هذه الطبقة أدنى منزلة من أبناء القبيلة الصُّرَحاء ، وهؤلاء على أقسام :

موالى الجوار أو الجِلْف ، أو من العتقاء الذين أعتقهم القبيلة .
ت تكون هذه الطبقة إذن من أصلين كبيرين : الأحرار والعبيد .

(١) انظر : تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على : ٤٥٣/٤ - ٤٥٦ - ورثاج العروس :

مادة (تحول) ٧/٢١٢ .

فالأحرار هم الذين حأوا إلى القبيلة ، سواء عن طريق الجوار حيث يختفي الجار بالقبيلة المجاورة عن طريق أحد أفرادها ، فيصبح مولاً ، ويعيش في ظل هذه القبيلة الجديدة ، ولكل منهما أن يرث صاحبه إذا مات قبله . ومن هؤلاء الأحرار من جاء عن طريق التحالف بين القبائل ، إذ يتتجىء قبيلة ضعيفة إلى قبيلة أخرى أقوى منها لتدافع عنها .. أو يتتجىء فرد إلى قبيلة تزره وتحميء ، ومن هذا القبيل يهود يتراء ، فقد كانوا في ولاية الأوس والخزرج قبل الإسلام^(١) .

وقد ذكر بعض أهل الأخبار أن المولى ثلاتة : مولى العين المخالف ، ومولى الدار ، ومولى النسب ابن العم والقرابة .

وقد وردت هذه الأنواع في البيت التالي :^(٢)
 نبئت حيَا على نعمان أفرادهم مولى العين ومولى الدار والنسب
 وقد يكون المولى من العُلماء :

وهم الذين خلعنهم قبائلهم لكترة جنایاتهم ، فإذا ارتكب الفرد جريمة القتل لأحد أفراد قبيلته ، ورفض أهله الديمة خُلْع ، وتعلن قبيلته ذلك ، وأن صلته بها انقطعت ، فكان جنسية القبيلة قد سُحبَت منه ، ولذلك يضطر المخلوع إلى الالتجاء إلى إحدى القبائل ، ومن هنا نشأ قانون الجوار .

هذا الرجل الذي بهم على وجهه طريداً يلتمس مجاورة رجل من عشيرة أخرى ، يقال له : « الخليع » فقد خلعته قبيلته وحرمته عطفها وعصبيتها ، ولا بد من إعلان الخلع في المواسم العامة كالحج مثلاً أو سوق عكاظ ، وينجد الجوار المنشود عند من يتتجىء إليه^(٣) .

(١) انظر جواد على : ٤/٣٦٦ ما بعدها ، والشعر الجاهلي د. يحيى الجبودي .

(٢) العمدة : لابن رشيق ٢/١٩٨

(٣) انظر الشعراء الصعاليك : ٩١-١٠٠ ، وجواد على : ٤/٤١٠-٤١١ .

وقد قدس العرب الحوار حتى اشتهر به بعض أشراف العرب كالزبير
ابن عبد المطلب الذي كان ينزل عليه الخلعاء بمكة ويحتمم^(١)
وكان دية الجار نصف دية ابن القيلة الصربيع .

ومن هؤلاء الخلعاء الشذاذ أبو الطمحان القيني فقد كان فاسقاً ،
عاش حياة مضطربة ، متنقلًا بين أحياه العرب مستجيراً بها ، وذلك لنكرار
جنایاته ، أدرك الجاهلية والإسلام .

واستقر به المقام أخيراً في جوار أحد بنى فَرَّارة^(٢) وكان الفزارى قد
أكرمه . ثم اشتقأ أبو الطمحان إلى أهله وعشيرته وقال لسعد بن مالك :
لولا أن يدى تقصير عن دية جنایتي لعدت إلى أهلى .

فقال له الفزارى : هذه إبلى فخذ منها دية جنایتك ، وازدد ما
شئت .

فلما أصبح ندم على ما قاله ، وكراه مفارقة جاره ، ثم أنى مالكاً
 وأنشده أبياتاً يمدحه فيها ويعتذر عما كان منه فيها قوله :
وقد عرفت كلامكم ثيابي كأنى منكم ونسى أهلي
فقال مالك مُرْحَبًا به : إنك حبيب ازداد حُبًا ، إنما اشتقت
لأهلك ، وذكرت أنه يحبسك عنهم ، ما تطالب به من عَقْل أو دية ، فبذلت
لك ما بذلت ، وهو لك على كل حال ، فأقم في الرَّخْب والسَّعْة .
فلم يزل مقيمًا عندهم حتى هلك في دارهم^(٣) .

(١) الشعر والشعراء : لابن قيبة : ص ٢٩٩

(٢) سعد بن مالك الغزاوى

(٣) الأغاني : ١٣٢/١١ (ط بولاق)

الهجناء :

وهم أبناء العرب من إمائهم ، فقد تزوج العرق من أمّه ، وكان يطلق على اسم المولود من هذا الزواج « الهجن » ، وما كان العرب ينظرون إلى هذا الزواج ونتائجـه الخطيرة لدـيهـم نـظـرة احـترـام .

فالمجـين إذن ولـدـ العـرـقـ منـ غـيرـ العـرـبـيةـ ، وـقدـ عـابـ العـرـبـ هـذـاـ الزـواـجـ لـوـجـودـ دـمـ أـعـجمـيـ فـيـ .. وـكـانـ الأـعـاجـمـ -ـ مـهـماـ كـانـواـ عـلـيـهـ مـنـ مـنـزـلـةـ -ـ دـوـنـ العـرـبـ فـيـ نـظـرـ عـرـبـ الـجـاهـلـيـةـ وـيـظـهـرـ أـنـ لـفـظـةـ اـفـجـينـ خـصـصـتـ لـمـنـ يـوـلدـ مـنـ أـمـ أـعـجمـيـ بـيـضـاءـ ،ـ كـأـنـ تـكـوـنـ أـمـ رـوـمـيـةـ أـوـ فـارـسـيـةـ^(١) .

وـكـانـ أـبـعـضـ ماـ يـعـضـهـ العـرـقـ أـنـ تـلـدـ أـمـهـ مـنـهـ ،ـ وـمـنـ هـنـاـ كـانـواـ يـسـتـعـبـدـونـ أـوـلـادـ إـمـائـهـمـ ،ـ وـيـرـفـضـونـ الـاعـتـرـافـ بـهـمـ إـلـاـ إـذـاـ أـبـدـواـ خـيـابـةـ مـتـازـةـ ،ـ فـإـنـهـمـ حـيـثـنـذـ يـلـحـقـوـهـمـ بـنـسـبـهـمـ^(٢) .

وـكـانـ شـعـرـ عـنـتـرـةـ بـنـ شـدـادـ يـبـنـضـ أـلـمـاـ وـحـزـنـاـ مـاـ يـعـانـيـهـ بـسـبـبـ وـلـادـهـ مـنـ أـمـ سـوـدـاءـ ،ـ وـبـسـبـبـ مـوـقـفـ وـالـدـهـ وـمـجـتمـعـهـ مـنـهـ رـغـمـ بـسـالـتـهـ وـشـجـاعـتـهـ .

وـكـانـ أـسـوـاـ هـؤـلـاءـ الـهـجـنـاءـ حـظـاـ وـأـوـضـعـهـمـ مـنـزـلـةـ أـوـلـادـ إـمـاءـ السـوـدـ ،ـ فـقـدـ كـانـواـ سـيـئـةـ يـعـيـرـ بـهـمـ آـبـاؤـهـمـ وـمـنـ هـنـاـ أـطـلـقـوـاـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ السـوـدـ اـسـمـ :ـ الـأـغـرـبـةـ .

(١) جـوـادـ عـلـىـ :ـ ٣٩٠ـ /ـ ٤ـ .

(٢) الشـعـرـ وـالـشـعـراءـ :ـ اـبـنـ قـبـيـةـ (٢٥١ـ -ـ ٢٥٠ـ) .

أُغْرِبَةُ الْعَرَبُ :

وذلك تشبّهًا هم بذلك الطائير المشؤوم عندهم .. فما يحسن هؤلاء الأُغْرِبَةُ ، أولاد الإمام السواد في نظرهم إلا رَغْيُ الإبل والجِلَاب والصَّرَّ ، كما يعبر عنّة عن ذلك في شعره، ساخراً من تلك الأوضاع الاجتماعية السائدة .

وقد خرج بعض هؤلاء الأُغْرِبَةُ الأقوباء على أوضاع القبيلة ، ورفضوا الحياة الذليلة التي فُرضت عليهم .

ومن هؤلاء الأُغْرِبَةُ المتمردين ، تألفت جماعات من صعاليك العرب ترفض واقعها الأليم .. أمثال : السُّلَيْلِكَ بن السُّلَكَةَ السَّقْدِي ، بصفة ابن قبيبة : « بأنه أحد أُغْرِبَةُ العرب وهجائهم وصعاليكهم »^(١) .

كانت أمّه سوداء حبشيّة ، ومثله ظَابَطَ شَرَا كان من هذه الطائفة .

وقد انضمت هذه الطائفة من الصعاليك الأُغْرِبَةُ إلى طائفة الصعاليك الخنفاء والشَّدَادُ لِيشترِكُوا في العمل ضد هذا المجتمع ، الذي تخلى عن رعاية الأُغْرِبَةُ ، وعن حماية الخنفاء الشَّدَادُ^(٢) .

لقد ميزَ القوم بين الناس على أساس اللون ، وكان احتقارهم للسود يدفع السُّوَدَ دفعاً إلى المكارم والنباهة والبطولة والفصاحة .

لقد ميزَ عرب الحاچلية بين الناس ، فهذا أصيل ، وذاك ذخيل ، وأخر هجين .. وأغرب من هذا كلّه استبعاد الأب لابنه إن كان من أمّة سوداء .

(١) الشعر والشعراء : ٢١٤

(٢) الشعراء الصعاليك : ١١٤ ، ١٠٣

لقد ميزوا بين الناس بسبب العنصر ، فهذا شريف ، وذاك وضيع ،
هذا كريم وذاك بخيلاً ، هذا مولى وأخر حر ..^(١) وقد ظهرت هذه التفرقة
في شعرهم :

يقول المتنمّس :^(٢)

أَحَارِثُ إِنَا لَوْ شَاطُ دَمَاؤُنَا تَرِيلْ حَتَّى مَا يَحْسُدُ دَمْ دَمَا
فدماء القوم لا تقبل الاختلاط ، حيث لا يختلط دم الشريف بدم الوضيع .
وقد اعتبروا أبناء السبابا في منزلة أقل من منزلة أبناء الإماماء .

يقول شاعرهم :^(٣)

نَهِيْكُمْ أَنْ تَحْمِلُوا فَوْقَ خَيْلَكُمْ هَجِينًا لَكُمْ يَوْمَ الرِّهَانِ فَيَدْرِكُ
وَهُلْ يَسْتَوِيُ الْمَرْءُانُ : هَذَا ابْنَ حَرَةٍ وَهَذَا ابْنَ أَخْرَى ظَهَرُهُا مَتَشَرِّكٌ
وَالْمَوَالِيِّ مِمَّا كَانُوا عَرَبًا أَمْ عَجَمًا ، كَانُوا أَقْلَى شَأْنًا فِي الْمُجَتَمِعِ
الْجَاهِلِيِّ مِنَ الْأَحْرَارِ ، وَهُذَا قَلَمًا زَوْجُ الْأَحْرَارِ بَنَاتِهِمُ الْمَوَالِيِّ ، وَكَانَ مِنْ
سَنَّتِهِمْ فِي الزَّوْجِ : كَفَاءَةُ النَّسْبِ وَالْمَنْزَلَةِ وَالْحَرْفَةِ^(٤) .

كَأَنَّ الْمَوَالِيِّ لَا يُسْتَطِعُ أَنْ يَجِيرَ عَلَى الْقَبِيلَةِ كَمَا يَجِيرُ ابْنَهَا عَلَيْهَا .
إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لِدِيهِمْ أَعْرَافٌ تَجْعَلُ نَفْعَلَ نَفْعَلَ الْعَهْوَدِ وَالْمَوَاثِيقِ مِنْ أَقْبَعِ
الْعِيُوبِ ، وَتَجْعَلُ الْغَدَرَ بِالْمَوَالِيِّ وَالْحَلِيفِ مِنَ الْعَارِ الْمُسْتَهْجِنِ .

(١) انظر المعتقدات والقبه : محمد محمود صيام ، ٤٢٧ ، ٤٢٩

(٢) لسان العرب مادة : شيط ، والصحاح : ١١٣٩/٢ ، ومعنى شاط الدماء : حلصها .

(٣) للشاعر العبدى : المستطرف للأبشيلى ٨٥/٢

ومترنثك : أى مترنثك (انظر اللسان : شرك)

(٤) جواد علي : ٣٦٩/٤

يقول الحادرة ،^(١) (وهو قطبة بن أوس) :
أَسْمَى وَيَحْكِ هَلْ سَعَتْ بَعْدَرَةَ رُفْعَ اللَّوَاءِ لِنَابَهَا فِي مَجْمَعِ
وَقَبْلَ أَنْ تَنْتَقِلَ إِلَى طَبَقَةِ الرِّيقِ وَالْعَبِيدِ ، لَابْدَ أَنْ تَنْتَهِي عَنْ طَائِفَةِ
أُخْرَى أَشْرَنَا إِلَيْهَا خَلَالَ حَدِيثَنَا عَنِ الْخَلْعَاءِ وَهِيَ (طَائِفَةُ الصَّعَالِيكَ) .

طائفة الصعاليك

هم أولئك المشاغبون المُغَيْرُونَ أَبْنَاءَ الْلَّيْلِ ، الَّذِينَ يَسْهُرُونَ لِيَالِيهِمْ فِي
السَّلْبِ وَالنَّهْبِ وَالإِغْارَةِ ، بَيْنًا يَنْعُمُ الْخَلِيلُونَ الْمُتَرْفُونَ الْمَسَالِمُونَ بِالنَّوْمِ وَالرَّاحَةِ
وَاهْدُوا .. هُمْ طَائِفَةٌ مِنْ قَطَاعِ الْطَّرَقِ كَانُوا مُنْتَشِرِينَ فِي أَرْجَاءِ الْجَزِيرَةِ
الْعَرَبِيَّةِ يَنْهَبُونَ مِنْ يَلْقَوْنَهُ فِي صَحْرَائِهَا الْمُوْحَشَةِ الرَّهِيْبَةِ وَيَأْكُلُونَ مَالَهُ^(٢) .

كان الجوع سبباً من أسباب ظهور هذه الطبقة ، حتى أن عروة بن الورزد (سيد الصعاليك الذين كانوا يلجأون إليه كلما قست عليهم الحياة) كان صعلوكاً فقيراً مثلهم .

ويذكر الرواة أنه جاء بأمرأته إلى بني النضير « ولا شيء معه إلا هي فرها ولم يزل يشرب حتى غلقت »^(٣) .

وتكثر في شعر عروة أحاديث فقره، وما يتکبده في سبيل المال من جهد ومشقة إذ يقول^(٤) :

دَعَنِي لِلْغَنِيِّ أَسْغَى فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمُ الْفَقِيرُ

(١) المفضليات : ص ٤٥٦ رقم (٨) .

(٢) الشعراء الصعاليك في العصر الحايلي : د. يوسف خليف الله ط دار المعارف بمصر ص

٢٤، ٢٣

(٣) الأغاني : ٣٨/٣ (طبعة دار الكتب المصرية) « ومعنى غلق الرهن في بد المعنون : أى استحثله وذلك إذا لم يقدر الراهن على افتتاحه في الوقت المشروط » .

(٤) ديوان عروة . ص ٤٥، ٢٣ « ط دار صادر ، بيروت »

وقوله :

وَمِنْ يَكُنْ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرًا مِنَ الْمَالِ يَضْرِحُ نَفْسَهُ كُلَّ مُطْرَحٍ
وَمِنْ يَتَأْمِلُ شِعْرَ الصَّعَالِيكَ ، يَلْفَتُ نَظَرَهُ شَعْورَهُمُ الْحَادُ بِالْفَقْرِ ،
حَيْثُ أَنَّ الْجَمَعَ ظَلْمَهُمْ بِأَعْرَافِهِ وَتَقَالِيدِهِ كَمَا يَرَوْنَ .

فَقِيسُ بْنُ الْحِذَادِيَّةُ مثلاً يَرَى أَنَّهُ لَا يَسَاوِي عِنْدَ قَوْمِهِ « عَنْزًا جَرِيَاءَ
جَوَافَهُ » .

وَفِي أَخْبَارِ الشَّنْفَرِيِّ : أَنَّ قَوْمَهُ قَتَلُوا رَجُلًا فِي خَفْرَةِ بَعْضِ بَنِي فَهْمَ
فِرْهَنْهُ وَأَهْمَهُ وَأَخَاهُ وَأَسْلَمُوهُمْ وَلَمْ يَفْدُوهُمْ^(١) .

لَقَدْ حَاوَلَ هُؤُلَاءِ الصَّعَالِيكَ أَنْ يَنْتَرِعُوا لِقَمَةِ الْعِيشِ - حَسْبَا
يَرَوْنَ - مِنْ أَيْدِي مَنْ حَرَمَهُمْ مِنْهَا . « فَالْحَقُّ لِلْقُوَّةِ وَالْغَاِيَةُ لِدِينِهِمْ تَبَرُّ
الْوَسِيلَةُ » .

لَقَدْ كَانُوا يَأْنِفُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْفَرْعَوِيَّةِ فِي الْمَجَامِعِ الْقَبْلِيَّةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا
الْعَبْدُ وَأَشْبَاهُهُمْ ، كَخَدَمَةِ الْإِبْلِ مثلاً ، فَعَنْتَرَةُ يَقُولُ مُحْتَجًا عَلَى قَوْمِهِ :
« الْعَبْدُ لَا يُخْسِنُ الْكَرَّ ، وَإِنَّمَا يُخْسِنُ الْحِلَابَ وَالصَّرَّ »^(٢) .

إِنَّ الصَّعَالِيكَ لَا يَرْتَضُونَ لِأَنفُسِهِمْ إِلَّا تَلْكَ الْأَعْمَالُ الْأَسَاسِيَّةُ الَّتِي
يَقُومُ عَلَيْهَا الْمَجَامِعُ الْبَدُوِيَّةُ كَالْغَزوِ وَالْإِغْارَةِ^(٣) .

وَهُمْ رَغْمَ ذَلِكَ كَلَمَ كَرْمَاءِ حَتَّى لِيُضْرِبَهُمْ الْمَثَلُ فِي الْكَرْمِ قَيْلَ :
« كُلُّ صُقُلُوكٍ جَوَادٌ »^(٤) .

(١) شَرْحُ المُفْضِلَيَّاتِ لَابْنِ الْأَنْبَارِيِّ : ١٩٧-١٩٨.

(٢) الشِّعْرُ وَالشِّعْرَاءُ : ٢٥٠-٢٥١.

(٣) الشِّعْرُ الصَّعَالِيَّكُ : (٣٠-٣٤).

(٤) مَجْمُعُ الْأَمْتَالِ لِلْمَيْدَانِيِّ : ٢/٩٠.

ويقرنون عروة بن الورد مثلاً بحاتم الطائلي ، فقد روى عن عبد الملك ابن مروان أنه قال : « من رعم أن حاتماً أسمع الناس فقد ظلم عروة بن الورد »^(١) .

إن الغنى والغزو والغارة والسلب ليست عند الصعاليلك وسائل للغنى وجمع المال فحسب ، ولكنها كانت وسائل للمبذل والعطاء كذلك وكانت النتيجة الطبيعية لهذا كله، أن فرّ مؤلاء الصعاليلك من مجتمعهم النظامي، ليقيموا لأنفسهم مجتمعاً فوضوياً ، شريعته القوة ، ووسيلته الغزو والإغارة ، وهدفه السلب والنهب، ووجدوا في الصحراء الفسيحة مجالاً يمارسون فيه نشاطهم الإرهافي .

ويلاحظ مما سبق أن هنالك ثلات طوائف تتألف منها عصابات الصعاليلك :

- طائفة الخلاء والشذاذ الذين أنكروا لهم قبائلهم وطردتهم من حماها مثل : قيس بن الجذاديه .

- طائفة الأغربة السُّود الذين سرى إليهم السواد من أمرائهم الإماماء ، ولم يعترف بهم آباءهم العرب ولم ينسبوهم إليهم مثل : ثأبطة شرّا والشتئفري ، والسليلك بن السُّللكة .

- طائفة الفقراء المتمردين ويمثلهم عروة بن الورد .

لقد انطلقت هذه العصابات كما تنطلق الذئاب الجائعة في الصحراء الموحشة تثير الرعب والخوف وتعود بالنهب والسلب^(٢) .

(١) الأغانى : ٧٤/٣

(٢) انظر الشعراء الصعاليلك . ص ٥٥-٥٦

ج - طبقة العبيد والرقيق :

كانت هذه الطبقة تتألف من عنصرين : عنصر عربي وهم أولئك الأسرى الذين كانوا يقعون في أيدي القبيلة في حروبها مع القبائل الأخرى ، وعنصر غير عربي ، وهم أولئك الرقيقين الذين كانوا يُجلبوا من البلاد المجاورة للجزيرة العربية مثل إفريقيا والحبشة بشكل خاص .

وكان السبب نتيجة الحروب القبلية من الرجال والنساء أمراً أساسياً في كل غارة ، ومن الطبيعي أن يكون تعرض النساء للنبي أكثر من الرجال ، وكان الرجل يحرص على سبي أكبر عدد ممكن من النساء لأن في هذا إهانة لأعدائه ، وكان يحدث أحياناً أن يفاجأ كل نساء الحمى فيؤخذن سبايا ، ومن هنا كانت حماية النساء والأطفال خطوة أساسية في فنهن العربي ، ومن هنا أيضاً كانت حماية الضعينة عنصراً أساسياً من عناصر البطولة العربية^(١) .

وربما باعت القبيلة أسرابها ، وكان زيد بن حارثة مولى رسول الله - عليه السلام - ، من قبيلة قضااعة « أصابه سباء في الجاهلية لأن أمّه خرجت به تزور قومها بني مغافر فأغارت عليهم خيل بني القين ، فأخذوا زيداً فقدموا به سوق عكاظ فاشتراه حكيم بن جرام لعمته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وقيل : اشتراه من سوق حباشة^(٢) .

أما العنصر الآخر من الرقيق المخلوب للتجارة ، وقد كانوا كثيرين ، حيث كان كل شريف من أشراف العرب يحرص على ألا يخلو منزله من هؤلاء العبيد .

(١) الشعراء الصعاليك : (٣٠١-٤١) .

(٢) أسد الغابة لابن الأثير : ٢٤٤/٢ ط القاهرة ١٢٨٠ م

وقد كانت قريش تستخدمهم في حراسة قواقلها التجارية وفي الحروب ، يدل على ذلك اشتراك وحشى وغيره في يوم أحد ، وقول كعب ابن مالك - رضي الله عنه - في حيش قريش يوم أحد وفيهم العبيد :^(١) فجئنا إلى مرج من البحر وسطه أحبابيش منهم حاسير ومقنع ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء العبيد أقل مكانة من الموالى ، ويقومون بالأعمال الشاقة المرهفة .

وكان الرقيق أمراً شائعاً ونظاماً عالمياً ، إلا أنه كان في عزف الأمم الأخرى لا حقوق له ولا كيان ، يعامل بقسوة بالغة . « كان الرقيق في عرف الرومان شيئاً لا بشرًا ، شيئاً لا حقوق له البتة وإن كان عليه كل ثقيل من الواجبات . »

كانوا يعملون في الحقول وهم مُصنَّدون في الأغلال الثقيلة التي تكفى لنعمهم من الفرار .. كانوا يساقون أثناء العمل بالسياط .. كانوا ينامون في أكواخ « زنزانات » مظلمة كريهة الرائحة .

ومن أبغض وسائلهم مع الرقيق حلقات المبارزة بالسيف والرمح ، إذ كانت من أحب المهرجانات إليهم ، حيث يجتمع السادة ليشاهدو الرقيق ، يتبارزون مبارزة حقيقة فتنطلق الضحكات السعيدة العميقية حين يقضى أحد التبارزين على زميله قضاء كاملاً .

ولم تكن معاملة الرقيق في فارس والهند وغيرها تختلف كثيراً عما ذكرنا من حيث إهدار إنسانية الرقيق إهداراً كاملاً وتخميشه باثقل الواجبات^(٢) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ١٣٤/٢ الطبعة الثانية ، تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الأبيارى - عبد الحفيظ شلبي ١٩٥٥ م .

(٢) شهادات حول الإسلام : الأستاذ محمد فطب (ص ٤٨-٣١)

وفي اليونان كان أرسسطو يقول في تعريف الرقيق : « إنه آلة ذات رُوح ، أو متابع قائمة به الروح » .

وكان حكومات القرون الوسطى في أوربا تعتبره كالحيوان الأهل المستخدم وكذلك القوانين السوداء في أمريكا المتحدة نصت أن العبيد لا نفس لهم ولا روح ولا إرادة .

وإذا تزوج الأبيض بأمرأة امترج بها دم الأرقاء ، اعتبر هذا الأبيض ساقطاً عن درجة ذي اللون الأبيض .

وأغرب من هذا ما كان في العصور الوسطى في أوربا عند بعض أئمتها ، من أنه إذا تزوج أحد الأهالي بأمة سوداء وقع في الرُّق مثلها ، وإن المرأة الحرة التي تتزوج بعد تفقد حريتها ، وبنائها هذا العقاب ، وكانت تعاقب أحياناً بالإعدام ، أما إذا تزوجت السيدة بعدها فجزاؤهما أن يحرقا بالنار وهما على قيد الحياة .

ولو قارنا ما جاء به الإسلام من عدل ومساواة بين الأجناس كلها حيث لم تقف وراثة اللون أو الجنس أو الطبقة دون أن يعيش الجميع إخواناً متحابين . لو قارنا هذا مع ما كان عليه الرقيق في بلاد الرومان واليونان وأوربا في القرون الوسطى والحديثة حتى الثورة الفرنسية وفي أمريكا حتى حرب سنة ١٨٦٢ م نجد التباُن شاسعاً والفرق عظيماً^(١) .

(١) انظر : هذا الدين الأستاذ سيد قطب رحمه الله ، ط دار الشروق ، الصفحات :

. ٩٧، ٧٨-٧٧

٢ - الناس في المجتمع الجاهلي منازل ودرجات :

كان الناس يتفاوتون في المكانة الاجتماعية ، وترتب على ذلك أعراف شتى :

أ - فهناك عرف التكافؤ بين الطبقات :

حيث أن دم القتيل الشريف لا يغسل إلا بدم شريف مثله ، ومن أهل مكانته - فالدم لا يغسل إلا بدم مواز له ، ولا بد من قتل شريف مثله حتى يستطيع أن ينام أهل القتيل .

وعلى هذا بنوا تقويم أثمان الديات : فدية الملوك في الجاهلية أعلى ما دفع ثمناً عن دم ، إذ جعلت دية الملوك ألفاً من الإبل .

تلتها ديات الأشراف وسادات القوم ، حسب الشرف والمنزلة ، حتى تصل إلى ديات المعمورين ، فتكون أقلها ثمناً إذ تبلغ خمساً من الإبل .

وعلى أساس هذه النظرية قدرت فدية الأسرى أيضاً ، فقدية الملوك ألف من الإبل ، وفدية من هم دونهم أقل حتى تصل إلى أبغض الأثمان وهي فدية سواد الناس .

ب - وهناك عرف التكافؤ في الزواج :

إذ كانوا يمتنعون عن نزويج بنات الأشراف من رجال هم دون أهل البنت في المنزلة .

فقد يرفضون تزويج رجل ثرى من امرأة فقيرة شريفة الأصل ، إذا كان الرجل من أصل ذايل ، كأن يكون أبوه أو جده صانعاً أو بائع خضار ، مراعاة منهم لمبدأ نقاوة الأصل وإنجاب الأولاد النجاء .. ومن

أجل ذلك امتنع العرب من تزويج بنائهم من الأعاجم، حتى لو كانوا ملوكاً^(١).

وقد روي أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة رد طلب كسرى لما طلب منه تزويج إحدى بناته من أحد أبنائه، وقد اغتنم زيد بن عدي هذه الفرصة وقال لكسرى :

« قد كنت أخبرك بضئ العرب بنسائهم على غيرهم ، إن شر شيء في العرب وفي النعمان ، أنهم يتكررون عن العجم » .

ومن أجل ذلك عصب كسرى على النعمان وقضى عليه^(٢) .

ومن هذه النظرة كان هجاء عبد القيس بن خفاف البرجمي للنعمان ابن المنذر في الجاهلية ، لأن أحد آبائه كان صائغاً ، حيث أن العرب كانت تختقر المهن وتعتبرها لا تليق بهم حيث قال :^(٣)

أعْنَ اللَّهِ ثُمَّ شَنَّ بَلَغُنَ ابنَ ذَا الصَّائِنِ الظُّلُومَ الْجَهُولَا
يَجْمَعُ الْجَيْشَ ذَا الْأَلْوَافِ وَيَغْزُو ثُمَّ لَا يَرَأُ الْعَدُوَ فَتِيلًا

وهكذا كان العربي يعتقد أنه أرفع من العجمي ، بل يأنف العرف نفسه أن يكون أحد أصوله ذا صنعة ، لأن المهن من شأن العبيد والضعفاء ، أما هم فقد خلقوا للقتال والغزو ، والعيش في أجواء البوادي الفسيحة .

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد علی ، ٤١/٥٤٥-٥٤٥ .

(٢) انظر تاريخ الطبرى : ٢٠٢/٢ وما بعدها .

(٣) الأغاني : ١٥٨/٩ ، والحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون : ٣٧٩/٤ .

ج - وكان الأحرار منازل ودرجات :

وهم متفاوتون من حيث الشرف والمال ، ويظهر هذا التفاوت بين أهل المدر أكثر مما يظهر بين أهل الورير . ذلك لأن الأعرابي فخور بنفسه ، يرى أنه شريف كغيره، نبيل وإن قلل ماله وشجع .

ولذلك فالتفاوت بين الطبقات لا يمكن أن يظهر في الباذية ظهوره بين الضواحي والقرى ، لأن طبيعة الباذية لا تساعد على ظهور ذلك التباين وهو أشد ما يظهر في اليمن :

لأن أرض اليمن خصبة وذات خيرات ، ولذلك ظهر فيها الإقطاع ، وكثير الرقيق لتشغيله في الزراعة والمهن الوضيعة - حسبما يرون - .

وكان قد عيب على أهل اليمن اشتغاظهم بالحرف : كالخدادة والخياكة والصياغة ، وقد أشار أمية بن خلف لهذا إلى اشتغال أهل اليمن بالحرف بقوله :

يمانيًّا يظل يشُدُّ كِبِيرًا وينفع دَائِرًا هَبِ الشُّواطِ

ولكن من عابهم كان عالة عليهم ، وعلى غيرهم من أهل الحرف في أكثر الأمور التي تخص شؤون حياتهم اليومية كالسيوف والخناجر الحديدة ، وكانوا يخافونهم في الخروب لامتلاكهم أسلحة لا يملكونها^(١) .

وأصبح مجتمع اليمن وعرب الجنوب مجتمعاً له طبيعته الخاصة وكذلك صار لأهل مكة مجتمعهم الخاص ذو طابع تميز .

(١) تاج العروس : ٣٧١/٩ - مادة يمن .

(٢) انظر جواد على : ٥٤٥/٤، ٢٧٩، ٣٧١ .

ويقال مثل ذلك : في أهل الحيرة ويثرب وبقية المجتمعات الحضرية ، شأن بقية أهل المدر ، وذلك بسبب طبيعة الجو والأرض وعوامل اجتماعية أخرى خلافاً لأهل الوبر ومجتمعاتهم^(١) .

لقد كان في اليمن تباين الطبقات واضحأً :

كطبقة رجال الدين من المكاربة ، وطبقة السادة والأشراف والوجوه وأخيارين ، وطبقة التجار ، والطبقات الدنيا من الخدم والفقراء والعبيد ، وطبقة الأبناء : الناتجة من زواج الفرس من العرب ، وطبقة الحرفيين : كالحلاقة والجحاجمة وأمثالها ، وهم غالباً من العبيد .

ومثل هؤلاء : طبقة المصريين والمعندين والمُختَيَّفين ، لأنها كانت من الطبقات الدنيا الوضيعة .

أما مجتمع الأعراب أهل الوبر : فهو مجتمع ساذج ليس في تكوينه تعقيد ، وكل ما هنالك ففيهم سادات القبائل ، وهم رؤساء القبيلة وأشرافها ثم أشراف العشائر ومتفرعاتها ، ولم يهم أموال ورقيق يخدمونهم ، ويتشر سواد القبيلة في أرضها دون تمييز^(٢) .

٣ - معايش العرب ونظرهم إلى المهن :

أ - في البدية :

كان العرب يزدرون الزراعة والصناعة ، حيث كانوا يهتمون بتربية الأنعام .

وأهم حيوان في البدية وأكثرها نفعاً عندهم الإبل ، إذ كانت عماد الحياة عند العرب ، فهي خير المال ، بها يُقْرُّمون البضاعة ويفتدون

(١) المصدر السابق : ٤٨٢-٤٨٣

(٢) المصدر السابق : ٤٥٤/٤ ، ٦٤٥ - ٥٧٠

الأسرى ، ويدون القتل ، ويدفعون المهور ، ولذلك اهتم العربي بابله ، وكثرت أسماؤها في شعره ونظموا فيها القصائد وبشروا أشجانهم وعواطفهم .

وحياة الأعراب تكاد تكون واحدة ، لا تغير فيها ولا تبدل – إلا ما كان من أغرب الضواحي والحواضر ، فإن ظروفهم تختلف عن هؤلاء ، وكان مجال تفكيرهم أوسع من مجال تفكير الأعراب ، بسبب نوع المعيشة المتغير ، وقربهم من الحضر .

ولو درسنا حياة القبائل في الجاهلية لوجدناها مشابهة لحياة الأعراب في العصر الحاضر ، في نمط الحياة وكثير من مظاهر الحياة^(١) .

ب - نظرية العرب إلى مهنة الزراعة :

كانت هذه المهنة هي مهنة الحضر في المدن والقرى وما حولها . أما أبناء البدارية فقد كانوا ينظرون إليها على أنها عمل أهل الذلة والهوان ، فهم ينالون أرزاقهم بأطراف القنا والسيوف .

وقد صور الأعشى هذه التزعع حين عَيَّرَ قبيلة إياد بالزراعة إذ يقول^(٢) :

لَسْنَا كَمْنَ جَعَلْتُ إِيَادَ دَارَهَا تَكْرِيَتْ تَمْنَعْ خَبَهَا أَذْ يُحَصِّدُوا
جَعَلَ إِلَهَ طَعَامَنَا فِي مَالَنَا رَزْقًا تَضْمِنَهُ لَنَا لَنْ يَنْفَدِدا
ضَمَنَتْ لَنَا أَعْجَازُهُنْ قَدْوَرَنَا وَضَرَوْعَهُنْ لَنَا الصَّرْبَعُ الْأَجْرَدَا

(١) انظر : بلوغ الأرض للألويسى : ٤٢٥-٣٨٥/٣

وتاريخ العرب قبل الإسلام : جواد عل ، ٣٠٢/٤

والشعر الجاهلي : بحى الجبورى : ٨٨-٧٥ .

(٢) ديوان الأعشى : ص ٦٥ ، طبعة دار بيروت ، ١ وينقصد بالصربي الأجرد : الذين الصاق .

هكذا كانت نظرة العربى في باديه إلى الزراعة ، ولذلك أحببوا قوماً متكلين على الغيث ، يتبعون موقعه ، يرعنون أغناهم ، ويتقلون بها ، فهى قوام حياتهم بعد الغزو ، وحياة أنعامهم ، سواء أكانت فى أرضهم أم فى أرض غيرهم .

يقول شاعرهم ، معاوية بن مالك معِد الحكماء^(١) :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وهكذا كان العرب في تهامة وتَجْدُد وبوادي الشام والدُّهْنَا يعيشون عيشة بدوية تعتمد على الرعي ، وكانوا لا يفضلون شيئاً على حياتهم الرعوية البدوية ، بل يحتقرن الزراعة والصناعة ويزدرؤنها ، حيث يفضلون حياة الحرية والبساطة ، فطعامهم بسيط ، ولباسهم كغذائهم ، إلا أن الصحراء مليئة بالمخاطر والخواوف من الإنس والوحش والسباع ، فكان الواحد منه يقطع المفازة في النهار ، فإذا جئه الليل وَجَدَهُ في مفازة أخرى .. وهم دائماً مُفَزَّعون حتى في النوم ، سيفهم جاهزة لأى طارىء ، ولذلك فهم يؤثرون الوحشة ويستحبونها .

هذه الحياة القاسية المخوفة هي التي دفعتهم إلى الإشادة باحتمال الشدائيد ، بالجرأة والشجاعة ، وكان صيد الحيوان يشغل كثيراً منهم ، إلا أنه لم يكن هم شعuanهم وفرسانهم ، كان هم الفقراء والمُغوزين ولذلك كان يأتى في المرتبة الثانية من غزوهم ونهبهم فالغزو والنهب في نظرهم كانوا

(١) الرُّوضُ الْأَنْفُ : ٢/١٧٤ ، وانظر الشعر الجاهلي : الجبورى (٧٥-٨٨)

دلالة على البطولة ، ولعل ذلك ما جعل عمرو بن معدى كَرِب يهجو قوماً
يأْبِهِم بعيشون على الصيد إذ يقول :^(١)

أَبْنَى زِيَادٍ أَنْتُمْ فِي قَوْمِكُمْ ذَئْبٌ وَخَنْ فَرُوعٌ أَصْلَ طَيْبٍ
نَصْلَ الْخَمِيسِ إِلَى الْخَمِيسِ وَأَنْتَ بِالْقَهْرِ بَيْنَ مُرْبَقٍ وَمَكْلِبٍ
حَيْدٌ عَنِ الْمَعْرُوفِ سَعِيْ أَيْهُمْ طَلْبَ الْوَعْولَ بِوَفْضَةٍ وَأَكْلِبٍ
وَتَلْكَ كَانَتْ مَعِيشَتُهُمْ : بَيْنَ صَيْدِ الْلَّوْحَشِ ، وَصَيْدِ الْإِنْسَانِ ، وَرَعْيِ
الْأَنْعَامِ وَالْأَغْنَامِ ، وَتَلْكَ كَانَتْ مَوَارِدَ رِزْقِهِمْ^(٢) .

ج - نظرتهم إلى الصناعة :

كانت نظرة الحاضرة إلى الصناعة أهون من نظرة البدائية وإنْ كان
الأشراف يتعرفون في جاهليتهم عنها ، ولذلك عَيْرَ عمرو بن كلثوم النعمان
ابن المنذر بأنْ أمه كانت من أسرة ، مهنتها الصناعية . قال عمرو :^(٣)
لَا إِلَهَ أَدْنَانَا إِلَى اللَّؤْمِ زَلْفَةٌ وَالْأَمَّا خَالَةٌ وَأَعْجَزَنَا أَبَا
وَأَجْدَرَنَا أَنْ يَنْفَخَ الْكَبِيرَ خَالَهُ بِصَوْغِ الْقُرُوطِ وَالشُّنُوفِ بِيَهْرَبَا
وقد استمرت هذه النظرة عند كثير من القبائل العربية حتى عصور
متاخرة .

د - أما التجارة :

فقد كانت مهنة مربحة ، مهنة الحضر المتعلمين ، ولم تكن ظروف
البدائية ولا طباع أهلها تُعين على أن يبرعوا فيها ، لكن بعضهم كان يعمل

(١) الحيوان للماحظ : ٢٠٩/٢ .

« المربق : الصائد بالرَّبْنَةِ وهي العروة في الجبل ، والنكْبَر : الذي يصيد بالكلاب - الوقفة :
جَفْعَةٌ لِلسَّهَامِ تكونُ مِنْ أَذْمٍ » .

(٢) العصر الجاهلي : د. شوق ضيف ص ٧٨-٨٠ .

(٣) نهاية الأزب للتوبيرى : ١/٨٢ « ط دار الكتب المصرية » .

دليلًا يرشد القافلة ألا تضل في مجاهل الصحراء ، وَخَفِيرًا حامياً لها ، يمنعها من النهب والغارة^(١) .

وكان تجارة اليمن مشهورة ، ورحلات مكة التجارية معروفة
﴿لَا يَلْكِفُ قُرَيْشٌ ۚ إِنَّ لَهُمْ رِحْلَةً الْشَّتَاءُ وَالصَّيفُ﴾ ، وقصة قافلة
قريش التي مرت بيدر وحصلت بعدها معركة بدر الكبرى ، معروفة مشهورة

الحنين إلى الديار :

ومع فقر البادية وغلظ معاشها ، فإن الأعرابي يحن إليها ولا يصبر على
فراقها . قال الجاحظ :

« ترى الأعراب تحن إلى البلد الجدب والمحل القفر ، والحجر الصلد
وئستُوحِمُ الريف »^(٢) ولو كان ذا جنات وآرفة .

والعرب وإن عرّفوا بالرحل والتنقل بسبب البداوة إلا أنهم يحنون إلى
أوطانهم ، يستوى في ذلك العربي والأعرابي . وهم يرون أن في الغربة
كُربة ، وإذا صار الإنسان في غير أهله ناله نصيب من الذل .

« قيل لأعرابي : كيف تصنع في البادية إذا اشتد القيظ وانتقل كل
شيء ظله ؟ قال : وهل العيش إلا ذاك !؟

يمشي أحذنا ميلاً فيرفض عرقاً ، ثم ينصب عصاه ، ويلقى عليها
كساه ، وينجلس في قيشه يكتال الربيع ، فكأنه في إيوان كسرى »^(٣) .

(١) انظر المخبر محمد بن حبيب : ص ١٨٩، ٢٦٤، دار الإقامة الجديدة بيروت

(٢-٣) انظر رسالة الحنين إلى الأوطان ، من مجموعة رسائل الجاحظ : ٢، ٢٨٨/٢ ، تحقيق عبد السلام هارون .

ولقد نظم شعراً العرب في مساكنهم ، وفي الحنين إلى بواديهم شعراً عذباً حزيناً مؤثراً^(١) .

من ذلك ما قاله الصمة بن عبد الله :

فَقَالَ وَدَعَا نَجْدًا وَمِنْ حَلَّ بِالْحَمْىٍ وَقَالَ لِنَجْدٍ عَنْدَنَا أَنَّ يُودَعَا
بِنَفْسِي تِلْكَ الْأَرْضَ مَا أَطَيْبَ الرُّبَّا وَمَا أَحْسَنَ الْمَصْطَافَ وَالْمُتَرَبَّعاً
وَلَيْسَ عَشِيشَاتِ الْحَمْىٍ بِرَوَاجِعٍ عَلَيْكَ وَلَكِنْ حَلَّ عَيْنِكَ تَدْمِعَا
وَأَذْكُرْ أَيَامَ الْحَمْىٍ ثُمَّ اثْنَيْ عَلَىْ كَبْدِي مِنْ خَشْيَةِ أَنْ تَصْدَعَا
وَمَا يَرَوِي أَنَّ مَيْسُونَ بْنَ نَجْدَ الْكَلَابِيَّةَ ، لَمَّا تَزَوَّجَهَا مَعَاوِيَةُ
- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، وَنَقْلَهَا مِنَ الْبَادِيَّةِ إِلَى الشَّامِ ، كَانَتْ تَكْثُرُ الْحَنِينُ إِلَى
أَهْلِهَا وَمَوْطِنِهَا ، اسْتَمَعَ إِلَيْهَا ذَاتَ يَوْمٍ وَهِيَ تَنْشَدُ قَصِيدَةً مِنْهَا هَذِهِ الْأَبْيَاتِ :
لَيْسَتْ تَخْفِقُ الْأَرْوَاحُ فِيهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مُنْيَفِ
وَلَيْسَ عِبَادَةً وَتَقْرَرَ عَيْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْسِ الشَّفُوفِ
وَكَلْبٌ يَنْبَغِي الطَّرَاقُ دُونِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ تَقْرَرِ الدَّفُوفِ
إِذْ فَضَّلَتِ الْخَيْمَةُ تَخْفِقُ فِيهَا الْرِّياْحُ فِي الْبَادِيَّةِ ، عَلَىْ قَصْرِ الْخَلَافَةِ فِي
دَمْشَقِ ، فَمَنْ شَبَّ عَلَىْ شَيْءٍ شَابَ عَلَيْهِ وَلَهُ فِي خَلْقِهِ شَوْؤُونَ .

وَمِنْ هَذَا الْقَبْيلِ مَا يُذَكِّرُ أَنَّ صَبِيَّةَ تُسَمِّي حَسَانَةَ قَعْدَتْ عَلَىْ بُرْكَةِ فِي
رَوْضَةِ بَيْنِ اَنْرِيَاحِينِ وَالْأَزْهَارِ فِي الْأَطْفَلِ وَقَتْ وَأَبْهَجَهُ ، وَكَانَتْ قَدْ احْتَمَلَتْ
مِنَ الْبَادِيَّةِ إِلَى الْحُضْرِ .. فَقَبِيلَهَا كَيْفَ حَالُكَ هُنَا؟ أَلَيْسَ هَذَا أَطَيْبُ مَا
كَنْتَ فِيهِ مِنَ الْبَادِيَّةِ؟ فَأَطْرَقَتْ سَاعَةً ثُمَّ تَنْفَسَتْ وَقَالَتْ قَصِيدَةً مِنْهَا :
أَقُولُ لَأَدْنِي صَاحِبِي أُسِيرَهُ وَلِلْعَيْنِ دَمْعٌ يَحْدُرُ الْكَحْلَ سَاكِبَهُ
فِيَاحْبَذَا نَجْدَ وَطَيْبَ تَرَابَهُ إِذَا هَضَبَتْهُ بِالْعَشْنِ هَوَاضِبَهُ^(٢)

(١) انظر بلوغ الأرب : الألوسي : ١٩٩-١٩٨ / ٣-٤٢٥-٤٢٧

(٢) المرجع السابق . وَ هَضَبَتِ السَّمَاءَ : فَاضَتْ ، وَهَاضِبَةَ : السَّحَابَةَ ،

وبعد : فهذه إلمامه بطبقات الناس ومتنازفهم ، وأعرافهم وتقاليدهم ،
ونظرتهم إلى أصحاب المهن اليدوية ، ومدى تعلق الأعراف بموضعه رغم
شَنْفِ العَيْشِ .

وسوف نتحدث في البحث الثاني عن القلة البعيدة التي نقل الإسلام
العرب والناس جمِيعاً إليها .

«المبحث الثاني»

رأية العدل والمساواة ترفرف على الناس في ظلال الدعوة الإسلامية

جاء الإسلام ليترفع بالبشرية إلى أعلى درجات العدل والمساواة ، جاءه ايساوي بين الفرشى والأعمى ، جاءه ليبرد إلى البشر إنسانيتهم .. ويروض نفوس العرب للانقياد إلى التعاليم الجديدة والسلوك الكريم .

«وبعد أن كانت حمية الجاهلية ونُعْرَة العصبية ، والتعاون على الإثم والعدوان ، أصبح التعاون على البر والتقوى .

جاء الإسلام ليربط القلوب بالله ، وليربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله ، جاء ليخرج العرب والبشرية كلها من حمية الجاهلية .. وضغط الشاعر والانفعالات الشخصية والعشائرية في مجال التعامل مع الأصدقاء والأعداء إلى آفاق الدين الجديدة .

وولد الإنسان من جديد في الجزيرة العربية ، بل وكان هذا هو المولد الجديد للعرب ، والإنسان في سائر الأرض »^(١) .

فالعدل تحقق عملياً في سيرة المصطفى ﷺ في المجتمع الإسلامي وفي حياة أصحابه رضوان الله عليهم قال ﷺ في فتح مكة ، في تحريم الدماء والأعراض والأموال :

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب ٨٣٩/٢ « بتصرف بسيط » .

« إِنَّ دمَاءَكُمْ وَأموالَكُمْ وأعراضَكُمْ حرامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةٍ يُؤْمِنُهُمْ هذَا فِي
بَلِدَكُمْ هذَا فِي شَهْرِكُمْ هذَا .. »^(١)

ونهى عليه الصلاة والسلام عن الشفاعة في الحدود عندما حاولت
قريش أن تشفع في المرأة الخزومية التي سرقت واستغرب عليه السلام شفاعة أسامة
ابن زيد ، عندما فزع قومها إليه ، وتلوّن وجه رسول الله وقال : « أتكلّمني
في حَدَّ من حدود الله تعالى ؟ » فقال أسامة : استغفر لي يا رسول الله . ثم
قام رسول الله خطيباً وقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سرَقُوا فِيهِمُ الْشَّرِيفُ
تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سرَقُوا فِيهِمُ الْمُضِيِّفُوْنَ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدُّ ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْلَا أَنَّ فَاطِمَةَ
بَنْتَ مُحَمَّدٍ سرَقَتْ لَقُطِعَتْ يَدُهَا »^(٢) .

وأمر رسول الله بتلك المرأة فُقطعت يدها ، وخسنت توبتها بعد
ذلك .

هكذا يقرر الإسلام أن لا فرق في العقوبة بين شريف ووضيع ،
الناس كلهم سواسية كأسنان المشط ، امرأة من خزوم من ذؤابة قريش لم
ينفعها نسبها إذ تأخر بها عملها .

ألا ما أحوجنا إلى إعادة هذه الروح إلى واقع البشرية اليوم ، فوقع
الرشاوي والوسائل بضياع الحقوق ، ويعج بالظلم .

ولقد شمل العدل الناس جميعاً ، وساوى الإسلام بين الفاتحين وأهل
البلاد التي فتحت حتى أهل الذمة منهم . « مَرْأَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ
الخطاب - رضي الله عنه - ، بشيخ من أهل الذمة يسأل الناس على أبواب
المساجد فقال :

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : ١٦٩/١١ .

(٢) مسلم مع الشرح ١٨٦/١١ ، والبخاري في روايته عن عروة بن الزبير .

ما أنصفتاك ، كنا أخذنا منك الجزية في شبِّيتك ثم ضيَّعنَاك في
كبيرك ، ثم أحرى عليه من بيت المال ما يصلحه «^(١)».

راتب يجريه أمير المؤمنين على رجل من أهل الذمة ، بالعدل والرحمة
والإنسانية ، والمسلم اليوم يفرق بينه وبين أخيه المسلم في الحقوق
والواجبات لا شيء إلا أنه لا يتنسب إلى هذا الوطن أو ذاك .. بل ربما أفنى
العامل زهرة شبابه وصحته ، حتى إذا عجز عن العطاء أُلْقى به خارج
الحدود وقد صحب معه أسرة كبيرة لا مُعين لها إلا الله ..

إن البشرية الحائرة المنكودة تفتقر إلى إعادة العدل والمساواة تحت راية
الإسلام من جديد .

وفصص العدل والمساواة تكاد لا تُحصى في ظل الإسلام «أخرج
ابن عبد الحكم عن أنس - رضي الله عنه - أن رجلاً من أهل مصر أتى عمر
ابن الخطاب - رضي الله عنه - فقال : يا أمير المؤمنين عاذ بك من الظلم .
قال : عذْتُ معاذًا أى التجأت إلى ملجاً يحميك قال : سابقت ابن عمرو
ابن العاص - محمد بن عمرو - فسبقه ، فجعل يضربني بالسُّوط ويقول :
أنا ابن الأكرمين ، فكتب عمر إلى عمرو رضي الله عنهما يأمره بالقدوم
ويقدم بابنه معه . فقدم فقال عمر : أين المصري؟ خد السوط فاضرب
به ، فجعل يضربه بالسُّوط ويقول عمر : اضرب ابن الأكرمين ، قال
أنس : فضرب والله !

ولقد ضربه ونحن نحب ضربه ، فما أقلع عنه حتى تمنينا أن يرفع عنه
ثم قال للمصري : ضع على صَلْعَةِ عمرو فقال : يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي

(١) انظر : كنز العمال ٣٠١/٢ ، وحياة الصحابة : ١٠٥/٢

ضربي وقد استقدت منه . فقال عمر لعمرو : مُذْ كُمْ تَعْبُدُهُمُ النَّاسُ وَقَدْ
وَلَدُنْهُمْ أَمْهَاتُهُمْ أَحْرَارًا ؟ فقال يأمير المؤمنين : لم أعلم ولم يأتني »^(١) .

فمصر إذ ذاك بلد فتح حديثاً من قبل المسلمين ، وهذا القبضى لم
يزل على دينه فرداً من جماهير البلد المفتوح ، وعمرو بن العاص هو فاتح هذا
الإقليم وأول أمير عليه من قبل الإسلام .

وحكام هذا الإقليم قبل الفتح الإسلامي هم الرومان ، أصحاب
السياط على جلود أهل المستعمرات ، ولعل ذلك القبطى كان مايزال يحمل
ظهره آثار سياط الرومان !

ولكن المد الإسلامي الذى حرر به الإسلام الشعوب أنسى ذلك
القبطى سياط الرومان وإذلاها ، وأطلقه إنساناً آخر ، حرًا كريماً ، يغضب
لأن يضرب ابن الأكرمين ابنه ثم تحمله هذه الغضبة لكرامة ابنه الجريحة على
أن يركب من مصر إلى المدينة ، فلا طائرة ولا سيارة .. ولكن جمالاً يخرب به
ويضع به الأشهر الطوال ، كل ذلك ليشكون إلى الخليفة .

وهكذا ينبغي أن ندرك عمق المد الإسلامي التحررى ، فليست
المسألة فقط أن عمر عادل ؟ وأن عدله لا تطاول إليه الأعناق في جميع
الأزمان ، ولكن المسألة بعد ذلك أن عدل عمر قد انطلق في الأرض تياراً
جارفاً مكرماً لإِلْهَانَ بصفته « إِلْهَانَ ». .

وهذا المستوى الرفيع لم ترتفع إليه الإنسانية قط^(٢) وكم من المظلومين
في هذا العصر من لا يستطيعون أن يوصلوا شكاوهم لأحد إلا الله ، بل كم
من قتيل أو مفقود لا يجرؤ أهله على الهمس بتله الكلام .

(١) انظر : حياة الصحابة : ٩٨-٩٧/٢ ، منتخب كنز العمال : ٤٢٠/٤ .

(٢) هذا الدين : سيد قطب ، (ص ٨٣-٨٢) .

مكانة الموالى في الإسلام :

لقد شمل الإسلام بعدله جميع الطبقات ، وارتفع بمكانة الإنسان ، وساوى بين الناس ، وبعد أن كان المولى والرقيق يعاملون معاملة تقل عن معاملة أبناء القبيلة الصريحة ، شملهم الإسلام بعدله وأشعرهم بالعزوة والكرامة .

« فانظر إلى مكانة نافع مولى ابن عمر - رضي الله عنهما - والذى قال البخارى فيه : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر . وقيل في هذا السند : إنه سلسلة الذهب .

وإلى منزلة عكرمة مولى ابن عباس - رضي الله عنهما - ، الذى اعتقه ابنه على بعد وفاة أبيه ، وقد انتهى إليه علم التفسير ، وشهد له ابن عباس وأذن له بالفتوى وأخذ عنه العلم سبعون أو يزيدون من أجياله فقهاء التابعين »^(١) .

وقد تصدر مجالس العلم عدد من الموالى كالحسن البصري وسعيد بن جبير وطاوس رحمهم الله ، بينما كان العلم عند الرومان واليونان مقصوراً على الضيقات العليا .

وكان خلفاء بنى العباس إلا النَّزَّرُ اليسير منهم أمهاطهم أولاد ، وما كان ذلك لينقص من شرفهم شيئاً .

وقد تولى كافور الإخشيدى (وكان مولى للإخشيد) حكم مصر بعد وفاة سيده وخطب له على المنابر في مصر والشام والشغور والجهاز أيام الخليفة المطيع لله العباسي .

(١) انظر تهذيب التهذيب ، ونظام النفقات في الشريعة الإسلامية أحد إبراهيم إبراهيم - القاهرة المطبعة السلفية ١٣٤٩ .

« والأمثلة الرائعة في هذا المعنى تستقى من الجماعة الأولى التي أنشأها محمد ﷺ ، فقد انتقل منها أنها إلى من أدنى درجات الظلم والغسق والاضطهاد والتعذيب إلى أعلى مكانة في الأمة ، مكانة الإسهام في تدبير الأمور وقيادة الجماعة

يروى ابن سعد في صفاته : أن سالماً مولى أبي خديفة كان يؤمّ المهاجرين بقباء وفيهم عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما أجمعين) وذلك لأنّه أقرّ بهم ، وأنّ رسول الله ﷺ أخي بين سالم وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما

والجماعة التي ترضى أكثرية أفرادها ، وتقرّ في نقوسهم الصمانينة هي الجماعة التي تقيم العدل وتنزع بالقصاص استثنى .

أما الجماعة التي تخاف بعض أفرادها لأسباب غير عادلة فهى جماعة تشيع فيها روح السخط والتبرم .. وتنهى الأمور إلى نصيحة الأئمة وتداعي بناء الوحدة «^(١)» .

وهذا ما فعل أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يقول : « ألا إنّ أقواك عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه » «^(٢)» .

وإكرام التقى هو أساس التعامل عند أنس بن مالك : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقى ، والناس سواسية كأسنان المشط .

(١) المجتمع الإسلامي : د. محمد أمين المصري رحمه الله . دار الأرقم الكويت ص ٢٦-٢٧ « يتصرف بيسير »

(٢) جهرة خطب العرب : أحمد زكي صفت ١٨٠/١ ، ط الحلبي بمصر ١٩٩٢ م .

معاملة الرقيق في الإسلام :

كنا قد عرفا في الصفحات السابقة شيئاً عن معاملة الرقيق قبل الإسلام ، ولما أشرقت أنوار هذا الدين ، شلّهم الإسلام بعطفه ورحمته ، حتى ساوى بين الأحرار وبين الرقيق في كل شيء تقريباً إلا فيما هو من خصائص الولاية لاقتضاء السياسة الخازمة آنذاك .

وكان المسلمون يعتبرون التسلط على الملوك دناءة ، وبasher الرقيق التجارية من رأى فيه مولاً حذقاً في إدارة الأموال ومعرفة بشميرها .

جاء الإسلام فوجد الرق عرفاً دولياً يأخذ به المتحاربون جميعاً ، فعمل على تخفيف موارد الرق بالكافارات وبالمحكمة وبغير ذلك .

يروى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « من اعتق رقبة مؤمنة ، أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار حتى يتعق فرجه بفريجه » (١) .

وقد اهتم الإسلام بحسن معاملة الملوك ، وألزم السيد بنفقة رقيقهقدر كفاياتهم بالمعروف ، ولو كان الرقيق عاجزاً عن الكسب بسبب مرض أو عي أو غير ذلك :

ويلزم السيد تزويج أرقائه إذا طلبوا ذلك كالنفقة لا فرق في ذلك بين ذكورهم وإناثهم كما قال تعالى :
﴿ وَأَنِكُحُوا الْأَبْنَاءَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَلَا مَأْلِكُمْ ﴾ (٢) .

(١) أخرجه مسلم في العتق . باب فضل العتق ، والبخاري في الأيمان والندور ، انظر شرح السنة : ٤٣٥١/٩

(٢) انظر : نظام النفقات في الشريعة الإسلامية ص ٩١

وارتفع الإسلام بالرقيق إلى درجة عانية في المكانة الرفيعة والمعاملة الطيبة ، وفي قبول الرواية :

« فرواية العبد والأمة للحديث مقبولة بالإجماع ولا يشترط في كل منها لقبول روايته إلا مثل ما يشترط في غيرها من العقل والضبط والعدالة والإسلام ، وفتوى كل منها جائزة إذا كان المفتى منها أهلاً لذلك كالأحرار تماماً »^(١).

بل إن المالك حكموا بلاد المسلمين في مصر والشام قرابة ثلاثة قرون ، وما كان يمكنهم ذلك لو لا تسامح الإسلام والمسلمين .

وقد اهتم رسول الله ﷺ بشأن الرقيق وعواطفه إذ يقول : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمّتى ، كلّكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ، ولكن يقل غلامي وجاريتى وفتى وفتاتى »^(٢) .

جاء الإسلام ليقرر أن العلاقة بين السادة والرقيق ليست علاقة الاستعلاء والتسيّر والتحقير وإنما علاقة القرى والمودة قال ﷺ : « هُم إخوانكم وَحَوْلُكُم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليُطِعْنَهُ مَا يَأْكُلْ وَلِيُنْسِهِ مَا يَلْبِسْ وَلَا تُكَلِّفُوهُم مَا يَغْلِبُهُم كُلْفَتُهُم فَأُعْنِيُهُم »^(٣) .

(١) المرجع السابق : ص ٩٤ .

(٢) مسلم مع الشرح : ٥/١٥ .

(٣) رواه البخاري وأحمد عن أبي ذر - رضي الله عنه - .

وَمِنْ وَصَايَا رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْخَدْمَةِ وَالرِّيقِ :

إِذَا صَنَعَ لِأَحَدِكُمْ خَادِمًا طَعَامًا ، ثُمَّ جَاءَ بِهِ وَقَدْ وَلَىٰ حَرَّةً وَدُخَانَهُ فَلِيُقْعِدَهُ مَعْهُ ، فَلِيَأْكُلَّ ، فَإِنْ كَانَ الطَّعَامُ مَشْفُوهًا قَلِيلًا ، فَلِيُضْعَفَ فِي يَدِهِ أُكْلَةً أَوْ أُكْلَتَيْنِ »^(١) .

وفي هذا الحديث حثّ على مكارم الأخلاق والمواساة في الطعام ولاسيما في حق من صنعه وحمله لأنّه ولّى حرّة ودخانه وتعلقت به نفسه ، ووشتَّم رائحته^(١) .

وهذا نموذج في معاملة الرقيق : هو قصة ألى ذر - رضى الله عنه - مع غلامه .

عن المَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ : مَرَرْنَا بَأْبَى ذَرَّ بِالرَّبَّذَةِ وَعَلَيْهِ تَرْدٌ وَعَلَى
غَلَامَهُ مِثْلُهُ فَقُلْنَا : يَا بَأْبَى ذَرَّ ، لَوْ جَمِعْتَ بَيْنَهُمَا كَانَ حَلَّهُ فَقَالَ : إِنَّهُ كَانَ
بَيْنِي وَبَيْنِ رَجُلٍ مِنْ إِخْرَاجِيِّ كَلَامٌ وَكَانَ أَمْهُ أَعْجَمِيَّةٌ فَعَيْرُهُ بَأْمَهٌ ، فَشَكَانَ
إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَقِيتُ النَّبِيَّ فَقَالَ : يَا بَأْبَى ذَرَّ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيْكَ جَاهِلِيَّةٌ .

قلت : يارسول الله من سب الرجال سبوا آباء وأمه . قال : يا أبا ذر إنك أمرت فيك جاهلية ، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فأطعهم مما تأكلون والبسوهم مما تلبسوهم ولا تكلفوهم ما يغلي لهم ، فإن كلفتهم فاعينوهم » .

أى أن هذا التعير من أخلاق الجاهلية ، ففيك خلق من أخلاقهم ،
ووف ذلك النهى عن التعير وتنقيص الآباء والأمهات ، وأنه من أخلاق

(١) صحيح مسلم مع الشرح : ١٣٤ / ١١ ، وأكملة أو أكملتين : قال الراوى يعني لفمة أو لفمتين - ومشفوها : أي قليلاً بالنسبة إلى من اجتمع عليه لأن الشفاه كثرت عليه حتى صار قليلاً .

الجاهلية ، رغم أن الرجل كان قد سبَّ أبا ذر ، وإنما يباح للمسبوب أن يسبَّ السابِّ نفسه بقدر ما سبَّه ولا يتعرض لأبيه ولا لأمه^(١)

بهذه الشفافية كانت توجيهات رسول الله ﷺ إلى أصحابه .

وبهذه الرُّوح كانت معاملة الصحابة وال المسلمين .. عدل ورحمة في المأكل والملبس .. وأخوة ومودة بينما نطالع في الصحف المعاصرة أنباء السائقين والخدم وما يعانون من ظلم واضطهاد ، بعيداً عن الرحمة والإنسانية وربما انتحر أحدهم تخلصاً من جحيم حياته ، وربما ألت المرأة « الخادمة » بنفسها من أعلى العمارت ، هرباً من نيران الحياة أو حفاظاً على عرضها المصوّن .

جاء الإسلام فحرّم الظلم والأذى ، جاء ليحرر الرقيق أولئك الذين كانوا يُجلدون بسياط أسيادهم ، جاء ليعتبر الناس سواسية بعد أن كان العرى في جاهليته يتبرأ من إلحاد ولده الأسود من جاريته السوداء بل كان يستترُّه أيضاً .

أين هذا من قول رسول الله ﷺ لأحد الأنصار وقد رأه يضرب غلاماً له : « أغلِّم أبا مسعود أن الله أقدرُ عليك منك على هذا الغلام » قال أبو مسعود وقد ألقى السوط من يده : قلت لا أضرب مملوكاً بعده أبداً^(٢) .

وفي رواية : « قال : فقلت يا رسول الله هو حُرُّ لوجه الله .

قال : « لو لم تفعل لفتحتَ النار أو لمستَ النار »^(٣) .

(١) صحيح مسلم مع الشرح للنووى : ١٣٣/١١ .

(٢) صحيح مسلم مع الشرح للنووى : ١٣٠/١١ .

(٣) شرح السنة للبغوى : ٣٤٧/٩ .

وبذلك يرتفع الإسلام بأبنائه جميعاً : الفاتحين وأهل البلاد المفتوحة ، الموالي والرقيق ، وبُفتَّق طاقاتهم وقدراتهم كلها نحو الخير وبناء حضارة إسلامية فريدة تقوم على العدل والمساواة ، تحميها العقيدة ، وسدادها الأخوة « وحسب هذا المفهوم يكون الوطن داراً تحكمها عقيدة ومنهاج وشريعة من الله ، وتكون الجنسية عقيدة ومنهاج حياة ، فعصبية العشيرة والقوم والجنس واللون والأرض عصبية صغيرة متخلفة ، عصبية جاهلية عرفتها البشرية في فترات انحطاطها الروحي »^(١) .

وها هي تعرفها في فترات تخلفها الحضاري ، وانحسارها العقدي ، بعيداً عن قيم هذا الدين وأخلاقياته ، لغزو البشرية من جديد جاهلية ظالمة جائرة .

معاملة الرقيق بين المسلمين والأمم الأخرى :

لو قارنا ما جاء به الإسلام وطبقه المسلمون بشأن الرقيق وما كان عليه عند اليونان والرومان وأم أوربا في القرون الوسطى وأمريكا حتى نهاية القرن التاسع عشر لوجدنا اليون شاسعاً .

إذا أبْقَى العبد في قوانين فرنسا السوداء ، يعاقب بقطع الآذان والكُنْ بالحديد الحمي في المرتين الأولى والثانية ، أما في المرة الثالثة فكان جزاؤه القتل .

وفي القوانين الإنجليزية الاستعمارية ، كان جزاء العبد الآبق القتل إن استمر هروبه أكثر من ستة أشهر .

أما عقوبات الرقيق إذا اقرف ذبناً ، فقد كانت عند اليونان الجلد بالسُّوط وبالطحن على الرَّحَى .

(١) معالم في الطريق : سيد قطب رحمه الله

وفي العصور الحديثة : لم تكن قوانين المستعمرات الفرنسية تمنع السادة البيض من إهلاك أرقائهم بجلدهم أو تكبيلهم بالسلال بل لا تمنعهم من إحراقهم بالنار .

وفي أمريكا : حضرت قوانينها على العبد حق المرور والذهب والمجيء ، وأنه لا يفارق الزرع إلا بإذن قانوني .

وإذا تعدى الزنجي على مولاه وأولاده بالضرب فجزاؤه الإعدام .

وكذلك كان الأرقاء يُحرمون من العلم والتعليم وذلك أنهم غير جديرين به كالبيض .. وقد قضى ملك فرنسا سنة (١٧٦٧م) قضاء مبرماً مؤبداً على جميع ذوى الألوان وذرياتهم بألا يتمتعوا بالميزايا التي يتمتع بها الجنس الأبيض ، ولذلك قضى على حقوق المُلُّوئين بالحرمان من طلب العلم في فرنسا ، واستمر الأمر على ذلك حتى ثورة ١٨٤٨ م بفرنسا ، التي أعقبها العمل على إبطال الاسترقاق واستمرت حالة الاضطهاد للسود في أمريكا حتى الحرب الأمريكية الطويلة ابتداء من سنة (١٨٦٢م) فأخذ حال ذوى الألوان بالتحسن ، لكنه لم يصل إلى درجة السادة البيض حتى الآن^(١) .

وما تزال التفرقة العنصرية قائمة حتى الآن في جنوب إفريقيا ومايزال الزنوج يعانون من نظرة البيض إليهم في أمريكا حتى أيامنا هذه .. فما أخرج العالم المضطرب القائم على التفريق بين الناس على أساس القوم أو الوطن أو أتباع الحزب المتسلط الواحد إلى هذا العدل . وإن بلاد المسلمين لتفتقر إلى جهود الدعاة حتى يعيدوا إليها رأية العدل والمساواة خفاقة وارفة الظلال .

(١) نظام النفقات في الشريعة الإسلامية : ص ١٠٢-١٠٣ .

الفصل الثاني

أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام

- ١ - المبحث الأول :**
مفهوم الأخلاق وطبيعة النفس البشرية
- ٢ - المبحث الثاني :**
صور من مكارم الأخلاق
- ٣ - المبحث الثالث :**
صور من الأخلاق الذميمة والعادات القبيحة

المبحث الأول

مفهوم الأخلاق وطبيعة النفس البشرية

تحديد مفهوم الأخلاق :

في اللغة : جاءت الكلمة « الخلق » بمعنى السجية والطبع والمرءة ، والذين ، والخلقة بمعنى الفطرة ^(١) .

وفي لسان العرب : « الخلق » الطبيعة وجمعها أخلاق ، وحقيقة أنه وصف لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه ، وأوصافها ومعانها ، وهما أوصاف حسنة وقبيحة ^(٢) .

ومن هذا العرض الملغوي لمفهوم الأخلاق يمكننا استخلاص ثلاثة معانٍ بارزة :

الأول : الخلق يدل على الصفات الطبيعية في خلقة الإنسان الفطرية على هيئة مستقيمة متناسقة .

الثاني : تدل الأخلاق أيضاً على الصفات التي اكتسبت وأصبحت عادة في السلوك ، ومن ثم تصبح وكأنها خلقت مع طبيعته ، أو تصبح طبيعة ثانية .

(١) القاموس الخيط : « كلمة الخلق » .

(٢) لسان العرب : « كلمة الخلق » .

الثالث : أن للأخلاق جانبين : جانبًا نفسيًا باطنياً ، وجانبًا سلوكيًا ظاهريًا^(١)

وقد تعددت آراء الفلسفه حول تحديد الأخلاق ومدلولها ، ويهمنا هنا مفهوم الأخلاق في نظر الإسلام .

الإنسان في نظر الإسلام خلق من مادة وروح ، وهو يدعى إلى الإيمان بوجود حقائق روحية وأخرى غير روحية وثالثة مادية وروحية معاً .

وحقيقة الإنسان الروحية ترجع إلى أن فيه نفحة إلهية ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ سورة الحجر / ٢٩ .

وحقيقة مادية ترجع إلى تراب الأرض أو طينها الذي بدأ خلق الإنسان منه ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَنِ مِنْ طِينٍ ۚ ۷ ۖ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَمًا مِنْ سُلَالَةِ مَنْ مَاءِ مَهِينٍ ۘ ۸ ۖ ثُمَّ سَوَّهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْيَدَةَ قَلِيلًا مَا شَكَرُونَ ۚ ۹-۷﴾ السجدة / ٧-٩ ولذلك فإن الإسلام يعتمد في التنظيم الأخلاقى في الحياة الإنسانية على جانبي الروح والمادة في آن واحد^(٢) .

ويزداد الأمر وضوحاً في فصل : طبيعة مزدوجة للأستاذ محمد قطب إذ يقول^(٣) :

الإنسان قبضة من طين الأرض ونفحة من روح الله . قبضة من طين الأرض تمثل في حقيقة الجسد : عضلاته ووشائجه وأعضائه وأحشائه والمعلم

(١) انظر : كتاب التربية الأخلاقية الإسلامية : د. مقداد بالجن -- مكتبة الحاخامي بمصر - الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م ص ٦٤ .

(٢) المرجع السابق : (ص ٧٣-٧٤) .

(٣) انظر دراسات في النسق الإنسانية : الأستاذ محمد قطب دار الشروق ١٤٠٧ -- ص

يقول : إن جسم الإنسان يتكون من ذات العناصر التي يتكون منها طين الأرض .

وتتمثل كذلك في مطالب الجسد وألوان نشاطه . فالعلم يقول : إن الجوع والعطش أمران يرجعان إلى التركيب البيولوجي للجسم ، وكذلك النشاط الجنسي وأنواع النشاط الحسي الأخرى التي يشتراك فيها الإنسان مع الحيوان من حيث الدافع ، وإن لم يتأتلا في الصورة التي يتخذها النشاط ولا الغاية التي يصل إليها .

والشهوات كلها أو الدوافع الفطرية أو القوة الحيوية للإنسان هي نشاط جثاني ، أو نشاط قائم على قاعدة جسمية بحيث تتعطل أو تزول لو أزيل العضو الذي يقوم بها أو العدة التي تبعث نشاطها .

ونفسة من روح الله : تمثل في الجانب الروحي للإنسان ، تمثل في الوعي والإدراك والإرادة ، وفي كل القيم والمعنويات التي يمارسها الإنسان .

ويظهر هذان الجانبان في قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ إِنَّمَا أَنْشَأَتُهُ مِنْ رُحْمِ أُنْثَى فَقَعَوْلَهُ سَجِيدِينَ ﴿٧٢﴾ .^(١)

فالخير والبر والرحمة والتعاون والإخاء والمودة والحب والصدق والعدل والإيمان بالله والإيمان بالمثل العليا والعمل على تحقيقها في واقع الحياة .. كل ذلك نشاط روحي أو نشاط قائم على قاعدة روحية وهو مثلها أمر معنوي لا تدركه الحواس ، ولكن تدرك آثاره الظاهرة في الواقع المحسوس .

وهذان اللونان من النشاط البشري حقيقة واضحة مشهودة^(٢) .

(١) سورة ص : (٧١-٧٢) .

(٢) ضبيعة مزدوجة : (ص ٤٣ - ٤٤) .

والذى يهمنا هنا أن نقرر وجود هدين اللذين من النشاط فى كيان الإنسان كمظهر من مظاهر الازدواج فى صبيعته . وهذا الكيان مع ازدواجه ليس مكوناً من عنصرين منفصلين يعمل كل منهما وحده فى اتجاه . فالعنصران مختلطان ممتزجان متراابطان يتكون منهما كيان مُوحَّد مختلط الصفات ، أو مزدوج الصفات .

وذلك حقيقة كبيرة في الكيان البشري ، تنسى عليها كل أعمال الإنسان ومشاعره وتصرفاته في الحياة^(١) .

إلا أن النظم التي لا تؤمن بوحدة النفس البشرية وامتزاج عنصرها الكبيرين انحرفت انحرافات خطيرة تؤدي إلى إحدى نتيjetين : إما كبت الجسد وإما كبت الروح .

ثم تعرج في انحرافات تفصيلية كثيرة تدرج تحت واحد من هذين الاختلالين الرئيسيين .

هناك نظم أهملت الجسد واحتقرته ونبذته ، وكبّلت نوازعه الفطرية .. فنشأ من ذلك اختلال في داخل النفس واحتلال في الحياة ، فرانـتـ السـلـبيةـ عـلـىـ النـفـوسـ ، وتأخرـ الجـتمـعـ وانـخـسـرـ عـنـ التـقـدـمـ وـالـانـطـلـاقـ ، شـأنـ الـهـنـدـوـكـيـةـ وـالـبـوـذـيـةـ وـمـاـ نـخـوـهـمـاـ مـنـ الـدـيـانـاتـ وـالـفـلـسـفـاتـ وـالـعـقـائـدـ^(٢) .

وهناك نظم فصلت بين القيم الروحية والمادية ، فأهملت الروح ونبذت كل ما يتصل بها من فيم ، فتشطط نشاطاً جمّاً في عالم المادة وعالم الجسد ، ولكنها لفقرها الروحي انقلبت تقاتل وتصارع ، فلم تعد تعرف الراحة ولا السلام .

(١) المرجع السابق . ص ٤٦-٤٧ .

لقد كتبت المادية الأوروبية الروح لتعل من الإنتاج المادى والمتاع الحسى والجسدى ، فوصلت إلى ما يشبه الحيوانية فى صلات الناس بعضهم ببعض : من إستعمار واستعباد واستغلال وھبوط خلقى وروحى فى أمور الجنس خاصة .. حيوانية لا تليق بالإنسان .

ثم إن أوربا المادية هي التى فصلت بين القيم المختلفة : فأقامت السياسة والاقتصاد بمعزل عن القيم الروحية ، وشئون الدنيا بمعزل عن الآخرة - وشئون الجنس بمعزل عن الأخلاق .

وكان التصادم بين هذه القيم المقطوعة من جذورها المشتركة ، والصراع المدمر العنيف ، فوصلت حوادث الجنون والانتحار وضغط الدم والأمراض العصبية والتنفسية إلى درجة لا مثيل لها في التاريخ^(١) .

ويقول الدكتور الكسيس كارل في كتابه : تأملات في سلوك الإنسان^(٢) .

« ومن الغريب أن الإنسان الحديث قد استبعد من الحقيقة الواقعية كل عامل نفسي « روحى » ، وبنى لنفسه وسطاً مادياً بختا ، غير أن هذا العالم لا يلائمه قط ، بل نراه يصاب فيه بالانهيارات .

ومن أجل ذلك يجب على البشرية المتحضرة أن تعود إلى بناء المعابد في ذلك العالم الفاخر الصارم .. فالعالم الحديث يبدو لنا كالثوب المفرط في الضيق بمجرد أن يطبعه مذهب الحرية الفردية أو المذهب الماركسي بطابعه » .

(١) دراسات في النفس الإنسانية : محمد فضب ص ٦٣

(٢) تأملات في سلوك الإنسان : ص ١٧٣ / عن كتاب التربية الأخلاقية : د مقدار

الخير والشر :

الخير فطري في النفس البشرية ، وتشير آيات القرآن الكريم إلى أن النفس الإنسانية قد تلقت في تكوينها الأولى الإحساس بالخير وبالشر قال تعالى :

﴿ وَتَقْرِئُنَاهَا ﴾٧ ﴿ فَلَمَّا هَا بِفُورِهَا وَتَقْوَنَهَا ﴾٨)١(.

وكما أن الإنسان قد وُهب ملائكة اللغة والحواس الظاهرة فإنه زُود أيضاً بصيرة أخلاقية :

﴿ بِلِ الْإِنْسَنُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾٩ ﴿ وَلَوْلَأَنَّهُ مَعَذِيرٌ ﴾١٠ .)٢(.

ولقد هدى الإنسان طرقى الفضيلة والرذيلة :

﴿ الَّذِي تَجْعَلُ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾١١ ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾١٢ ﴿ وَهَدَيْتَهُ النَّجْدَيْنِ ﴾١٣ .)٣(.

فالنفس أمارة بالسوء ، ولكن الإنسان قادر على أن يحكم أهواءه :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ عَنْهُمْ فَالنَّفْسُ عَنِ الْمَوْىِ ﴾١٤ ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾١٥ .)٤(.

وإذا لم يكن كل الناس يمارسون هذا التأثير على أنفسهم فإن منهم من يفعله بتوفيق الله له ، وهو ما قرره رسول الله ﷺ في قوله : « إذا أراد الله بعد خيراً ، جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهيه »)٥(.

(١) سورة الشمس (٨-٧) .

(٢) سورة القيامة : (١٤) .

(٣) سورة البلد : (٨-١٠) .

(٤) سورة النازعات : (٤٠) .

(٥) الديلمي في مسند الفردوس ، صحيح من طريق أم سلمة ذكره السيوطي في الجامع الصغير ١١٧/١ .

وإن الأنفس الكبيرة تشق بفضل الله العلي أكثر مما تشق بقواها الخاصة
 ﴿ وَلَا أَنْتَ رِفِيْعٌ كَيْدُهُنَّ أَصْبَحَ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَنِّهِ لَهُنَّ ﴾ سورة يوسف : ٣٣
 هذا ما قاله نبي الله يوسف عليه السلام ، وهو يصارع الكيد
 والإغراء^(١) .

فإِلَّا سَانَ الْمُؤْمِنَ يَلْجَأُ إِلَى رَبِّهِ وَيَرْدَدُ قَوْنَهُ تَعَالَى :
 ﴿ قُلْ أَعُوْذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَالِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَّهُ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ
 شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ سورة الناس / ٤ - ١ .

أما الذين هم يعكس ذلك فقد سدوا آذانهم عن النصيحة ، وإن الله
 يذرهم في طغيانهم وعماهم :

﴿ وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ فَقَبِضَ لَهُ شَيْطَنًا فَهُوَ لَمُؤْفَرٌ ﴾ سورة الزخرف ٢٦
 ﴿ وَلَوْ عِلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ
 مُعْرِضُونَ ﴾ الأنفال : ٢٣ .

وموجز القول : إن الله لا يضل إلا الأشرار ﴿ وَمَا يُضْلِلُ إِلَّا
 الظَّالِمُونَ ﴾ البقرة : ٢٦

^٢ ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يَنِيبُ ﴾ غافر : ١٣^(٢) .

والواقع : إن الإنسان يكون حُسْنًا تارة وشريًّا تارة .

حسناً حين تحكم الروح هذا المزاج ، وشريراً حين يحكم الجسد
 مزاجه المجتمع المترابط .

(١) انظر : دستور الأخلاق في القرآن : د. محمد عبدالله دراز ص ٢٧ مؤسسة الرسالة
 - دار البحوث العلمية ، ط ٣ سنة ١٤٠٠ هـ

(٢) دستور الأخلاق في القرآن : ص ٢١٧، ٢١٨

وليس هذا حُكْمًا تَعْسِفُّا مفروضاً على الإنسان من خارج كيانه ، وإنما هو الحكم الذي يتمشى مع حقيقة الفكرة ، ومع النشأة التاريخية للإنسان .

فالخير والشر يصبحان بذلك ذوى مفهومين واضحين محددين لا يلتبسان ولا يعاد فيما الإنسان .

حين يحكم الجسد هذا المزاج المجتمع المترابط فما الذي يحدث ؟ إنه لا يلغى وجود الروح ولكنه يضمّن عليها بعثامة الطين فتحتفظ وتكتب إشعاعاتها التي تمنع الطين خفة وشفافية وانطلاقاً^(١) .

وفي ضوء ذلك يمكن تحديد مفهوم الأخلاق في نظر الإسلام بأن الأخلاق :

هي المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني ، والتي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان ، وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه^(٢) .

فرويد والدراسات النفسية الحديثة :

إلا أن بعض هذه الدراسات اعتمد على مبدأ خاطيء منحرف شوه في النظرة إلى إنسانية الإنسان .

فالمدرسة السلووكية مثلاً تقوم على مبدأ حيوانية الإنسان وماديته ، وتمثل أفكارها في إنكار الروح إنكار استقلالية العقل ، وتومن بالجسد وحده ، وتعتبر السلوك البشري بأكمله أفعالاً شرطية معكسة لا غير^(٣) .

(١) دراسات في النفس الإنسانية : محمد قطب ص ٣٣٢

(٢) التربية الأخلاقية الإسلامية : د. مفداد ياخن ص ٧٥

(٣) العلمانية : الفصل الرابع ص ٣٩٩ ، د. سفر اخوالي - جامعة أم القرى ١٤٠٢ هـ .

وقد كاد لهذه النظرية أسوأ الأثر في التطبيق الواقعى فقد استغلها
الهداة لنفي الفطرة وإفقار القيم الخلقة مجردة .

وأسوء الدراسات تلك التى قام بها فرويد ومدرسة التحليل النفسى .

فقد أعطى فرويد صورة مُزَوَّدة للنفس الإنسانية خلاصتها : «أن
الكيان الحقيقى للإنسان هو الطاقة البهيمية البحتة ، وأن كل تعديل هذه
الطاقة أو تشكيل أو تهذيب لا يدخل فى هذا الكيان资料 .

ولم يكتفى بهذا التفسير الحيوانى للبحث .. بل زاد على ذلك أن
أعطى هذا الكيان الحيوانى لوناً جنسياً صارخاً ، فلم يترکه حتى كالحيوان
الحقيقى يأكل بلذة الأكل ويشرب بلذة الشرب . ويصارع بداعع الصراع ،
ثم يؤدى نشاطه الجنسى بلذة الجنس .. وإنما جعله يأكل ويشرب ويتحرك
ويصارع .. كل ذلك بلذة الجنس إضافة إلى النشاط الجنسى المتعارف على
أنه نشاط جنسى !!)١(

لقد أنفق فرويد سنوات من عمره ليثبت أنه ليس هناك إلا أحد
طريقين اثنين : إما انطلاق الطاقة الشهوية - الجنسية في أساسها - انطلاقاً
حرأً أى حيوانياً لا شذوذ فيه !

وإما الكبت المدمر للأعصاب المبدد للطاقة المفسد للحياة وليس
هناك طريق ثالث .. !

أما عملية الضبط فلم يشر إليها فرويد ، وليس في عرفه ضوابط وكل
شيء في عرفه كوابت ضارة مفسدة كريهة)٢(.

لقد عبرت مؤلفات فرويد جميعها عن يهوبيته ، ويفضح ذلك في
التدين والتلویث المتعمدين للجنس البشري . وهي ظاهرة بارزة في التوراة

(١) دراسات في النفس الإنسانية : الأستاذ محمد قطب (ص ٢٠، ٢٠٨)

المحرفة ، كما تتجلى في الإفساد المتمدد للأخلاق والتآمر الخبيث على القيم الإنسانية وهم مضمون وفحوى التلمود^(١) .

وقد تغلغل الفكر المادي في النفوس والتزعة الحيوانية المنفلترة ، أصبحت هي الصبغة العامة للحياة والثورة الصناعية وما صاحبها من تغير في البنية الاجتماعية ، وتفكك في حياة الأسرة .

كل ذلك هيأ الجو للهدم الأخلاقى والعقائدى . ثم كانت الحروب الإقليمية والعالمية (الأولى) فقوضت دعائم المجتمع الأوروبي وأفقدته الثقة في كل مبادئه وعتقداته ونشرت الرعب والذعر في القلوب وحطمت كل الأعراف والقوانين والأخلاقيات^(٢) .

وليس صحيحاً ما قاله فرويد وأصحابه حول الغرائز والدوافع إن كل ما في الطبيعة الإنسانية من غرائز ودوافع لا يمكن أن تدعى حد ذاتها شرًا ، بل يمكن أن تدعى خيرًا بحكم ضرورتها لدوم الحياة الإنسانية ، وبحكم الغايات التي تُحْلِّقَتْ من أجل تحقيقها .

إن هذه الطبيعة بما فيها من ميول ودوافع مختلفة خلقت من أجل الخير ، وتُصْبِحُ خيرًا إذا استخدمت في الخير . والشر يأتى من سوء استخدامها في الغايات التي لم تخلق من أجلها ، أو يأتى الشر نتيجة الجهل بها ، وبعدم معرفة طريقة استخدامها للاهتمام الزائد ببعض الميول والدوافع أكثر من غيرها أو إهمال بعضها تماماً وتجاهلها .

عندئذ تطغى بعض الدوافع على الأخرى وتحاكى في الطبيعة حسب هواها ، وهذا يجب إعطاء كل دافع حقه .

(١) انظر : الكتز المرصود في فواعد التلمود ، دوهنج وزميله ترجمة يوسف حنا نصر الله - بيروت نقلًا عن العلمانية .

(٢) العلمانية : الشيخ سفر الحوالى ص ٤٠٢ - ٤٠٣ .

ومن هنا نصح الإسلام بإعطاء كل ذي حق حقه من هذه الدوافع أو الحاجات الإنسانية الأساسية ، ووضع تشريعاً لذلك .

يقول الرسول ﷺ في هذا الصدد وهو ينصح عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - ، عندما علم أنه انقطع للعبادة « يا عبد الله ألم أخبرك أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قلت : نعم . قال : فلا تفعل ، صُمْ وافْطِرْ ، وَقُمْ وَنَمْ ، فَإِنَّ لِجَسْدِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ وَإِنْ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ ، وَإِنْ لِرُوجِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ » ^(١) .

وجاء في حديث آخر : « إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًا ، وَلَا هُنْكَ عَلَيْكَ حَقًا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ » ^(٢) .

كما دعا الإسلام إلى الاعتدال في كل الأعمال والتصرفات ^(٣) ﴿ وَكُلُّوا رَأْشَرَبُوا وَلَا سُرِفُوا وَلَا هُنْ لَا يَحِبُّ الْمُسَرِّفِينَ ﴾ ^(٤) .

القيم العليا :

إن القيم العليا وثيقة الصلة بالجانب الروحي في الإنسان وهي انبثق طبيعى هذا الجانب .. وهى التحقيق الواقعى له في كيان الإنسان .. ومن ثم فهي أصلية في أعماق هذا الكيان .

ومن أين تأتى أحلام البطولة وأحلام الكمال ؟ وإحساس الإنسان بالجمال ؟

(١) فتح البارى : كتاب الصوم ١٢١/٥ ، ط البانى الحلبي القاهرة سنة ١٩٥٩ م .

(٢) فتح البارى : ١٢٨/٥ ط البانى الحلبي القاهرة سنة ١٩٥٩ م .

(٣) التربية الأخلاقية الإسلامية : مقداد بالجن ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ وانظر : دراسات في النفس الإنسانية (الدوافع والضوابط من ص ١٥٧ : ٢١٠) .

(٤) سورة الأعراف : (٣١) .

فأحلام البطولة تستهوي الطفل الصغير كما تستهوي الإنسان الراشد ، وقد كانت تستهوي البشرية في طفولتها وما تزال تستهوي البشرية اليوم ، وإن اختلفت المقاييس من عمر لآخر ومن عصر لآخر ..

والبطل ليس شجاعاً فحسب ، ولكنه كذلك نبيل لا يستخدم شجاعته في سفك الدماء والسرقة والنهب .. ولكن في إغاثة الملهوف وإعانة الضعيف ، ودفع الظلم عن المظلوم وكلها قيم إنسانية ، لأنها خاصة بعالم الإنسان ولا وجود لها في عالم الحيوان^(١) .

إن القيم العليا جزء من كيان الإنسان الداخلي ، وهي ليست مفروضة عليه من خارج نفسه .. إنها انبات ذاتي من كيان الإنسان .

ومع ذلك فهي في حاجة إلى معاونة من الخارج لكي تأخذ مجدها الصحيح .. ولو لم تحدث هذه المعاونة الخارجية فهي عرضة لأن يتأخر نموها في النفس أو ينحرف عن سوء السبيل^(٢) .

أهمية العقيدة وإرسال الرسل :

ومن أجل هذه الطبيعة البشرية ، أرسل الله الرسل عليهم الصلة والسلام ، ليكشفوا عن الدوافع الخيرة في الإنسان ويحذرلوا من نمو دوافع الشر والاستماع إلى نزعات الشيطان . عن معاوية عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**الْخَيْرُ غَادَةٌ وَالشَّرُّ لَجَاجَةٌ** . **وَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفْقِهُ فِي الدِّين** »^(٣) .

(١) دراسات في النفس الإنسانية : الأستاذ محمد قطب ، ص ٢٥٠-٢٥١ ، وص

. ٤٢٦

(٢) رواه ابن ماجة في سنته من طريق هشام بن عمار ، رقم الحديث ٢٢١ ، وهو صحيح . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة برقمة ٦٥١

فالخير عادة : أى أن المؤمن الثابت على مقتضى الإيمان والتقوى ينشر صدره للخير فيصير له عادة : « فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَنْدِيرُهُ لِخَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ الدِّينَ الْقَيْمَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » سورة الروم آية ٢٠ .

أما الشر فلا يدخل إلا للجاجة الشيطان .

إن الله لا يترك الإنسان و شأنه ، لقد خلقه وهو يحبه و يعطف عليه و يريد له الخير .

ولذلك يرسل الرسول يعرفونه المنهج الصحيح ويردعونه إليه ، والرسالات إذن ذات مهمة رئيسية في حياة البشرية وليس نافلة تستغنى عنها حين ترید .

والإنسان إما أن يهتدى بهذا الهدى الإلهى ، فيجعل روحه قياد كيانه المتزاج المترابط ، ويكون في وضعه الصحيح بالنسبة للفطرة ، وإما أن يرفض اهدى و يجعل القياد لجسمه وشهواته فهو كالأنعام بل هو أضل وهو متكس بروحه إلى أسفل وغارق بكيانه في الطين (١) .

فالإسلام وحده هو الذي يتمشى مع الفطرة البشرية كما خلقها الله .

والإسلام هو النظام الذي يربط بين كل ألوان النشاط البشري ويوحد بينها في الاتجاه

يباع الطعام والشراب ثم يجعله باسم الله ، ويباع النشاط الجنسي ، ولكنه يجعله كذلك باسم الله (٢) .

(١) دراسات في النفس الإنسانية : ص ٣٤٢-٣٤١ .

(٢) المرجع السابق : ص ٦٤-٦٥ .

وبذلك يبقى المسلم متوازناً مع الدوافع والضوابط مُهِنِّئاً لرسالته
الخيرية في الحياة ، داعياً إلى الفضيلة متعلقاً بالقيم العليا ، فلا إفراط ولا
آخراف مادام يتمسّك بقيم هذا الدين وتعاليمه .

المبحث الثاني

صور من مكارم الأخلاق في الجاهلية والإسلام

- ١ - الكرم حُلُق عربى أصيل
- ٢ - الشجاعة عند العرب
- ٣ - العِفَة والغِفَة
- ٤ - الوفاء عند العرب
- ٥ - الحرية وإباء الضيّم
- ٦ - حفظ الجوار
- ٧ - الحِلم والأنْثَاة

تمهيد :

كان للعادات عند العرب أثر عظيم في نظم حياتهم الاجتماعية ، بل كان المتقايد سطوة تقوم مقام الدين والقانون ، ولا يستطيع الفرد أن يتخلى عنها .

فالعادات الاجتماعية متى رسمت جذورها ، وثبتت أركانها وعمقت أصولها ، اعتبرها الناس المنار الذي ينبعى أن يهتدى به ، واعتبروا خلافها شدوذاً واستثناء ، لأن الإلقاء عن إلف العادة عسير وشاق .

لقد رسمت هذه العادات عند العرب بدور الأزمة ، وتشكلت لديهم قيم وأخلاق صارت تبهر عن غيرهم « هذه الأخلاق ليست كسباً حالصاً وإنما هي وثيقة الصلة أو قائمة على ما أودع الله النفوس من نظر وسجايا وخلافق .. ومنها يصدر الخير والشر .

وهذا الإدراك جعلهم يؤثرون ما يبقى من الذكر الحسن ، أدرك العرب صورتين للحياة : صورة الحياة المادية التي تذهب ولا تخلف وراءها غير أثر دارس ، وصورة الحياة الباقة التي تمثل في مكارم الأخلاق ، وهي الحياة التي لا تمضي بعضاً أصحابها ، وإنما تبقى بعدهم كأثر صالح يتحدث بذكرهم .

وقد بذل العرب جهدهم بذل وتنافسوا في تحقيق هذه الصورة الثانية التي لا يلتحقها الفناء .. لذا طلبوا الموت من أجل الخلود بالذكر الصيب ، حتى رأيناهم يخافون المسبة والعار أكثر مما يخافون الموت «^(١) يقول عروة بن الورد :

أحاديث تبقى والفتى غير خالد إذا هو أمسى هامة تحت صبر

(١) ملامح من دور الإسلام في بناء العمارة العربية : محمد رشاد خليل ص ٦٢٤ - ٦٢٦

«وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ إِلَيْهِ الْإِسْلَامُ وَفِي الْعَرْبِ بَعْضُ الْمَرَايَا الْحَمِيدَةِ الَّتِي لَا يَكُنُ التَّكَرُّرُ لَهَا ، وَلَكِنْ طَابَعَ الشَّرِّ وَالظُّلْمَ وَفَسَادَ الْمَعْقَدَاتِ وَالْتَّصُورَاتِ كَانَ يَطْغِي عَلَى ذَلِكَ الْخَيْرِ فِيهِمْ وَيَغْمُرُهُ ، وَكَانُوا بِحَاجَةٍ شَدِيدَةٍ إِلَى مَنْ يَبْيَّنُ لَهُمْ شَرِّ حَيَاتِهِمْ وَمَاذَا يَعْمَلُونَ ، فَبَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولَهُ الْكَرِيمَ وَأَمْرَهُ أَنْ يَشْرُرُ وَيَنْدِرُ ، وَيَتَحَمَّلُ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ ضَرَوبًاً مِّنَ التَّعْبِ وَالْمَجَادِلَةِ وَالْأَذَى .

وَلَعْلَنَا لَا نَبْعُدُ عَنِ الصَّوَابِ إِذَا قُلْنَا : إِنَّ تَلْكَ الْمَحَاسِنِ وَالْمَنَاقِبِ أَنَّهَا دِينُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَمَا اتَّسَّرَتْ الْحَنِيفَيَّةُ فِي الْعَرْبِ نَشَرَتْ بِيَنِيهِمْ هَذِهِ الْمَكَارِمُ وَأَخْدُوهَا مِنْهَا وَبَقِيتْ بِيَنِيهِ بِشَكْلٍ أَوْ بَآخَرٍ .. وَهَذَا مَا نَجَدْهُ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١) «إِنَّمَا بَعَثْتُ لِأَنْمَمْ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(٢) .

كَانَ الْمُجَتَمِعُ الْعَرَبِيُّ يَعْجَزُ بِخَلْطِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ مِنْهَا الصَّالِحُ وَالظَّالِحُ ، عَلَى أَنَّ الْقِيمَ الرَّفِيعَةَ وَالْخَلَالَ الْحَمِيدَةَ اتَّسَّرَتْ بَيْنَ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ اتَّسَارًا وَاسِعًا عَجَّتْ بِهَا أَشْعَارُهُمْ وَسَارَتْ بِهَا أَخْبَارُهُمْ ، وَكَانَ مِنْ هَذِهِ الْخَلَالِ مَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ أَوْ كَادُوا وَكَانَ مِنْهَا مَا تَحْلَى بِهِ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ . فَأَمَا الَّتِي اجْتَمَعُوا عَلَيْهَا فَأَهْمَهَا ثَلَاثٌ : الْكَرِيمُ وَالشَّجَاعَةُ وَالْعَيْرَةُ وَأَمَا الَّتِي تَحْلَى بِهَا الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ فَمِنْهَا : الْعِفَةُ وَالتَّرْفِعُ عَنِ الدُّنْيَا وَمِنْهَا : بَعْضُ الْلَّؤْمِ وَمِنْهَا الصَّدْقُ وَالْوَفَاءُ ، وَالْأَمَانَةُ وَحْفَظُ السَّرِّ .. وَمِنْهَا الْحَلْمُ وَالرِّزْانَةُ وَغَيْرُ ذَلِكَ .

عَلَى أَنَّ الْقَوْمَ سَادَ بَيْنَهُمْ كَثِيرٌ مِّنَ الْقِيمِ الْوُضِيعَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْذَّمِيمَةِ ، فَكَمَا كَانَ مِنْهُمُ الْأُوفَيَاءُ الصَّادِقُونَ كَانَ مِنْهُمُ الْغَدَارُونَ وَالْلَّؤْمَاءُ وَالْكَذَابُونَ ، وَكَمَا كَانَ مِنْهُمُ الْأُوفَيَاءُ وَكَمَّةُ السَّرِّ وَحْفَظُ الْعِهْدِ كَانَ مِنْهُمُ الْخَوْنَةُ

(١) انظر أدب الحنفية : رسالة ماجستير - جامعة أم القرى - حبيب بن حشن الزهراني - ص ٣٨٣-٣٨١ .

(٢) روى الإمام أحمد في مسنده : ٣٨١ / ٢ ، والإمام مالك في الموطأ ص ٦٥١ لـ الجامع وانظر مشكاة المصايب ١٤١١ / ٣ برواية «بعثت لأنتم حسن الأخلاق» .

واللصوص والبخلاء ، وكما كان منهم الشجعان والفرسان كان منهم الجناء
والمخدولون .. الخ^(١) .

لقد انتشرت الأخلاق الكريمة في شعرهم انتشاراً واسعاً ، وصورتها
دواوين شعرهم ، إذ تسابقوا فيها بعتقد رسم في أذهانهم .

وبقي العرب يتوارثونه جيلاً بعد جيل حتى بعث الله فيهم رسوله
الأمين وهم على ذلك^(٢) .

وسوف أستعرض في المبحث الثاني هذا صوراً ونماذج من مكارم
الأخلاق العربية كما صورها شاعر القوم ثم أبين موقف الإسلام من هذه
الأخلاق الحميدة وكيف شجعها وأكملها وربطها بتعاليمه السمححة
وتصوراته الثابتة .

وفي المبحث الثالث أبين صوراً من العادات السيئة والأخلاق
الذميمة ، تلك التي كانت في جاهلية العرب ومن ثم أوضح كيف شجب
الإسلام هذه الانحرافات وكيف حرّمها ووضع لذلك الضوابط والقيود ،
ليبني مجتمع الطهر والفضيلة والعفاف ، مجتمع الاستقرار والأخوة .

وخلال هذا العرض ، لا ننسى المقارنة بين نعمة الإسلام وقمعه
السامقة ، وبين الجاهلية العربية ، وما انحدر إليه العرب والناس في جاهليتهم
المعاصرة .

(١) رسالة المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي - رسالة دكتوراة جامعة أم القرى عام

٤٠٥ هـ - محمد الشيخ محمود صيام / ص ٣٠٩-٣٠٨

(٢) انظر : أدب المخيفية ص ٣٨١ .

١ - الْكَرْمُ حُلْقُ عَرَبِيٍّ أَصِيلٌ :

تميّز العرب بإكرام الضيف ، وانتهروا بهذه الخلّة على الأمم ، وتاهوا بهذه المَكْرَمة ، وسطّروا ذلك في شعرهم وآثارهم .

فما الذي دفعهم للتمسك بهذه الفضيلة ؟ وما القيم الرفيعة التي جعلتهم يتمسكون بهذه السُّجَيَّة رغم قلة ذات اليد حيناً والفقير والجدب حيناً آخر ؟

بِواعِثِ الْكَرْمِ عِنْدِ الْعَرَبِ :

لم تكن خصْلَةً عندهم تفوق خصلة الكرم ، وقد بعثتها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من جدب وإحال ، فكثيراً ما يذبح الغنى إبله في سنّ القحط يُطعمها العشيرة ، كما أنه يذبح الإبل قرير العين لضيافته الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه^(١) .

كان العرب يعيشون في بادية شحيحة بالزاد ، وحياتهم ترحال وتجوال ، وكل منهم مُعَرَّض لأن ينفد زاده ، فهو يُقرى ضيفه اليوم لأنّه سيضطر إلى أن ينزل عند غيره في يوم ، فليس في الباية ملجاً يلجأ الفرد إليه غير الخيام المضروبة هنا وهناك ، فهي ملاجيء تعتبر قوارب النجاة .. فإذا امتنع صاحب الخيمة عن أداء حق الضيافة عَرَض ضيفه للمخطر وعرض حياته هو إلى ذلك الخطر ، والعرف أن الضيافة ثلاثة أيام وثلاث ليال فإذا انتهت المدة سقط حق الضيافة ، إلا إذا جددتها المضيف وزاد عليها^(٢) .

(١) العصر الجاهلي : د. شوق ضيف ، ص ٦٨ .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام : د. جواد على ، ٥٧٥/٤ .

على أن العرب كانوا يكرمون الضيف لكيفهم بحسن الأخذوثة
وطيب الثناء :

فهم ذوق أزيجية تُسعد نفوسهم بمساعدة احتياج وإصمام الحاجة
وإغاثة الملهوف .. وكان المال في نظرهم وسيلة لا غاية ، وسيلة إلى كسب
الحمد .

نعم إنه وسيلة هامة من وسائل السيادة
يقول حاتم الطائفي :^(١)

يقولون لـ أهلـكـتـ مـالـكـ فـاقـتصـدـ وـماـ كـنـتـ لـوـلـاـ ماـ تـقـولـونـ سـيـداـ
وـالـعـرـفـ يـنـكـرـ الـبـخـلـ لـأـنـهـ مـزـيرـ بـأـخـلـاقـ الرـجـالـ ،ـ وـيـنـاقـضـ مـعـ الفـصـرـةـ
الـسـلـيـمـةـ التـيـ خـلـقـ إـلـاـنـسـانـ عـلـيـهـ ،ـ الـبـخـلـ يـضـعـ مـنـ عـوـالـيـ الصـفـاتـ .ـ

يقول عمرو بن الأهتم ، وقد دعا زوجته لأن ترك اللوم عن بذل المال ، فهو يشفق على الحبيب الرفيع ، والكرام يتقون الدم ببذل القرى .. ثم يتطرق إلى ضيف طرقه ليلاً ويبين لنا كيف رأب به وكيف كان حسن اللقاء^(٢) :

ذريني فإن البخل يأْمِن هيثم
 ذريني وحُطّي في هوای فانى
 ومستبْتَح بعد الهدوء دعوته
 فقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحباً
 وكل كريم يتلقى الذم بالقري
 لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها

(١) ديوان حاتم ، طبعة بيروت ١٩٦٣ م ، ص ٨

(٢) المفضليات ، رقم (٤٣) ص ١٢٥ ، ط : دار المعارف

إن الشاعر يستقبل ضيفه بالترحاب والقرى ، فهو يتقى الذم والقالة ، إنه رَحْبُ الصدر ، حيث أن البلاد لا تضيق بأهلها ولكن الشّعْ هو الذي يصور للناس أنها تضيق بهم .

لقد أصبح الكرم طبعاً من طباع العربي ، التي شَبَّ عليها ، فقد ملك عليهم النفوس ، حتى أن أحدهم لا يستطيع أن يأكل طعامه منفرداً ، فها هو حاتم الطائفي يوصي زوجته إذا صنعت له الطعام أن تطلب له ضيفاً ليشاركه فيه ، إنه يخشى اتهام الناس له بالبخل لو أكل وحيداً . يقول حاتم :

أيا ابنة عبدالله وابنة مالك وياابنة ذي البردين والفرس الورد
إذا ما صنعت الزاد فاتمسي له أكيلأ فإني لست آكله وحدى
أخأ طارقاً أو جار بيت فإني أخاف مذمات الأحاديث من بعدى
وإني لعبدُ الضيف مadam ثاوياً وما فى إلا تلك من شيمه العبد
أين هذا من طباع الناس اليوم ، إذ ترى بعضهم قد لا يشاركه طعامه أحد معظم أيام السنة .. ولا تجد منزله مُهياً لاستقبال الضيف .

ونلاحظ هنا اهتمام العربي بحسن الأحداث في حياته وبعد ماته وهذا ما نفر منه الإسلام ، وجعل الكرم الطبيعي يقصد به وجه الله أولاً وهو الأساس .

ويرى حاجب بن حبيب الأسدى أن الحمد يُشتري بالمال :^(٢)
والمعطيان ابتغاء الحمد ما هما والحمد لا يُشتري إلا بأثمان

(١) ديوان حاتم : ص ٤٣ ط بيروت ، ونسبها المرد إلى قيس بن عاصم المقرى في كتابه الكامل : ٥٢٥/٢ ، ط ١٩٣٦ م .

(٢) المفضليات : رقم (١١١) ص ٣٧١ .

ولعل أصل الكرم قد أخذه العرب عن أبيهم إبراهيم عليه السلام ، ثم انحرفت الدوافع والمظاهر مع نسيانهم الديانة السماوية وقيمها الأصيلة .. فتحول الكرم لديهم إلى نوع من الإسراف وحب السمعة .

يذكر القرآن الكريم قصة النفر الذين جاءوا إبراهيم عليه السلام وهو لا يعرف أنهم من الملائكة ، وقبل أن يأسأهم عن حاجتهم ، قرّاهم بعجل سمين :

﴿ فَرَأَ إِلَّاتِ أَهْلِهِ، فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُونُ ﴾ سورة الذاريات : ٢٦ - ٢٧ .

إن الديانة السماوية تأمر بذلك الكرم خالصاً لوجه الله وتنهى عن الإسراف والمبالغة الرائدة خلافاً لما صارت إليه أحوال أهل الجاهلية من حب الشهرة والإسراف في البذل « إن بقية هذه الملة قد صُرِفَ عن وجهه وبُعْدَ عن مقاصده ، ولم تبق فيه إلا صور باهتة انحرفت عن مقاصد الحنيفة الأصيلة »^(١) .

وما بعث الله نبيه إلى العرب ، وكانت دعوته تأخذ بدعامة مكارم الأخلاق ونشرها بعد سلامه العقيدة ونقاء التوحيد .

« لم يُفاجأُ العربي بغيرات كثيرة في ظاهر ما أُلْفَ إلا في القليل ، لأن التغيير الجديد كان مُوجّهاً إلى روح العقيدة الذي فسد ، لا إلى ظاهرها الذي بقى كثير من آثاره وأشكاله»^(١) كالشجاعة والغيرة وحسن الجوار وما تبقى من مكارم الأخلاق .

(١) الهجاء والمحاوزون في الجاهلية : د. محمد محمد حسين رحمه الله ص ١٠ ، ١٨١ - الطبعة الثالثة ١٣٨٩ هـ - دار الهبة العربية - بيروت .

مظاهر الكرم عند العرب :^(١)

كان العرب يفرحون بالضيف إذا قدم ، بل بالغوا في الحفاوة به ، وتفتتوا في إكرامه وقراه ، وتلمسوا الأسباب التي تدخل على نفسه السرور .

ومن ذلك بسط الوجه له ومضاحته والترحيب به ساعة قدومه حتى يأنس وينزل وهو مطمئن .

يقول عمرو بن الأهم :^(٢)

وضاحتُه من قبل عِزفاني اسمه لِيَأْنس إِنِّي لِلْكَسِير رَفِيقُ
بَلْ كَانُوا يَقْدُمُونَ لِهِ أَشْهَى مَا يَمْلِكُونَ ، مَعَ إِبْنَاسِهِمْ لَهُ قَالُوا : « تَعَامَ
الضيافة الطلقَة عند أول وَهْلة وإِطَالَةُ الْحَدِيثِ عند المُؤَاكِلَةِ » .

ولن يتلهي العربي عن ضيفه ، حتى ولا بالزوجة والولد .

يقول عروة بن الورد :^(٣)

فَرَأَشِي فِرَاشُ الضَّيْفِ وَالْبَيْتِ بَيْتِهِ
وَلَنْ يَلْهُنِي عَنِهِ غَزَالٌ مَقْنَعٌ
أَحَدُهُ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقَرْبَى
وَتَعْلَمُ نَفْسِي أَنَّهُ سُوفَ يَهْجُعُ
وَيَقُولُ حَاتَمٌ :

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَادَامَ ثَاوِيَاً وَمَا فَيْ إِلَّا تَلَكَّ منْ شِيمَةِ الْعَبْدِ
وَمِنْ مَظَاهِرِ الْكَرْمِ الْعَرَبِيِّ السَّخَاءِ عَلَى الْأَرَاملِ وَالْيَتَامَى وَالْبَائِسِينَ
وَصَلَةِ الْأَرْحَامِ ، وَإِعْطَاءِ السَّائِلِ وَالْمُخْتَاجِ .

(١) انظر : الحياة العربية من الشعر الجاهلي : الحروف ص ٣١١ - ٣٢٢ ، والعقائد والقيم في الشعر الجاهلي : ٣٢٨-٣٠٩ .

(٢) الأشباه والنظائر : ١٠٠/٢ .

(٣) الديوان ص ١٠١ .

ومن ذلك أيضاً مفادة الأسرى وإكرامهم والذُّ عليةِ وكان هذا الموضوع يأخذ من أموال الكرماء نصيباً كبيراً

يقول المُسَيْبِ بن عَلَىٰ :^(١)

وخير الناس قد علمت معدٌ لضيف أو حار أو لعاني
ويقول حاتم :^(٢)

إذا كان بعض المال رَبِّا لأهله فإلى بحمد الله مالي معبد
يفك به العانى ويؤكل طيباً ويُغطى إذا منَ البخيل المتصدِّعُ
ومن مظاهر كرمهم الذى تفاخروا به : حمل ديات القتل لإحلال
الونام بين القبائل المتاحرة .

ومن تحمل ديات القتل جد حسان بن ثابت - رضى الله عنه - وهو
المتذر بن حَرَام الْخَزْرَجِيُّ ، فقد احتمل دماء الأوس عقب الحرب التي
دارت بينهم وبين قومه الخزرج في يوم سُمِيحة الشهير ، وكان قد أهدر دماء
قومه وحمل دماء خصمه^(٣) .

ومن تحمل ديات القتل هَرَم بن سِنَان والحارث بن عوف ممدوح
زهير بن أبي سُلْمى في حرب دَاجِس والعبراء .

وكان إكرام الجار مجال فخرهم ، وخاصة إذا كان الجار غريباً .

(١) معجم الشعراء : ص ٣٠٠ . « العانى : الأسير »

(٢) ديوان حاتم : ص ٢٥ (دار صادر) .

(٣) انظر : طبقات فحول الشعراء لابن سلام : ٢١٦/١ .
و يوم سُميحة : من الأيام الشهيرة في القتال بين الأوس والخزرج في الجاهلية .

يقول السَّمْوَالْ :^(١)

تعيرنا أنا قليل عديداً فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل
وكان العرى حير رفيق لصاحب الطريق ، لا يختصون أنفسهم دونه
بمال أو بظاهر أو بباء .

يقول حاتم الطائِي :^(٢)

لشرب ما في الحوض قبل الركائب
وما أنا بالساعى بفضل زمامها
لأركها خفاً وأترك صاحبها
وقد اشتهر عدد من أجواد العرب بهذه الصفة ، سُمُوا « أزواد الرَّكَبِ » وهم ثلاثة من قريش ، وإنما قيل لهم أزواد الركب لأنهم كانوا إذا سافروا لم يتزود معهم أحد ، ولم يُسمَّ بذلك غير هؤلاء الثلاثة ، وهم مسافرون أبن أني عمرو من بنى عبد شمس ، وأبو أمية بن المغيرة من بنى مخزوم ، وزَمْعَةُ بن الأسود بن المطلب^(٣) .

ومن صدق تطبيقهم لهذا الخلق تعميم الدعوة إلى الطعام ليحضره كل من له إليه حاجة ، ومنها بغضهم للطعام إذا لم يشاركهم فيه طاعم من الجيران أو الضيوف - كما مر معنا آنفًا - ومن شؤونهم العجيبة في كرمهم ، حبهم لكلابهم بسبب ما يجلبه نباحها للأضياف وضلال الطريق من المسافرين .

(١) ديوان عروة والسموالي : ص ٩٠ .

(٢) ديوان حاتم : ص ٢٩ / ط بيروت .

(٣) بلوغ الأرب : الأنوسى : ٩١/١ - ٩٢ .

يقول مالك بن حريم الهمذاني :^(١)

وثانية أن لا أصمت كلبنا إذا نزل الأضيف حرصاً لموعدنا
وكانوا يكتون عن كرم الرجل بجين كلبه ، لأنه ينبع بالليل فإذا ما
رأى الغريب كف لأنّه اعتاد رؤية الغرباء .

ومن مظاهر كرمهم العجيبة هداية الضيوف ليلاً بالنار التي يوقدونها
لإنضاج الطعام ، أو للاستدفأ ، وكانوا يوقدونها على المرتفعات لتكون أين
وأوضح^(٢) .

يقول حاتم الطائي لغلامه في ليلة باردة الربيع : أُوقد النار ليرى نارك
من يير ، وإن جاءنا ضيف فأنت حر .

أُوقد فإن الليل ليَلْ قَرَ والربيع ياغلام ريح صَرَ^(٣)
والعرب كرماء في كل وقت ، ولكنهم يشيدون بالكرم إذا أجدت
الأرض وقت الشتاء . قالت الحنساء^(٤) :

وإن صخراً لوالينا وسنا وإن صخراً إذا نشتو لنحار
وقد أكثروا من الفخر بالكرم وأكثروا من المدح به إذا هبت ريح
الشمال ، لأنها لا تهب إلا في الجدب .

قالت بنت لبيد بن ربيعة العامري^(٥) :

إذا هبت رياح ألى عقيل ذكرنا عند هبتها الوليدا
أشتم الأنف أبيض عبْشِمِيَا أعنان على مروعته لبيدا

(١) الأصمعيات : ص ٦٤ .

(٢) الحياة العربية : المقوف ، ص ٣١٦-٣١٨ ، وبلغ الأرب : ٦/١

(٣) شعراء النصرانية : ص ١١٦ ، ط ٢ دار المشرق بيروت ، وبلغ الأرب : ٧٨/١

(٤) ديوان الحنساء : ص ٥١ ، ط دار الأندلس ١٩٨١ م .

(٥) انظر بلوغ الأرب : ٢٩٢/١ الشعر والشعراء : ٢٧٦-٢٧٢ ، ط دار المعارف .

وكان لبيد قد آلى في الجاهلية ألا تهب الصبا إلا أطعم الناس حتى تسكن ، وألزم نفسه في إسلامه بذلك . فخطب الوليد بن عتبة الناس بالكوفة يوم صبا وقال :

إن أحكام لبيدا آلى ألا تهب له الصبا إلا أطعم الناس حتى تسكن ،
وهذا اليوم من أيامه فأعينوه ، وأنا أول من أعانه ، ونزل فبعث إليه بمائة
بكراً وكتب إليه أبياتاً منها :

أرى الجزار يشحذ شفريه إذا هبت رياح ألى عقيل
أشم الأنف أصيد عامري طويل الباع كالسيف الصقيل

فَلَمَّا أَتَاهُ الشِّعْرُ قَالَ لَابْنِهِ أَجِيبِيهِ ، فَقَدْ رأَيْتِنِي وَمَا أَعْيَا بِجَوابِ شَاعِرٍ . فَقَالَتْ أَبْيَاتٌ مِّنْهَا الْأَبْيَاتُ الَّتِي ذُكِرْتُهَا فِي أُولَى الْقَصَّةِ .

أجواد العرب:

أشهر كثيرون العرب بالجود والمسخاء حتى ضُرب بهم المثل في ذلك . ومن هؤلاء :

حاتم الطائى :

قالوا في المثل : أَجُودُ مِنْ حَاتِمٍ ، وَكَانَ ابْنَهُ عَدِيًّا قَدْ أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ وَأَسْلَمَ .

وكان أول ما ظهر من جوده أن أباه خلفه في إبل له وهو غلام ، فمر عليه ثلاثة من شعراء العرب ، وهو لا يعرفهم ، فتحر لهم ثلاثة من الإبل ، ثم سألهم عن أسمائهم فعرف أنهم عبيد بن الأبرص ، وبشر بن أبي حازم ،

(١) انظر بلوغ الأرب : (٧٢-٩٢)

والنابغة الذهبياني وكانوا في طريقهم إلى النعمان بن المنذر ، عندها فَرَقَ فيهِ
الإبل كلها .

ولما بلغ أباه ما فعل ، سأله : ما فعلت بالإبل ؟ قال : يا أباه ، طوقتك
مجد الدهر طوق الحمام ، وأخبره بما صنع فقال له أبوه : لا أساكنك أبداً ،
قال حاتم : إذاً لا أبالي واعتزل أباه^(١) .

ولا شك أن هذا من الإسراف ومبالغات أهل الجاهلية وقد نهى
الإسلام عن الإسراف وذم المسرفين .

ولقد آثر حاتم المحتاجين على نفسه وأولاده في سنة مجده ، إذ ذبح
فرسه إلى امرأة جاءته ليلاً تشكو جوع أولادها ، ثم نادى في الحي ليشتووا
اللحم ، بينما كان حاتم ملتفعاً بشوبه وماذاق قطعة مما ذبح ، فحين أن
أطفاله كانوا قد باتوا ليلتهم تلك يتضاغون من الجوع^(٢) .

ومن جميل شعره في الكرم قوله وهو يخاطب زوجته^(٣) :

أماوى إن المال غاية ورائع ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى ما يعني الثراء عن الفتى إذا حشرحت نفس وضاق بها الصدر
أماوى إن رب واحد أمه أجرث فلا قتل عليه ولا أسر
وقد علم الأقوام لو أن حاتما أراد ثراء المال كان له وفر
وما ضرّ جاراً يابنة القوم فاعلمي
بعيني عن جارات قومي غفلة

(١) انظر الشعر والشعراء : ٢٤١/١ ط دار المعرف .

(٢) المرجع السابق : ٢٤٣/١ .

(٣) ديوان حاتم : ص ٥٠-٥١ ، والوفر : ذهب السمع والضم .

حقاً إنها لأبيات رائعة تصور مذهب حاتم في كرمه وأخلاقه وعفته
وغض البصر عن الجارات ، فهو عرى شهم يفك الأسرى ويهين المال .
كان يحب مكارم الأخلاق ، كان يريد أمراً فأدركه وهو الذكر
الحسن .

«أخرج أحمد في مسنده عن عدى بن حاتم قال : قلت ، يارسول
الله ، إن ألى كان يصل الرحم ، ويفعل كذا وكذا قال : إن أباك أراد أمراً
فأدراكه يعني الذكر .

وكانت سفارة ابنة حاتم ، قد أتت بها إلى رسول الله ﷺ ، فقالت :
يا محمد هلك الوالد وغاب الرَّافِدُ فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَخْلُنَّ عَنِّي وَلَا تَشْمُتْ بِي
أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ، فَإِنْ أَلِي سِيدُ قَوْمِهِ ، كَانَ يَفْكُرُ الْعَانِي وَيَحْمِيُ الدَّمَارِ ..
ويطعم الطعام ويفتشي السلام ، أنا ابنة حاتم طبيء .

فقال عليه الصلاة والسلام : يا جارية هذه صفة المؤمن لو كان أبوك
إسلامياً لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم
الأخلاق »^(١) .

وقال ابن الأعرابى : كان حاتم جَوَاداً يشبه جوده شعره كان أقسم بالله ،
لا يقتل واحد أمه ، وكان إذا أَهْلَ رجب نحر في كل يوم عشرة من الإبل ،
وأطعم الناس واجتمعوا عليه^(٢) .

وكان من يُضرب بكرمه المثل كعب بن مامَة الإيادي .

(١) سوادر الأصول للترمذى : ٢٣٠ - ٢٢٩ ، المكتبة العلمية بالندية المchora .

(٢) بنوع الأربع . (٧٢/١) .

فِي جَوَّ الْجَهَدِ وَالْمُشْقَةِ ، فِي الصَّحَرَاءِ الْلَّافِحةِ حِيثُ الصِّيفُ الْحَارُ
وَالْعَطْشُ الْمَهْلُكُ ، نَجَدْ جُودًا بِالنَّفْسِ حَتَّى الْمَوْتِ .

ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ شَأْنٍ كَعْبَ بْنَ مَامَةَ إِذْ خَرَجَ فِي رَكْبِهِمْ رَجُلٌ
مِّنَ النَّمَرِ بْنِ قَاسِطٍ فِي بَعْضِ شَهُورِ الصِّيفِ ، فَضَلَّوْا الطَّرِيقَ وَتَصَافَّوْا
مَاءَهُمْ : أَئِنْ يُطْرَحُ فِي الْقَعْبِ حَصَّةً ثُمَّ يَصْبَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ بِقَدْرِ مَا يَغْمُرُ
الْحَصَّةَ ، وَيَشْرُبُ كُلُّ إِنْسَانٍ قَدْرَ مَا يَشْرُبُ صَاحِبَهُ ، فَقَعَدُوا لِلنَّشَرِ ،
فَلَمَّا دَارَ الْقَعْبُ وَانْتَهَى إِلَى كَعْبَ أَبْصَرَ النَّمَرَى بَعْدَ النَّظَرِ إِلَيْهِ فَأَثَرَهُ بِنَصْبِهِ
مِنَ الْمَاءِ ؟ وَقَالَ لِلْسَّاقِ اسْقِ أَخَاكَ النَّمَرِى ، فَشَرَبَ النَّمَرِى نَصْبِ كَعْبَ
ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْمَاءِ ، وَفَعَلَ ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ عِنْدَمَا
أَرَادُوا الرَّحِيلَ لَمْ يَكُنْ بِكَعْبِ قُوَّةً لِلنَّهُوضِ ، وَلَمَا يَعْسُوا مِنْهُ خَيْلُوا عَلَيْهِ بِثُوبٍ
يَعْنِيهِ مِنَ السَّبْعِ أَنْ يَأْكُلَهُ وَتَرْكُوهُ مَكَانَهُ فَفَاضَ . فَقَالَ أَبُوهُ مَامَةَ يَرْثِيهِ :
أَوْ فِي عَلَى الْمَيْتَةِ كَعْبٌ ثُمَّ قِيلَ لَهُ رَدٌّ إِنْكَ وَرَادٌ فَمَا وَرَادٌ

وَفِيهِ يَقُولُ الْقَائِلُ :

يَجْوُدُ بِالنَّفْسِ إِذَا ضَرَبَ الْبَحِيلَ بِهَا وَالْجَوْدُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجَوْدِ^(۱)
وَقَدْ أَهْلَكَ كَعْبَ نَفْسَهُ ، وَهَذَا مِنْ غَلُوْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي تَصْوِرِهِمْ
لِلْكَرْمِ وَبَعْضِ الْفَضَائِلِ ، وَاللَّهُ سَبَّحَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ :
﴿لَهُوَ لَا يُلْقَوْا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ﴾ سُورَةُ الْبَقْرَةِ : ۱۹۵

وَقَدْ فَضَلَّهُ الْجَاهِظُ وَرَجَحَهُ عَلَى حَاتِمِ الطَّائِفِ فِي الْجَوْدِ ، ذَلِكَ لِأَنَّ
حَاتِمًا كَانَ يَجْوُدُ بِمَا لَهُ ، أَمَّا كَعْبَ فَقَدْ بَذَلَ النَّفْسَ حَتَّى أَغْطَبَهُ الْكَرْمُ .

(۱) انْظُرْ بِلَوْغِ الْأَرْبَعِ : ۸۱-۸۲ .

وذكر أن من عادة كعب ، أنه كان إذاجاوره رجل قام له بكل ما يصلحه ويعالجه وحماه عن يريده ، وإن هلك له بغير أو شاة أو عبد ، أخلف عليه ، وإن مات ودأه وقد افتخرت به إياته عَدَ من مفاحرها^(١) .

· ومن كرماء الجاهلية - وهم كثير - هرم بن سنان ، ذاك الذي كان يفرح ويتهلل عند العطاء .. كان من أشهر أجواد زمانه وأرجغهم في المعروف ، هو صاحب زهير ومدوحه ، والذى تحمل دبات القتلى بين عَبَسْ وذُيّان في حرب داجس والغبراء .

يقول زهير بن أبي سلمى فيه :^(٢)

وأيضاً فياض يداه غمامه على معتفيه ما تُغْبُ فواضله
تراه إذا ما جعته متللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله
آخر ثقة لا تُنْفِي الخمر ماله ولكنه قد يتلف الخمر نائله
ومن سارت بجوده الأمثال ، عبدالله بن جذعان التميمي .

كان من مشاهير الأجواد بمكة ، وكانت له جفنة يأكل منها الراكتب
وهو على ظهر البعير .

سقط في هذه الجفنة صبي ففرق ومات . وابن جدعان هو ابن عم
السيدة عائشة - رضي الله عنها - قالت : يا رسول الله إن ابن جذعان كان
يُطعم الطعام ، ويُثْرِي الضيف ، ويفعل المعروف ، فهل ينفعه ذلك يوم
القيمة ؟ قال عليه السلام : إنه لم يُقْلِّ يوماً ربُّ اغْفِرْ لـ خططيتي يوم الدين .
كذا قاله السهيلي في الروض الأنف^(٣) .

(١) التعالى : ثمار القنوب ص ١٢٢ ، عن جواد على ٤/٥٧٨ .

(٢) الشعر والشعراء : ص ١٥٠ .

(٣) سونع الأربع باختصار : ١/٨٩ .

والحديث عن أجواد العرب يطول ، وكنا قد أشرنا إلى مطاعيمه
الريخ ، ومنهم كفانة الشفقي عم أبى ممحجن ، وليد ابن ربيعة ، كانوا إذا
هست أصيًّا أضعوا الناس وخصوصا الصبا لأنها لا تهب إلا في حذب
ومنهم أزواد الرَّكْب وقد أشرنا إليهم فيما مضى^(١).

هذا وإن هذه الصفة العظيمة ، تستحق الإعجاب ، إلا أن الكرم
الحق هو البذل بلا عوص ، ولا انتظار مدح أو حسن الأحداث ، ولا خوفاً
من الدُّم والقالة .. وهذا ما دعا إليه الإسلام كما سررى .

ولنا أن نتساءل الآن : هل كان كل عربى كريماً ؟ وهل ارتفع القوم
جميعاً في جاهليتهم إلى هذا المستوى الذى صوره شعرهم ؟ طبعاً لم يكونوا
جميعاً كذلك وإنما كان العرف السائد هو الكرم وحسن استقبال الضيف ،
ونادرًا كان يقع الشجع منهم ، ومن هنا : « يصور القرآن الكريم العرب
وفيهم آفة البخل المذمومة ويلوح في ذم الطبع ، إذ ليس العرب جميعاً أجواداً
مُهبين للأموال مسرفين في إزدرائهما »^(٢) .

ظاهرة البخل^(٣) :

إن شيوع الكرم في العرب ، وتقديرهم للكرماء لا ينفي أن ظاهرة
البخل كانت عند بعضهم ، ولذلك فقد هجا الشعراء البخلاء ، ومن هؤلاء
ما غيره به عروة بن الورد خصمه بالبخل وافتخر بالكرم إذ يقول^(٤) :

١

(١) بلوغ الأربع : (٩٤/١) ٩٩-٩٤ .

(٢) الخوف : الحياة العربية ص ٣٣٠ .

(٣) انظر . الحياة العربية في الشعر الجاهلي : ص ٣٢٤-٣٣٠ .

(٤) شعراء النصرانية : ص ٨٨٧ ، الطبعة الثانية .

إني امرؤ عاف إلائى شركه
وأنت امرؤ عاف إلائك واحد
أتهزاً مني أن سنت وأن ترى
أقسى جسمى في جسوم كثيرة
ويوجى شحوب الحق والحق جاحد
وأحسوا قراح الماء والماء بارد
ولذلك يهجو حاتم الطائى البخل والبخلاء إذ يقول :

ليت البخل يراه الناس كلهم
كما يراهم فلا يُفَرِّى إذا نزل
إن البخل إذا ما مات يتبعه
سواء الثناء وينجوى الوارث الإيلا
وربما وصل الأمر بعض الأشخاص أن يطرد ضيفه ولا يخجل من
ذلك .

يقول أحد بنى تميم^(١) :

وصاحب قلت له بُنْصُح فَمَ فارتحل قد ضاء ضوء الصُّبْح
فقام بهز اهتزاز الرُّوح
جوعاً وتعانيا وأرقاً .

كان البخل من أشد ما يُهجى به العرف ، بعد أن ترسخت لديه القيم
الرفيعة ، روى أن الأعشى ما هجا علقة بن علاء بقوله^(٢) :
تبيتون في المشتى ملأء بطونكم وجاراتكم غرثى يتن خمائصا
ولما سمع علقة بذلك رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم أعنْه إن كان
كاذباً ، أبْحَق نفعل هذا بغيرانا ، ثم بكى وقال : ما هجائى بشيء هو أشد
على من هذا .

(١) المؤتلف والختلف : ص ١٩٦ ، عن القيم والمعتقدات في الشعر الخاصل ص ٤١٢

(٢) ديوان الأعشى : ص ١٠٠ (طبعة ١٩٨٣) .

« عرقى وخمائص : حائطات ضواهر البطون من الجوع »



هذا الذى يكى منه علقة في الجاهلية ، لا يتحرك له ضمير الجاهلية المعاصرة .. إذ كُم من البشر يموتون في المجتمعات والأوبئة ، وأموال الأثرياء لا تجد لها مصرفًا ، بل تنفق في سبيل الشهوات الهابغة على أن أكثر الشعر في هذا الموضوع يتحدث عن شركاية الرجال من نسائهم اللواتي يخاولن منعهم من البذل ، ويلمنهم على الإسراف ، فقد حاولت زوجة حاتم أن تُغَلِّ يده عن العطاء فعصاها ، لأن الكرم عادة راسخة عنده لا يستطيع أن يتخل عنها . يقول^(١) :

وقائلةً أهلكت بالجُود ما لنا : وَنَفْسَكَ حَتَّى ضَرَّ نَفْسَكَ جُودَهَا
فقلتُ دعنى إنما تلك عادتى لِكَلْ كَرِيمٍ عَادَةٍ يَسْتَعِدُهَا
ونجد الشاعر : حُطَاطَنَ بنَ يَغْفُرَ النَّهشَلِي يَرِدُ عَلَى زَوْجَهُ التَّى زَعَمَتْ
أَنَّ جُودَهُ أَهْلَكَهُمْ بِقَلْبِهِمْ :

أريني جواداً مات هزاً لعلنى أرى ما ترنس أو خيلاً مُخلداً
وها هي زوجة معاوية بن مالك العامرى تتهى زوجها بالسفه
والضلال لما رأت الناس يقصدونه فقال لها : ليكن عمل ضلالاً فسأفعله
دائماً لأنّه عادة لي^(٣) :

قالت سمية :

قد غويت بأن رأت حفأ تناوب مالنا ووفود
غئي لعمرك لا أزال أعوده ما دام مال عندنا موجود

(١) الديوان : ص ٤٤ ط بيروت ١٩٦٣

(٢) الحماسة تحقيق العسيلان : ٢/٣٥٧

(٣) المفضليات : رقم (٤٠٤) ص ٣٥٦

والمرأة عادة تعجب بالمال ينثر بين يديها ، وتسر لذلك من زوجها
فتعانقه وتغدقه ، وهذا ما يصوره أحيحة بن الجراح ، عندما يرد على
زوجته ، من أن الشهوات تتطلب بذل المال ، ولا قيمة للثراء إذا لم يُبذل في
المعروف^(١) :

إذا ما جئتها قد بعثت عَذْقاً
تعانق أو تقبل أو تفدى
أهنت المال في الشهوات حتى
أصارتني أسيفاً عَبْدَ عبدِ
فمن نال الغنى فليصطنعه ضياعه ويجهد كل جهداً

(١) الأصمعيات : رقم (٣٢) .

الإسلام والكرم

عرفنا أن الكرم خلق أصيل تجلّى عند العرب في مظاهر مختلفة ، وبدوافع متباعدة ، مثل التعلق بحسن الأحداث ، وأنه وسيلة من وسائل السيادة ، إلى أن أصبح عندهم طبعاً ملزماً ملك عليهم نفوسهم ، واستهوى أفرادهم .

ثم جاء الإسلام فأقر هذا الخلق العظيم ، وشجع على البذل والسعاء ، إلا أنه جعل إخلاص النية لرب العالمين هي الدافع لهذا الخلق ، ترتفع بمنزلة العمل الدنيوي البحث ، ليصبح عبادة متقبلة . قال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُيُّبِهِ، مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ ^(١) إِنَّمَا تُطْعِمُكُمْ بِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ مِنْكُمْ حِزْلَةً وَلَا شُكُورًا ﴾ ^(٢))

وعاب القرآن من ينفق ماله رثاء الناس ، وهي عن المهن والأذى قال تعالى : ﴿ لَا يُنْبَطِلُوا صَدَقَاتُكُمْ بِالْمَنْ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ^(٣) .

فعلى قدر نقاط السريرة تكتب الحسنات - وحرارة الإخلاص إنما تنطفئ رويداً كلما هاجت في النفس نوازع الأثرة وحب الثناء

(١) سورة الإنسان : (٩-٨)

(٢) سورة البقرة : (٢٦٤)

والتطلع إلى الجاه وبعد العيش والرغبة في العلو والافتخار ، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى يحب العمل النقي من الشوائب المكدرة^(١) .

فالكرم صفة طيبة كانت في الجاهلية ، وارتضاها الإسلام بـ حـصـنـاً عـلـيـهـا ، ولكنها في الإسلام شيء مختلف في جوهره وإن تشابهت الصورة .

فعندما كانت في الجاهلية عند كثير من الناس رباء نـدـدـ بـهـ الإـسـلـامـ هـ كـالـذـىـ يـنـفـقـ مـالـهـ رـئـاءـ النـاسـ هـ . وأـرـادـ الإـنـفـاقـ الـخـالـصـ الـذـىـ يـرـادـ بـهـ وـجـهـ اللهـ وـلـيـسـ لـذـكـرـ الـذـىـ تـتـحـدـثـ بـهـ الرـكـبـانـ هـ إـنـاـ نـطـعـمـكـمـ لـوـجـهـ اللهـ هـ .

لقد غيرت العقيدة لدى المسلمين جوانب الحياة كلها .. لقد حصل التغير الهائل في نفوس الجيل الأول ، حتى لـكـأـنـاـ نـفـوـسـ جـدـيـدـةـ لـاـ عـهـدـ هـ بـهـ مـنـ قـبـلـ ...

وحتى الأشياء القليلة التي بقيت من حياة الجاهلية وارتضاها الإسلام ، لم تكن هي بحال تلك التي كانت في الجاهلية ، إنما أصبحت شيئاً مختلفاً تماماً في جوهره وإن تشابهت الصورة إنها شيء ولد ميلاً جداً في الإسلام^(٢) .

حت الإسلام على البذر ، إلا أنه نهى عن الإسراف والتبذير هـ وـمـاتـ ذـالـقـرـبـىـ حـقـهـ وـالـمـسـكـينـ وـابـنـ السـيـلـ وـلـأـبـذـرـ تـبـذـيرـاـ هـ إـنـ الـبـذـيرـنـ كـانـوـاـ إـخـوـنـ الشـيـطـيـنـ وـكـانـ الشـيـطـيـنـ لـرـبـهـ، كـفـورـاـ هـ .

(١) انظر خلق المسلم : الشيخ محمد الغزالى ص ١١١-١١٨

(٢) واقعنا المعاصر : الأستاذ محمد قطب ، ص ١٦٦-١٦٧

(٣) سورة الإسراء : (٢٦-٢٧)

ومن هنا كان توزيع حاتم الطائفي الإبل الثلاثمائة على الشعراء الثلاثة إسراهاً ونبذيراً ولا يعد في نظر الإسلام كرماً وجوداً.

كما أن الإسلام نفر من الشُّحْ وَكَنْزِ الْأَمْوَالِ ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الْأَذْهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُوهَا فِي سَبِيلٍ اللَّهُ أَفَبَشِّرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

فقد روى البخاري في صحيحه : « ... ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حفة إلا جاء كنزه يوم القيمة شجاعاً أقرع يتبعه فاتحاً فاه ، فإذا فرّ منه سمع من يناديه : خذ كنكز الذي خبأ ؟ فأنما عنه غنى ، فإذا رأى أنه لا بد له منه سلك يده في فمه فيقضيها قضم الفحل »^(١).

فهذه الأموال المستخفية في الخزائن ، المحتبسة فيها حق المسكين والبائس ، هي شر جسيم على صاحبها في الدنيا والآخرة ، إنها أشبه بالشعابين الكامنة في جحورها كأنها رصيد الأذى للناس ، بل إنها تحول إلى حيات فعلاً قد احتدت أنياها تطارد صاحبها لتقضيه يده التي غلبتها الشح^(٢).

إن الإسلام ينظر إلى المال على أنه وسيلة ، يقضى بها الإنسان حاجاته الأساسية ، ولا ينبغي التعلق به ليكون غاية بحد ذاته .

يقول الرسول ﷺ : « يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك إلا ما أكلت فانيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت »^(٣).

فالمسلم كريم النفس يؤثر إخوانه على نفسه ، ويقدم من كسبه الحلال الطيب إلى إخوته الأتقياء ، وهو بصير مواطن الكرم وداعيه ،

(١) سورة التوبه/آية ٣٤

(٢) آخر حديث البخاري في صحيحه .

(٣) حلق المسلم : الغزالى ص ٢٠٣

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم/٢٩٥٨ ، كتاب الزهد ، والترمذى/٢٣٤٢ ، والنمسانى/٦٢٢٨ ، والمسند/٤٢٤ ينظر شرح السنة ج ١٤/٢٥٨ .

لا يفرق أمواله تبذيراً على من لا يستحقونها ، ولا يختفي إلا بإخوانه وأصدقائه المؤمنين الأتقياء ، ولا يرضى أن يكون بقرة حلوياً لسفالة القوم من الملحدين الطغاة اتقاء شرّهم .

إن المسلم الوعي كريم ، وكرمه في محله ، ذلك أن الكرم خلق إسلامي أصيل يحمل صاحبه ويسمو به^(١) .

وهذا ما يصوره الحديث الشريف : « لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا ثقي »^(٢) .

إكرام الضيف في الإسلام

إكرام الضيف واجب شرعى ، وقد جعل الإسلام للضيافة آداباً رفيعة ، قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَكْرَمُ ضَيْفَهُ »^(٣) .

ومن الآداب التي علّمنا إياها هذا الدين العظيم اللباقة وتقدير حالة صاحب المنزل الضيف ، فلا نخرجه أبداً ، قال عليه الصلاة والسلام^(٤) : « لَا يَحِلُّ لِسَلْمٍ أَنْ يُقْيِمَ عِنْدَ أَخِيهِ حَتَّى يُؤْثِمَهُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يُؤْثِمُهُ ؟ قَالَ : يُقْيِمُ عِنْدَهُ وَلَا شَيْءَ لَهُ يُقْرِبُهُ بِهِ » « يُؤْثِمَهُ : يُوْقَعُهُ فِي الْأَثْمِ » .

(١) انظر شخصية المسلم : د. محمد علي اهاشمي ، ط ١٩٨٣ م ، الانحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، ص ٢١٣-٢١٤

(٢) رواه أبو داود والترمذى وأحمد والحديث حسن ينظر صحيح الجامع الصغير ص

١٤٢٦ ح ٢

(٣) صحيح البخارى : كتاب الأدب ، وفتح البارى . ١٤٤١/١٠

(٤) مسلم مع الترجم : ٣١/١٢

وقد أقر الإسلام فترة الضيافة - ثلاثة أيام - وقد كانت عند عرب الجاهلية هكذا وربط إكرام الضيف بالإيمان قال ﷺ : « من كان يؤمِّن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته ، قالوا : وما جائزته يا رسول الله ؟ قال : يومه وليلته ، والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه »^(١)

الجُود والعطاء عند سلف هذه الأمة

لقد ترجم الكرم في تعاليم هذا الدين إلى واقع عمل رفيع جُوداً وبذلاً كمن لا يخشى الفقر ، كيف لا ؟ وقد هانت الدنيا في نفوسهم ، فارتقت بهم إلى آفاق الإنسانية حضارة وعزّة .

وقد تمثل هذا الجود فيمن اصطفى الله من عباده كالنبيين والصديقين .

ومن طريف ما روی من قصة ضيف إبراهيم عليه السلام أنه « لما قرب إليهم العجل قالوا : إننا لا نأكل طعاماً إلا بشمنه . قال إبراهيم : إنه له ثمناً . قالوا : وما ثمنه ؟ قال تذكرون اسم الله على أوله ، وتحمدونه على آخره . قال : فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال : حق لهذا أن يتخدَّه ربُّه خليلاً »^(٢) .

وأما رسول الله ﷺ ، فقد كان أجود بالخير من الرمح المرسلة ، ولذا فقد انتقل إلى الرفيق الأعلى وما ترك ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ، ولا وليدة ، وترك درعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير »^(٣) .

(١) مسلم مع الشرح : ٢٠/٢

(٢) انظر : فتح الباري : كتاب أحاديث الأنبياء : ٤١١/٦ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١/٣٠٠ ، والبخاري باب بدء الوحى

وعن ابن عباس رضي الله عنهمما قال : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان .. وكان رسول الله أجود بالخير من الرسالة »^(١) .

وأخرج أحمد وأبو يعلى عن أم سلامة رضي الله عنها قالت : دخل على رسول الله ﷺ ، وهو ساهم الوجه ، فخشيته ذلك من وجع فقلت : يا رسول الله مالك ساهم الوجه ؟ فقال : « من أجل الدنانير السبعة التي أتينا بها أمس ، أمسينا وهي في حُصْم الفراش » . وفي رواية : « أتتنا ولم نتفقها »^(٢) .

وقد اقتدى الصحابة رضي الله عنهم برسول الله في جوده وسخائه ، وكان قد رغبهم في السخاء ، فكانوا يصدرون عن طبع أصيل وسجية محبة للخير ، لقد تمثلوا كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه ﷺ

قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيْبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾^(٣)

وقال تعالى : ﴿ لَئِنْ تَنَالُوا الْرِّحَانَ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾^(٤) .

وقال ﷺ : « ما تنقص صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بغير إلا عزّاً ، ومتواضع أحد الله إلا رفعه الله عز وجل »^(٥) .

ووجه رسول الله ﷺ أصحابه نحو البذل وأطعام وإطعام على من نعرف ومن لا نعرف فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهمما أن

(١) مسلم مع الشرح : ٦٨/١٥

(٢) قال أهيمي : رجاهما رجال الصحيح (٢٣٨/١٠) .

(٣) البقرة : ٢٦٧

(٤) آل عمران : ٩٢ .

(٥) رواه مسلم : باب النهي عن البخل والشح (٢٥٨٨) .

رجلًا سأله رسول الله ﷺ : « أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ » قال : « تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ »^(١) .

وكان من أثر هذه التوجيهات ، ومن جود رسول الله ﷺ ، أن تسابق الصحابة في البذل ابتعاده مرضاه الله ، نحو الوالدين والأقربين ثم الجيران ، نحو الناس جميعاً .

أخرج أبو داود والترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن تصدق ، ووافق ذلك مالاً عندي فقلت : اليوم أسبق أبا بكر رضى الله عنه « إن سقته يوماً^(٢) ، فجئت بنصف مالى ، فقال رسول الله : « ما أبقيت لأهلك؟ » قلت : أبقيت لهم ، قال : « ما أبقيت لهم؟ » قلت مثله .

وأنى أبو بكر بكل ما عنده . فقال : « يا أبا بكر ما أبقيت إلى أهلك؟ » قال أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : لا أسبقه إلى شيء أبداً^(٣) هكذا كان التسابق عند سلف هذه الأمة ، وإلى هذه الآفاق كان صحابة رسول الله يتطلعون .

أما اليوم فقد أصبح التسابق نحو زيادة التثمير في الأموال والعقارات فالكل يلهث ويجمع ويطلب المزيد ، إلا من رحم الله ، حتى أصبحت الوسيلة غاية ، ونسى كثير من المسلمين الغاية التي خلقوا من أجلها ، وهي عمارة الأرض على أساس الخلافة الراشدة ، ومنهج النبوة .

(١) رواه البخارى : (٥٢/١)، و مسلم : (٣٩) .

(٢) أى إن استطعت أن أسبقه في يوم من الأيام فهو هذا .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذى وقال : حسن صحيح ، منتخب الكنز ، (وانظر الفضة في حياة الصحابة : ٢/١٥٠، ٤/٣٤٧) .

نماذج من بذل الصحابة^(١) «رضي الله عنهم»

لقد ضرب الصحابة المثل الأعلى في البذل والسخاء ابتعاء وجه الله ، وكتب السيرة والتاريخ مليئة بالنماذج الفريدة وسأذكر بعض هذه النماذج ، كشواهد توضح ما نحن بصدده .

أخرج أبو نعيم في العلية ، عن نافع قال : كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قربه لربه عز وجل .

وقال نافع : فلقدرأينا ذات غشية ، وراح ابن عمر على نجيب له قد أخذه بمال عظيم ، فلما أعجبه سيره أناخه مكانه ثم نزل عنه . وقال يا نافع : انزعوا زمامه ورحله ، وجللوه وأشعروه وأدخلوه في البدن .

وأخرج الشیخان عن أنس رضي الله عنه ، وقد تصدق أبو طلحة رضي الله عنه بعين بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء ، وكان رسول الله عليه السلام يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب .

« قال أنس : فلما نزلت هذه الآية : ﴿لَمْ تَنالُوا الْبَرَ حَتَّىٰ تَنفَقُوا مَا تَحْبُونَ﴾ . قام أبو طلحة إلى رسول الله عليه السلام فقال : يا رسول الله ، وذكر الآية ثم قال : وإن أحب أموالي إلى بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها

(١) انظر بحثاً مفصلاً عن بذل الصحابة في : حياة الصحابة : ١٥٦/٢ وما بعدها -

الشيخ محمد يوسف الكاندلسي ، ط ٣ ، دار العلم ١٤٠٥ هـ .

(٢) الخلية : لأبي نعيم ، ٢٩٤/١ ، « والنجيب من الإبل : القوى السريع » .

وَذُخْرُهَا عِنْدَ اللَّهِ ، فَضَعَفَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ . قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : « بَعْ ! ذَلِكَ مَالٌ زَابَحٌ ! ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ !... »^(١) .

وقد جاء زيد بن ثابت رضي الله عنه عندما نزلت هذه الآية ﴿ لَن تَنالوا الْبَرَ حَتَّى تَنفَعُوا مَا تَحْبُوبُ ﴾ إلى رسول الله يفرس له يقال لها : « شِبْلَةً » ، لم يكن له مال أحب إليه منها فقال : هي صدقة ، فقبلها رسول الله عليه صَلَوةُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ ، وحمل عليها ابنه أسامة رضي الله عنهما ، فرأى رسول الله ذلك في وجه زيد فقال : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَبَلَهَا مِنْكَ »^(٢) .

هكذا كانت التربية النبوية ، وقد أثمرت تربية دار الأرقام في بذل لا نظير له ، بل يتضاءل أمامه بذل وكرم أهل الجاهلية مع اختلاف المقاصد والأهداف .

صار أحدهم لا يهدأ له بال إذا اجتمع لديه مال لم يفرقه بعد .

فطلحة الفياض اجتمع لديه مال فغمّه حتى استغرقت زوجته منه ثقله فقالت له : وما يغمرك منه ؟ ! ادع قومك فاقسمه بينهم ، وكان ما قسمه بين قومه مائة ألف^(٣) .

نماذج رائعة نجدها كلما قلبنا صفحات التاريخ لنطلع على أربعين سيرة سلف هذه الأمة .

أخرج ابن سعد عن أم درّة (خادمة السيدة عائشة) قالت : أتيت عائشة بمائة ألف ففرقتها وهي يومئذ صائمة : فقلت لها : أما استطعت فيما

(١) الترغيب والترهيب . ١٤٠/٢ - رواه الشیخان

(٢) الدر المنشور . ٥٠/٢ ، وحياة الصحابة : ١٥٨/٢

(٣) الترغيب والترهيب : ١٧٦/٢ ، وقال الم testimي : ١٤٨/٩ رجاله ثقات وأخر جه ابن سعد : ١٥٧/٣

أنفقت أن تسترى بدرهم لِحُمَّا تفطرين عليه؟ فقلت: لو كنْتَ أذكُرْتَنِي لفعلت^(١).

لقد نسيت السيدة عائشة نفسها وهي صائمة، تعلقاً بحب الخير والسخاء الذي كان سجية وطبيعة عندها.

ولا عجب فإن لأصحاب رسول الله أسوة بسيد المسلمين. عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ قال: «لو كان لي مثل أحد ذهباً نسرني أن لا يمر على ثلات وعندي منه شيء، إلا شيء أرصده ل الدين». صحيح الجامع الصغير: ٩٣٦/٢٣.

ولا نسى المجتمع الوليد في المدينة المنورة حيث آوى الأنصار المهاجرين، وأكرموهم، ففي جو من التآخي والإيثار لم تستطع البشرية أن تقترب من مستوى ذلك التاريخ قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُونَ الْأَدَارَةَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَحِدُّونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْكَانَ لَهُمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شَعْرَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سورة الحشر: ٩.

«وستبقى صورة الأنصار الوضيئة في القرآن الكريم منار هداية وإشعاع للإنسانية الضاربة في تيه المطامع والأثرة والشح والإمساك، ما أقبل ليل وأدبر نهار، ودعى الناس للبذل والسخاء والإيثار»^(٢).

والاليوم لينظر دعاة هذا الدين إلى هذه الماذج الوضيئة من الإيثار والسخاء والتآخي، ولينسجوا على منواهها، أو قريباً منها، إذا أرادوا

(١) الأصلة: ٤٦١/٤، وحياة الصحابة: ٢٣٤/٢.

(٢) شخصية المسلم: اهاشمي ص ٢٢٢.

لدعوتهم نجاحاً ، ولكلامهم وقعاً وتأثيراً ، وإلا فإن الشحاح بعيد عن الله والناس جميعاً . كان إنفاق السلف في العسر واليسر ، ومع الحاجة الملحّة .

الإنفاق مع الحاجة :

كان المسلمون يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ويذلون الشيء رغم حاجتهم إليه ، كان مجتمعهم مجتمع الإيثار والمحبة

وكان قدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ ، كان لا يسأل شيئاً فيمنعه . أخرج ابن جرير عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ببردة فقالت : يا رسول الله جئتك أكسوك هذه ، فأخذها رسول الله وكان محتاجاً إليها فلبسها ، فرأها عليه رجل من أصحابه فقال : يا رسول الله ما أحسنت هذه !! أكسنها ، فقال : « نعم » ، فلما قام رسول الله ﷺ ، لامه أصحابه وقالوا : ما أحسنت حين رأيت رسول الله أخذها محتاجاً إليها ، ثم سأله إياها ، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمنعه !! قال : والله ما حملني على ذلك إلا رجوت بركتها حين لبسها رسول الله ﷺ لعل أكفن فيها^(١) .

كان الإيثار أمراً واقعاً ، وإكرام الضيف رغم الحاجة أمراً عادياً قد لا يتصور في عصرنا هذا ، ولننظر إلى هذه الواقعة : عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رجلاً من الأنصار بات به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوته صبيانه ، فقال لأمرأته : نومي الصبية وأطفئي السراج وفرجي للضيف ما عندك .

قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ وَيُؤثِّرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانُوهُمْ خَاصَّةٌ ﴾^(٢) .

(١) كنز العمال : ٤٢/٤ ، وحياة الصحابة : ١٥٨/٢ - ١٥٩ .

(٢) مسلم مع الشرح : ١٤/١٣ .

كانت سيرة السلف الصالح تُرْجِعُهَا صادقاً لما ينزل من آيات القرآن الكريم ، إذما نزلت الآية الكريمة : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (البقرة : ٢٤٥) .

قال أبو الدَّخَدَاح رضى الله عنه : يا رسول الله ، قد أقرضت رفي حائطه - وحائطه فيه ست مائة خلقة -- فجاء يمشي حتى أتى الحائط ، وأم المدخداح فيه وعيالها ، فنادى يا أم الدخداح ، قالت : لَيْكَ قال : اخْرِجْي فقد أقرضته رَبِّي «^(١)» .

هكذا شمل البذر والسبخاء الجميع حتى النساء اللواتي من طبعهن جمع المال وحب الرفاه غالباً ، ارتفعن فوق جواذب الدنيا ، فامرأة طلحة بن عبيد الله تشجعه على تفريق المال على قومه ، والسيدة عائشة لا تبقى لنفسها درهماً تشتري به إفطاراً لها ، وها هي زوجة أبي الدخداح تعين زوجها على الخير والعطاء وتخرج وعيالها من بستان ظليل فيه مئات النخيل المثمر .

ألا ما أحوجنا إلى غرس هذه الفضائل في نفوس أبنائنا وبناتنا ، بل ما أحوجنا إلى أن سمو رجالاً ونساء فوق شهوات الدنيا ومطامعها ، لنعيد إلى أخلاق السلف سيرتها الناصعة .

أما الإنفاق في طريق الجهاد ^(٢) .

فقد ساهم فيه أصحاب رسول الله ﷺ ، وجهزوا المجاهدين بكل ما يستطيعون ، وختار بعض الماذج للبيان وحسن الاقداء .

حمل أبو بكر رضى الله عنه ما له كله حين هاجر مع رسول الله ﷺ ، وهو خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، كما أنه أعطى ماله +

(١) رواه أبو يعلى والطبراني ، وقال الهيثمي : ٣٢٤ / ٩ رجالها ثقات ، ورجال أى بعل رجال الصحيح .

(٢) انظر تفصيلاً لذلك : حياة الصحابة : الجزء الثاني من : (ص ١٦٣ وما بعدها) .

أربعة آلاف درهم في عزوة تبوك - كما أن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، كان قد جهز ثلاثة مائة بعير بأحلاسها واقتابها في جيش العُشرة وقال الرسول عليه السلام : « ما على عثمان ما عمل بعد هذا »^(١)

وفد أتفق عبد الرحمن بن عفان رضي الله عنه سبعمائة بعير بأقتابها وأحلاسها في سبيل الله ، وهي عبقر قدمت من الشام ، وغيرها كثير كتصدقه في عزوة تبوك بما تبقى أوقية من الذهب .

والنماذج كثيرة ، وكتب الحديث والمسندة ملوءة بهذا النوع من السخاء في سبيل الله : أجواد الحجاز^(٢) :

إن كان لدى العرب في الجاهلية أجواد كرماء ، فقد ظهر من أهل انقرون الثلاثة الأولى بعد ظهور الإسلام ، منْ أنسى ذكر كعب بن مامدة وابن سعدي وحاتم الطائي .

قال ابن عبد ربه في العقد الفريد : أجواد الحجاز ثلاثة كانوا في عصر واحد ، هم عبيد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص . فمن جود عبيد الله بن عباس : أنه أول من فطر حيرانه وأول من وضع الموارد على الطريق .

ومن جوده : أنه أتاه رجل وهو بفناء داره فقال : يا ابن عباس ، إنَّ لي عندك يداً وقد احتجت إليها .. ثم قال : ما يدك عندنا ؟ قال : رأيتك واقفاً بزمزم وغلامك يمتع لك من مائتها ، والشمس قد صهرتك فظللتك

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والبيهقي والحديث ضعيف كا ورد في فضائل الصحابة ١٢ / ص ٥٠٤ / للإمام أحمد بن حنبل .

(٢) انظر : بلوع الأرب : الآلوسي ، (٩٤-٩٩) / (١).

بطرف كسائي حتى شربت . قال : إن لأذكر ذلك ، وأنه يتردد بين خاطرى وفكري ثم قال لقيمه ما عندك ؟ قال : مائتا دينار وعشرة ألف درهم قال : ادفعها إليه وما أراها تفني بحق يده عندنا .

مكذا يأتى كرم عَبْيَدُ اللهِ الأصيل إلا رد الجميل ، وهو خلق إسلامي نبيل ، لأن الجحود ونكران الجميل عقوبة أليم ، ولعله أصبح من سمات هذا العصر .

ومن جوده أيضاً : أن الحسين بن علي رضي الله عنهما ، كان قد حُبس عنده عطاوه ، حتى ضاقت عليه حاله ، فوجه كتاباً لابن عمه عبيد الله بن العباس رضي الله عنهما ، فتأثر تأثراً شديداً ثم أرسل إليه نصف ما يملك من ذهب وثوب ودابة .

قال الحسين : إنما الله .. حملت والله على ابن عمى .. معا حسبته يتسع لنا بهذا كله ، فأخذ الشطر من ماله وهو أول من فعل ذلك في الإسلام .

وأخبار كرمه كثيرة اقتصرت منها على ما ذكرت لأن المقام لا يتسع لأكثر من ذلك .

ثم ذكر صاحب العقد الفريد نبذة من أخبار جود عبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص ، وغيرهما وأقى من ذلك بما يستغرب ولا عجب فإن لهم أسوة بسيد المرسلين محمد ﷺ .

وهو القائل : « ما من يوم يصبح العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أُغِطْ مُنْفَقاً خَلْفَاً ، ويقول الآخر : اللهم أُغِطْ مُنْسِكاً ثَلَفاً »^(١) .

(١) متفق عليه : أخرجه البخاري : ٢٤١/٣ ، ومسلم : ١٠١٠

لقد دعا الإسلام إلى التوسط في الأمور كلها ، وخير الأمور أوسطها ، « فالجود له حدٌ بين طرفين فمتي جاوز حدَه صار إسراها وتبذيرًا ، ومتي نقص عنه كان بخلًا وتفتيرًا »^(١) .

وَحَذَرَ هَذَا الدِّينُ مِنِ الْبَخْلِ لَأَنَّهُ يَقْطَعُ الْأَوَاصِرَ وَيَحْبِطُ الْأَعْمَالَ ،
وَلَا يُورِثُ إِلَّا التَّبَاغُضَ وَالتَّحَاسِدَ .

فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيمة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلكت من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »^(٢) .

والشجاع مرض والحسد شرّ من البخل ، وذلك أن البخيل يمنع نفسه والحسود يذكره نعمة الله على عباده .. قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقِنْ شَجَاعَةَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وكان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يكثر من الدعاء في طوافه
فيقول : اللهم فني شح نفسي ، فقال له رجل : ما أكثر ما تدعوا بهذا !
فقال : إذا وُقيت شح نفسي ، وقِيت الشح والظلم والقطيعة ، والحسد
يوجب الظلم «^(٣)» .

(١) الفوائد : ابن القم الجوزية ، ط : أولى ١٤٠٠ م - المطبعة القيمة .

(٢) رواه مسلم : « كتاب البر والصلة برقى ٢٥٧٨ »

(٣) الفتوى : لابن تيمية ، ج ١٠/١٢٨-١٢٩

نَدَدَ الْإِسْلَامُ بِالْبَخْلِ ، وَهَذَدَ الْبَخْلُ بِأَنَّ مَا كَنْزُوهُ سِيَطُوقُونَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارًا - لَقَدْ بَخْلُوا بِالْقَلِيلِ ، وَحَسِبُوا أَنَّ كَنْزَهُ خَيْرٌ لَهُمْ وَهُوَ شَرٌ فَظِيعٌ وَهُوَ بَعْدُ هَذَا كُلُّهُ ذَاهِبٌ وَتَارِكُوهُ وَرَاءَهُمْ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَحْسَبُنَّ أَذِلِّيْنَ يَبْخَلُوْنَ بِمَا أَنْتُمْ لَهُم مِنْ فَضْلِهِ، هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ بَلْ هُوَ سُرُّ لَهُمْ سَيِّطُوقُونَ مَا بَخَلُوْا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾^(١) .

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « شَرُّ مَا فِي الْمَرْءِ : شَحٌّ هَالِعٌ وَجُنُّ خَالِعٌ »^(٢) .

ظاهره الشح في الحضارة الحديثة :

من خلال ما سبق تبين لنا أن الكرم خلق عرى أصيل وصفة طيبة من صفات المؤمنين .. إلا أن الناس في هذا العصر ابتعدوا - إلا من رَحِيمِ اللهِ - عن أصالة العرب ، وأخلاق السلف الصالح .. لأن الحضارة الوافدة غيرت لدينا القيم والمفاهيم « فأصبح الإنسان في الحضارة المادية لا يهتم إلا بمصلحته الشخصية ، فإذا هو يعاني خواءً روحيًا وجفافًا عاطفيًا تتع عندهما شعور عميق بالحرمان من الصدقة والأصدقاء المخلصين وما حفاوته باقتناه الكلاب ، وإقباله على تدليلها والعناية بها إلا تعويض عما فقد من روى العاطفة الإنسانية الذي جففته في نفسه الفلسفة المادية .. »^(٣) .

لقد غابت التضحيات عن الأذهان ، وابتعد الإيثار عن النفوس سواء بين الجيران أو الأهل والأقارب .

(١) آل عمران / ١٨٠ ، وانظر تفسيرها في ظلال القرآن : ٥٣٧/١ .

(٢) رواه أبو داود : ٣٦/٣ ، كتاب الجهاد ، رقم (٢٥١١) والأمام أحمد في مستنه :

٣٠٢/٢ وهو صحيح : انظر صحيح الجامع الصغير ، م / ١ ص ٦٩١ .

(٣) شخصية المسلم : الماشي ص ٢١٥ .

ففي بلادنا المسلمة عندما غزتها لوثة المدنية الحديثة صار أكثر الناس يلهثون .. ولسان الحال يقول : اللهم نفسي .. نفسي ، فالأنانية طاغية ، والتبّر والضيق باديان ، حتى أصبحا من أبرز علامات هذه الحضارة .. رغم كثرة الأموال المتدايق ، لكنه الهلع من شبع الفقر ، وفوات اقتناص الملذات إلا من رحم الله .

وما نراه في الحفلات العامة ، والمناسبات السارة أو الحزينة في المآتم ، ما هو إلا تبذير وإسراف لا يقصد به غالباً إلا الرياء والسمعة حيث تلقى الأطعمة في صناديق القمامات وتتفق الآلاف بغير طائل .

أما البذل والجود من أجل الجهاد في سبيل الله ، أو إيواء المحتاجين ، وإكرام الضيوف ، أو إنشاء المؤسسات الخيرية فقد أصبح نادراً مع الأسف .

فما أحوجنا إلى تطبيق هذا الْخُلُق العظيم ، خلق الجود والسخاء بلا سرف ولا خيلاء ، ما أحوج الجائعين في الأكواخ الفقيرة ، والقرى المعوزة ، وآلاف الذين يموتون جوعاً في بلاد الجفاف والأوبئة ، إلى أموال الموسرين ، تنقدهم مما هم فيه ومن اجتذاب المبشرين الذين ينشطون في تلك الديار ، يخربون عقائد المسلمين تحت ضغط لقمة الطعام ، أو حاجة الدواء . وإن النفس الشحيحة المجدبة لن يصدر عنها خير ولو ادعت أنها من خير الدعاة والمربين .

وما أحسنا من لفترة لو اتبهنا إلى غرس هذا الْخُلُق في نفوس الناشئة ، فالنفس التي تعتاد البذل ستكون بإذن الله نفسها خيره معطاء ، تهون الدنيا لديها فتشع الخير والنور على من حولها .

ولن ينجح دعاء هذا الدين في دعوتهم ، ما داموا يعيشون في قصورهم الفارهة وأثائهم الوثير ، معيشة المترفين ، والأيدي منقبضة بينما يعيش الناس من حولهم وهم يعانون الحاجة الملحة والضنك الشديد .

فالقدوة الطيبة لدى الداعية المسلم أساسية في دعوته ، ومهمة في أخلاقيات هذا الدين .. ويقى الانسجام بين القول والعمل منهجاً سليماً من مناهج سلف هذه الأمة إذ لا معنى للأخوة الحقة إذا لم تخرج من حيز النظرية إلى التطبيق ، وقد رأينا نموذج أخوة المهاجرين والأنصار ، ونماذج الجود الصادق لدى الرعيل الأول من سلف هذه الأمة .

لقد هاجمتنا أخلاق دخيلة منبته عن تقاليد العرب ، وبذل الصفة المسلمة ... ابتعدنا عن تراثنا حتى الجاهلي المقبول ، وعن ترفع المؤمنين الجادين الصادقين .

ولن ينقذ هذه الأمة إلا تربية متأنية تنقل أجيالها إلى ظلال الإسلام الوارفة من ساحة وبذل وعطاء ، وشجاعة وغيره ووفاء .

٢ - الشجاعة عند العرب

كانت الشجاعة عند العرب صنو الكرم في تعشقهم لها وافتخارهم بها - إنها إقدام في مواطن الإحجام ، وعدم المبالاة بالحياة ولا بالمات ... والعرب لم تزل رماحهم متشابكة وأعماهم في الحروب متهالكة ، وسيوفهم مقارعة ، قد رغبوا عن الحياة ، وطيب اللذات ... كانوا يتادرون بالموت ، ويتهاجون به على الفراش ويقولون فيه مات فلان حتف أنفه^(١) .

قال السموأل بن عادياء^(٢) :

و ما مات منا سيد حتف أنفه ولا طُلَّ منا حيث كان قتيلاً
تسيل على حد الظبات نفوسنا وليس على غير الظبات تسيل
لقد كانت الشجاعة مفخرة العرب .. سواء أكان غنياً أم فقيراً ذا قبيل
أم وحيداً ، وذلك أن أهل البدية متفردون عن المجتمع ، بعيدون عن
المخامية ، يعيشون في العراء غير محظيين بأسوار ولا جدران أو أبواب ،
يحملون السلاح دائماً ، ويتلقون عن كل جانب « فهم يتجاذبون عن
الجوع ، ويتوجسون للنبات والهبات ، وينفردون في البداء مدللين
بيأسهم ، واثقين بتفوسهم ، قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة
مجيبة »^(٣) .

إن الدفاع عن القبيلة وحماية ذمارها ومحارتها كان يفرض على العرب
أن يتعشقو الشجاعة والنجدة والفروسية .

(١) بلوغ الأربع ١٠٣-١٠٤ .

(٢) ديوان السموأل : ص ٩٠ / ط دار صادر - بيروت .

(٣) مقدمة ابن خلدون : ١٠٥ / ط الأزهرية بمصر .

وإن الصحراء ترثى في نفوس أبنائها صفات الشجاعة والجرأة والكبراء العنيدة ، كبراء الرجال الأحرار ، « وإذا تقصينا حياة العربى منذ طفولته أدركتنا أن الشجاعة ، ولدت معه وأنه شب وكبير وهى تمثلى فى دمه ، كيف لا وقد روى في بيته تمدح بالبطولة والإقدام وحسن البلاء فى حماية الدمار والأخذ بالثار ، وبالعدوان فى كثير من الأحيان ؛ وطالما فزع طفلاً على قعقة السلاح وصيحات المقاتلين ، وسع الأقاصيص عن شجعان من القبيلة حموا وردوا المغرين عليها ، أو هجموا على أخرى وأجلوها ، ثم شب فرأى الرماح تشتبك ، والسيوف تتقارع والأبطال في ميدان الوعى تتنازع ، ثم كبر فشارك في الواقع وأفنى العمر في المعارك فلا عجب أن كانت الشجاعة خلقتا عاماً عند العرب »^(١) .

إنها طبيعة الحياة العربية ، تلك التي تتطلب القوة والشجاعة والإقدام ، وركوب المخاطر ، والتجلد للمكاره والخطوب ، وقد دعاهم إلى ذلك طبيعة الحياة المضطربة القائمة على الغزو والغارقة والعداء فهم في حرب مضطربة الأوامر لا تكاد تخبو حتى يشب ضرائمها ويعزز هذه الحال ما روى عن عبد الملك بن مروان أنه سأله ابن مسطاع العنبرى : « أخبرنى عن مالك بن مسمع قال : لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه في أى شيء غضب »^(٢) وقد اختار الغالب منهم سكنى البوادى على الحضر لما كان فقد العز فيه ، والجبن إنما ينشأ من حب رغد العيش وطيب الحياة وعدم المبالاة بما يزرى بعلو الحساب وأين ذلك منهم ؟ ولقد كابد رسول الله ﷺ في تأليفهم واتحاد كلمتهم^(٣) فالشجاعة صفة أساسية يعتز بها العرب ، إلا أنها كانت - في مفهوم الجاهلية - تعنى الحمية ، تلك

(١) الحياة العربية في الشعر الجاهلي : الخوف ص ٣٢١ . ط ٥

(٢) (العقد الفريد لابن عبد ربه : ١٠٥/١ ، ط لجنة التأليف مترجمة والنشر بمصر .

(٣) بلوغ الأربع : ١٠٧/١

الحمية التي ندد بها الإسلام « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمَيَّةَ حَمَيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ »^(١) أما ما دعا إليه الإسلام فهو الجوهر الحقيقي للشجاعة - الشجاعة في الحق لا الحمية في الباطل ، والجهاد الخالص لالسمعة والرياء^(٢) تلك الحمية التي جعلت مائة ألف سيف تعجب لغضب رجل واحد ولا يسألونه في أى شيء غضب !!؟

« وللشجاعة حد إذا جاوزته صارت تهوراً ، متى نقصت عنه
صار جيناً وخوراً .

وَحْدَهَا الْإِقْدَامُ فِي مَوَاضِعِ الْإِحْجَامِ ، وَالْإِحْجَامُ فِي مَوَاضِعِ الْإِحْجَامِ ،
كَمَا قَالَ معاوِيَةُ لِعُمَرِ بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَعْيَانِي أَنْ أَعْرِفَ أَشْجَاعًا
أَنْتَ أُمُّ جَبَانًا ، تَقْدُمُ حَتَّى تَقُولَ مِنْ أَشْجَعِ النَّاسِ ، وَتَجْعَلُ حَتَّى تَقُولَ مِنْ
أَجْبَنِ النَّاسِ فَقَالَ :

شجاع إذا أمكتنى فرصةٌ فإن لم تكن لي فرصة فجبانٌ^(٣)
مظاهر الشجاعة^(٤)

كان للشجاعة عند العرب مظاهر متعددة ، برزت في شعرهم .

من تلك المظاهر : **الأنفه وإباء الضمير** ، يقول عترة^(٥) :

لا تسقني ماء الحياة بذلة
ماء الحياة بذلة كجهنم
نفور من حياة الذل

(١) سورة الفتح : ٢٦

(٢) واقعنا المعاصر : الأستاذ محمد قطب ص ١٦٧ .

(٣) الفوائد لابن القم رحمه الله : ص ١٣٨ .

^(٤) انظر رسالة المعتقدات والقيم ، والحياة العربية .

(٥) ديوان عترة: ص ١٢٠، شرح الأستاذ عبد المنعم شلبي وشرح المعلقات

للتبریزی : ص ۲۳۶

وانظر إلى قوله في مجال الإقدام الذي لا يدنى الأجل عنده ، وإنما هو الحياة ، حياة الفتورة والمجده :

بكرت تخوفنى الخسوف كأنتى .
 فأجبتها إن المنية منهـل
 فاقنى حياءك - لا أبالـك وأعلمـى
 ومن شعره المشهور قوله :
 أثـنى علىـها علمـت فإـنـى
 فإذا ظـلمـت فإـنـا ظـلـمـى باـسـل
 لقد نـفـرـتـمـنـ الـظـلـمـ وـاستـمـاتـواـ فـسبـيلـ الدـفـاعـ عنـ شـرفـهمـ .
 أـصـبـحـتـ عنـ غـرضـ الـخـتـوفـ بـعـزـلـ
 لـابـدـ أنـ أـسـقـىـ بـكـأسـ المـهـلـ
 أـنـ اـمـرـؤـ سـأـمـوـتـ إـنـ لـمـ أـقـلـ

يقول الحصين بن الجمام المري^(١):

تأخرت أستيقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقارب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدّما
ويعتبر من الشجاعة عند العرب : الصبر بمختلف ألوانه الصبر على
الجوع والعطش ، والصبر على قطع المفازات واقتحام الصحراء ، والصبر
على مقارعة الفرسان في المعارك .

ولذلك ما كانت النساء لتنوح على قتيل في الحرب لأن قتله يعتبر شرفاً ومجداً ، ولأنهنّ تعودنّ أن يفقدن الأعزاء في الحروب .

(١) شرح الحماة لأبي تمام : تحقيق العيلان : ١١٤/١ رقم (٤١) .

يقول عمرو بن كلثوم^(١) :

معاذ الإله أن تنوح نساؤنا على هالك أو أن تصبح من القتلى
فقد كان من حامد القبيلة أن يكثر في الحروب قتلها ، لأن هذا دليلاً
على أنهم أفوا الحروب وأفهتم .

قال بشامة بن حزن النهشلي^(٢) :

إني لمن معاشر أفسى، أوائلهم . قول الكمة : ألا أين الحامونا
لو كان في الألف منا واحد فدعوا
منْ فارس؟ خالهم إيه يعنونا
ولا تراهم وإن جلت مصيّتهم مع البكاة على من مات ي يكونا
ومن مظاهر شجاعتهم : إجابة الصريح ، إذ لا يفعل ذلك إلا
الشجعان الأقوباء ، ولا يختلف عنه إلا المبلد الجبان يقول طرفة بن
العبد^(٣) :

إذا القوم قالوا من فتي خلت أنتي
وإن أذع للجلى أكن من حماتها
عُنيت فلم أكسأ ولم أتبلي
وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد
وكانوا يعتبرون حب المغامرة والترحال من مزايا الرجال الأشداء
الأبطال .

يقول التمر بن تولب^(٤) :

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة
إن الجلوس مع العيال قبيح
والفقر فيه مذلة ومهابة

(١) شرح الحماسة : رقم (١٦٢) - ٢٥٧/١ ، تحقيق العسيلان .

(٢) شرح الحماسة رقم (١٤) ، ص ٧٧ ، وبعضهم ينسبها إلى المُرقُش الأكبر .

(٣) شرح القصائد العشر : التبريزى ، ص ٩٦ وما بعدها .

(٤) الديوان : ص ٤٩ ، وينسب البيتان أيضاً لعروة بن الورد في ديوانه ص ٤٣ .

ومن مظاهر شجاعتهم إصرارهم على الأخذ بالثأر مهما كلف الأمر ، وقد بالغوا في ذلك كثيراً ، إلا أن هذا الأمر ما كان يمنعهم من أن يكرموا أسراهם شجاعة منهم وكرماً ، وأن يمنوا عليهم أحياناً .

وكثيراً ما يفتخر الأبطال والفرسان ببسالتهم أمام الزوجة أو الحبيبة ، ومن هذا القبيل قول عامر بن الطفيلي لزوجته :

طلقتِ إِنْ لَمْ تَسْأَلِي أَئِي فَارسٌ حَلِيلِكَ إِذَا لَاقَى صُدَاءً وَخَثْعَماً أَكْرَرْ عَلَيْهِمْ دَغْلِجاً وَلِبَانَهِ إِذَا مَا اشْتَكَى وَقَعَ الرَّمَاحُ تَخْمَحَماً^(١)

وقول عترة يخاطب ابنة عمها عبلة^(٢) :

هلا سألتِ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنْ كُنْتِ جَاهِلَةَ بِمَا لَمْ تَعْلَمِي يَخْبُرَكِ مِنْ شَهْدِ الْوَقِيعَةِ أَنِّي أَغْشَى الْوَغَى وَأَعْفُ عَنِ الْمَغْنِمِ وَقَدْ ضُرِبَتِ الْأَمْثَالُ بَعْدَ مِنْ الْأَبْطَالِ ، وَشَاعَ ذِكْرُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ كَخَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ بْنِ كَلَابٍ ، وَرَبِيعَةَ بْنِ مَكْدُمٍ ، وَعُتْرَةَ الْعَبْسِيِّ ، وَعَامِرَ بْنَ الطَّفْلِيِّ ، وَعُمَرَوْ بْنَ كَلْثُومٍ وَغَيْرَهُمْ مَنْ لَا يَسْعُ الْمَحَالُ لِذِكْرِهِمْ^(٣) .

الجبن والفرار في المعركة^(٤) :

لقد سجل الشعر الجاهلي شجاعة الشجعان ، وفي حالات أخرى سجل اعتراف الشاعر بجهنه أو جبن حلفائه أو عشيرته ، ونشير إلى هذه الناحية إيكالاً لصورة الشجاعة عند العرب .

(١) *الحماسة* : ت العسليان برقم (٢٧) ، و *التحمم* : التصويب دون الصنبيل - بيان الحسان : صدره .

(٢) *القصائد العشر* : التبريزى - ص ٢٣٦ وما بعدها .

(٣) انظر تفصيلاً لذلك : *بلغ الأرب* ، ص ١١٨-١٢٢ الجزء الأول .

(٤) انظر : *الحياة العربية للحقوق* - ص ٣٤٢ وما بعدها .

لأنه ليس كل عرق بشجاع في الضرورة ، وإنما طبيعة الحياة البشرية ، أن تتنازعها بواعث عدة وصفات شتى ولكل قاعدة شواد .

يقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي وهو من الشجعان المشهورين^(١) :

لها الله جرماً كلما ذر شارق وجوه كلاب هارشت فاز بأرَّت
ظلِّلت كأنى للرمائج دريشة أقاتل عن أبناء جرم وفترت
فلو أن قومي أنطقتني رماحهم نطبق ولكن الرماج أجرت
وذلك أن جرماً قتلت رجلاً وارتحلت إلى قوم الشاعر بني زيد ،
وتبعاً الشاعر وقومه لقتال بني الحارث خصوم جرم ثم فرت جرم وانهزمت
زيد ، فلام الشاعر هنا قومه ولام جرماً .

وقد صرخ كثير من الشعراء بفرارهم ، وتلمسوا المعاذير لنفسهم
ولا تهمنا هذه المعاذير ، وإنما يعنينا أنهم اعترفوا بالفرار ولم يكتموه .
فرَ ذات يوم أوس بن حُنْرُ من جموع بني عبس ، واعتذر بأنه لما
شهد الجموع خاف لأنهم شجعان ، ثم دافع عن نفسه بأن فراره اليوم لا
مرة فيه لأن شجاعته مشهورة وبلاعه محمود من قبل يقول^(٢) :

أجاعلة أم الحُصَيْن خزابية على فرارى إذا لقيت بني عبس
وليس الفرار اليوم عاراً على الفتى إذ جربت منه الشجاعة بالأمس

(١) شرح الحماسة : ت العسليان ، رقم ٩٨/١ رقم (٢٩) ، أزيارت : بعثات لقتال -
هارشت : احترشت .

(٢) ديوان أوس : ص ١٠ .

وفي يوم بدر فر الحارث بن هشام وترك أخاه أبا جهل يلاق حتفه ،
فغيره حسان بن ثابت رضي الله عنه بقصيدة طويلة منها^(١) :

إن كنت كاذبة الذى حدثنى فنجوت منجي الحارث بن هشام
ترك الأحبة لم يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام
وبنو أبيه ورهطه في معركة نصر الإله به ذوى الإسلام

فأصحابه الحارث بهذه العاذير ، (وكان ذلك قبل إسلامه)^(٢) :

الله يعلم ما تركت قائم
حتى علوا فرسى بأشرف مزبد
في مأزق والخيل لم تبتدد
وعلمت أنى إن أقاتل واحداً
فصدت عنهم والأحبة فيهم طمعاً لهم بعذاب يوم سرميد
والآمثلة كثيرة أكفى بهذا القدر ، لأننتقل إلى موقف الإسلام من
هذا الخلق الحميد ، خلق الشجاعة والرجولة .

الإسلام والشجاعة

الشجاعة ليست قوة البدن فقط ، فقد يكون الرجل قوى البدن ضعيف القلب ، وإنما هي قوة القلب وثباته ، فإن القتال مداره على قوة البدن وصنته للقتال ؛ وعلى قوة القلب وخبرته به ، والمحمود منها ما كان بعلم ومعرفة دون التهور الذي لا يفكر صاحبه ولا يميز بين المحمود والمذموم .

(١) ديوان حسان : ص ٢١٥ ، ط دار بيروت « الطمرة : الأنثى الوثابة من الخيل » .

(٢) حماسة ألى تمام : ت العسليان ، رقم (٣٧) ، ١٠٩/١ « أشرف مزید : دم أحمر

ولهذا كان القوى الشديد : هو الذى يملك نفسه عند الغضب ، حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح ، فاما المغلوب حين غضبه فليس هو شجاع ولا شديد^(١) .

فليس الشديد بالصرعة إنما الشديد هو الذى يملك نفسه عند الغضب ، هذا ما جاء به الإسلام ليخفف حدة الطيش والتهور عند أهل الجاهلية ، وليعلمهم ضبط النفس ، وينقل هذه الطاقات الشجاعة إلى إحقاق الحق ، ورد المظالم ونشر العدل ، بل إلى مقارعة أعداء الدين إلى الجهاد في سبيل الله ، بدلاً من ضياع القوى الجاهلية في الغزو والثار أو التسلط والعدوان .

فيينا كان الشاعر الجاهلي يقول^(٢) :

قليل غرار النوم أكبر منه دم الثأر أو يلقى كمياً مسفعاً
صار المسلم يقاتل في سبيل إعلاء كلمة الله ، وجنة عرضها
السموات والأرض ، ولسان حاله يقول ﴿وَعَجلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ
لِتَرْضِي﴾ . قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ أَشَرَّئَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفَسَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ يَا أَبْ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾^(٣) .

صار يقاتل لإنقاذ الضعفاء المظلومين في الأرض ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿وَمَا الْكُفَّارُ لَا نُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ النِّسَاءِ
وَالْوَلَدَيْنَ﴾ النساء : ٧٥ .

(١) كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ابن تيمية / دار المجتمع جدة .

(٢) تأبطة شرًا : شرح ديوان الحماسة للمرزوق ، ٤٩٢/٢ .

(٣) التربة : ١١١ .

ولِإعْلَاء كُلْمَةَ اللَّهِ : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَقًّا لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَلَا يَكُونَ الَّذِينُ لَهُوَ ﴾

البقرة : ١٩٣ .

فالشجاعة عنوان القوة ، وعليها مدار إعزاز الأمة ، ولذلك عدما الإسلام من أكرم الحصول ، وجعل من يتصرف بها الأحب إلى الله والأكرم عنده .

قال عليه الصلاة والسلام : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ... »^(١) .

إلا أن الشجاعة في الإسلام لن تكون للخيال والإعتماد بالقوة ولا للرياء ، وإنما جعلت مفضلا إذا أظهرت حقاً أو طمست باطلأ أمر الله بطبعه وإخفائه^(٢) إن كتاب الله يذكر القوة العاملة الفاضلة ، ويجدها ويحمل على الضعف والعجز

وي ينبغي أن نتذكر أن قوة الإيمان هي أفضل أنواع القوى لأنها هي التي تؤدي إلى مجموعة من الفضائل كالإخلاص وصدق الجهاد وصفاء النية ..

ويذكرنا القرآن في مواطن منه بأن قوة البغي والطغيان سيكون مصيرها الوبر والخسران ، وبذلك يقول تعالى في سورة التوبه :
كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ فُرَّجْ وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَأَسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا أَسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخَضْتُمْ كَالَّذِي خَاصَّهُ أُولَئِكَ حَيْطَتْ أَغْنَاثُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَدِيرُونَ ﴾ التوبه : ٦٩ .

(١) صحيح مسلم : كتاب الفدر ٤٥ / ٢٠٥ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٥٥ م .

(٢) انظر : رسالة المعتقدات والتقييم ، ص ٨٢٣ ، ٧٧٨ .

وفي سورة الروم : « أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنْقَهُمْ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا أَلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » سورة الروم : ٩ .

فالطريق إلى القوة يكون بالاستمداد من عون الله وقوته وإن من وسائل تحقيق القوة الحسية والروحية الابتعاد عن الرذائل والفواحش والإعتماد بالفضائل واجتناب ما يوهن حسَّ الإنسان أو نفسه من مسكر أو مخدر وما يضعف كيانه من ترف وإسراف ^(١) .

هذا هو الفرق بين قوة الجاهلية وبطشها في كل عصر وبين القوة الهادفة المنشورة ؛ والتي ترتبط بإحقاق الحق ، وإشاعة العدل والخير ، قوة منضبطة بمقاييس الشرع الحنيف ، لا خاضعة لنزوة طارئة ، أو طيش أحمق .

وقد ظهرت نماذج نادرة من شجاعة المسلمين :

إذ كانوا عند أوامر ربهم ، وعند حسن ظن نبيهم ﷺ فرفعوا هذا الدين رايته ، وكانوا في صبرهم وشجاعتهم مضرب الأمثال .

ولا غرابة فقدوتم المصطفى ﷺ ، إذ كان أشجع الشجعان ، أخرج الشيوخان ولللهذه لفظ لمسلم عن أنس رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله

(١) موسوعة أخلاق القرآن : ٢٥٦-٢٥٨ / ٢ ، الدكتور أحمد الشرباصي - دار إرائد العربي بيروت ، ١٤٠١ هـ .

راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأنى طلحة رضي الله عنه عُزِّى ،
وفي عنقه السيف وهو يقول : لم تراعوا لم تراعوا «^(١) .

ويوم حنين عندما انكشف المسلمون كان عليه عليه اللهم على بعلته البيضاء ،
وابن عمّه أبو سفيان بن الحارث أخذ بزمامها وهو يقول : أنا النبي لا
كذب ، أنا ابن عبد المطلب قال البراء بن عازب رضي الله عنه : ولقد كنا
إذا حمى البأس نتفى برسول الله عليه اللهم وإن الشجاع الذي يحاذى به^(٢) .

أما أصحاب رسول الله عليه اللهم فقد هانت الدنيا لديهم ، وتمتّوا
الشهادة ، فلما دنا المشركون في بدر من المسلمين قال عليه اللهم : « قوموا إلى
جنة عرضها السماوات والأرض ، قال عمر بن الخطّام الأنصاري رضي الله
عنه : يا رسول الله ، جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : نعم ..
وكان بيده تمرات يأكل منها ثم قال : لَئِنْ أَنَا حَيَّيْتُ حَتَّى آكُلَ تَمْرَاتِي هَذِهِ إِنَّا
حَيَاةً طَوِيلَةً ، فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتل حتى قُتل - رحمه
الله - »^(٣) .

وقد أخرج البخاري عن خالد بن الوليد - رضي الله عنه - قوله :
لقد دُقَ في يدي يوم مَؤْتَةٍ تَسْعَةَ أَسِيفٍ ، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية
« سيف عريض »^(٤) .

وكان أبو بكر رضي الله عنه قد عَرَضَ نفسه للخطر عند اهجرة بينما
كانت قريش تطارد رسول الله عليه اللهم ، وحين دفاعه عن رسول الله في
المسجد الحرام حتى أغمى عليه وهو يضرب ويُعذب .

(١) مسلم مع الشرح للنووى : ٦٧/١٥ .

(٢) حياة الصحابة : ٦١٠/٢ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه ، ورواه مسلم أيضاً في صحيحه ،
وانظر حياة الصحابة : ٤١٦/١ .

(٤) انظر الاستيعاب : ٤٠٨/١ .

وانظر إلى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أراد الهجرة وقد طاف باليت سبعاً وأتى حلق أشراف قريش ليقول : شاهت الوجه ، من أراد أن تشكله أمه ويؤتم ولده وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي ، فما نبعه منهم أحد^(١) .

أما على بن أبي طالب رضي الله عنه فقد كان من أشجع أصحاب رسول الله - وكلهم شجاع - بارز عمرو بن وُدَّ وكان أشهر الفرسان ولم يجرؤ أحد أن يخرج إلى مبارزته .. فقتله رضي الله عنه .. وكان شاباً صغيراً ، ثم قد مُرْحَب اليهودي في خير مبارزة وكان من أشهر الفرسان وكان من شجعان الصحابة المعدودين : طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وحمزة عم رسول الله وغيرهم كثير ... وقد ساهموا في نشر الدعوة الإسلامية في ربوع الجزيرة وأنحاء العالم خلال فترة وجيزة^(٢) لقد تخرج على منهج الإسلام قادة عظام خاضوا معارك فاصلة في تاريخ العالم ، فخالد بن الوليد بطل البرموك ، وسعد بطل القادسية ، وأبو عبيدة قائد الفتوح في الشام .. أخضعوا دولتي كسرى وقيصر ، من أجل إعلاء كلمة : لا إله إلا الله ، خفاقة ، ومن بعدها يتشر العدل والمساواة .

ومن شاء المزيد فليراجع كتب الفتوحات الإسلامية إذ سيجد ثماذج فريدة قلما يوجد لها نظير إلا في ظل هذا الدين الخالد .

واليوم : ما أحوجنا إلى الشجاعة الصادقة الجادة أفراداً وحكومات لنرفع ما ران على أمتنا من كابوس المحتلين في أرجاء العالم الإسلامي . ولنحرر النفوس من الذل الذي أحكمت قبضته بالكلمة الصادقة الجريئة ، وبذل المهج رخيصة في سبيل الله .

(١) انظر : منتخب كتز العمال : ٤/٣٨٧ ، والسيرات النبوية لابن هشام .

(٢) انظر حياة الصحابة : الجزء الأول فقيه تفصيل .

ما أحوجنا إلى أن نرى أجيال الإسلام على العزة والمنعة وإباء الضيم ..
و عند ذلك تخلص من الميوعة والترهل والتعلق بسفافس الأمور .

إن الهزيمة النفسية والعسكرية لدى أمتنا في هذا القرن تستدعي
عودة - جادة إلى تربية أجيال هذه الأمة على الرجلة والشجاعة ، بلا تهور
ولا طيش ، ولن ينقذ هذه الأمة مما ران عليها من ذل وتشريد وهلع إلا
الاعتماد على الله تعالى ، ثم بالتفكير الجاد في تغيير واقعنا المريض ، والعيش على
التقشف وحياة الجهاد والبذل والعطاء .

الجرأة في تبيان الحق :

ومن الشجاعة الجرأة في قول الحق ، والصدع به ، لإزالة المظالم
وبحضها .

وقد رَبَّ الْإِسْلَامَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى هَذَا الْخَلْقِ ، فَكَانَتْ مِنْهُمْ وَمِنْ عَلَمَائِهِمُ الْمُوَاقِفُ الرَّائِعَةُ ، إِذَا صَبَرَ هُؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ مَلَادَ الْأُمَّةِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ .. وَلِسَانُهَا الْمَعْبُرُ عَنْ تَطْلُعَاتِهَا .

وإن إهمال هذا الواجب يحبط بالأمة وسبب في عصب الله تعالى .

يقول جل من قائل : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِرَ وَأُبَدِّيَهُ أَنْجَبَنَا اللَّذِينَ يَنْهَا
عَنِ السُّوءِ وَأَخْذَنَا الَّذِينَ طَلَمُوا بَعْدَ أَبْيَامٍ بَشِّمِينِ بِمَا كَانُوا يَقْسِطُونَ » (١) .
بل إن العالم الرباني الذى ينصح الإمام الجائر ويردعه عن ظلمه ،
مكانته مكانة الشهيد إن قُتل .

قال عليه السلام : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى أمام ظالم فأمره ونهاه فقتلته » ^(٢).

^{١٦٥}) الأعراف : (آية)

٢) رواه الحاكم بسنده صحيح .

وقد فَهِمَ الحُكَّامُ الصالِحُونَ مِنْ سَلْفٍ هَذِهِ الْأُمَّةُ هَذَا الْحَقُّ وَآمَنُوا
بِهِ ، فَسَمِحُوا لِلْقِيَامِ بِهِ . بَلْ نَجَدُ مِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ بِنَفْسِهِ مِنَ الْأُمَّةِ أَنْ تَحْاسِبَ
عَلَى عَمَلِهِ إِنْ أَخْطَأَ

انظروا إِلَى خَلِيلَةِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَنِّي بَكَرَ الصَّدِيقَ إِذْ يَقُولُ عِنْدَمَا
يَوْمَ يَعْلَمُ بِالْخَلَافَةِ : « .. إِنْ أَحْسَنْتُ فَأُعْيَنُ فِي وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوْمُونِي . أَطْبِعُونِي مَا
أَطْعَتَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِيكُمْ ». .

هَذَا وَإِنْ مَحَاسِبُ الْحُكَّامِ بِالْإِنْكَارِ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الْمُخَالِفَةُ لِلشَّرْعِ لَا تَعْنِي
الْإِسَاءَةَ إِلَى أَشْخَاصِهِمْ ، لَأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ مُعَرَّضٌ لِلْخَطَا ..
وَأَنْسَعِيدَ مِنْ وَعْظٍ فَاتَّعِظَ .

وَفِي سِيرَةِ عَلَمَائِنَا صَفَحَاتٌ مُضِيَّةٌ فِي نَصْحِ الْأُمَّةِ نَذَكِرُ مِنْهَا بَعْضَ
الثَّمَادِيجِ لِتَكُونَ نِيَرَاسًا لِلْعُلَمَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَرِجَالَاهَا لِيَتَضَعَّ الْحَقُّ ، وَتَسُودَ
بَطَانَةُ الْخَيْرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ .

وَذَلِكَ مَا فَعَلَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحْمَةُ اللَّهِ عِنْدَمَا يَوْمَ يَعْلَمُ بِالْخَلَافَةِ إِذْ
دَعَا ثَلَاثَةَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الصَّالِحِينَ وَهُمْ : (مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ ، وَرَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ ،
وَسَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ) وَجَعَلُوهُمْ مُسْتَشِارِيهِ ، وَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِتَقْوَىِ اللَّهِ ، وَبِمَا
يَصْلِحُ حَالَهُ وَحَالَ الرُّعْيَةِ^(١) .

وَمِنَ الْمَوَاقِفِ الْجَرِيَّةِ مَا فَعَلَهُ شِيخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تِيمِيَّةَ رَحْمَةُ اللَّهِ مَعَ
قَازَانَ مَلِكِ التَّتَارِ .

وَرَدَتِ الْأَنبِيَاءُ فِي أَوَّلِهِنَّ سَنَةُ ٦٩٨ هـ بِزَحْفٍ قَازَانَ مَلِكَ التَّتَارِ عَلَى
رَأْسِ جَيْشِهِ خَوْ حَلَب .. وَكَانَ قَدْ نَزَعَ أَعْيَانُ دَمْشِقَ إِلَى مَصْرَ حَتَّى خَلَتْ
دَمْشِقُ مِنْ حَاكِمٍ أَوْ أَمِيرٍ أَوْ أَعْيَانِ الْبَلَادِ ، وَلَكِنْ شِيخُ الْإِسْلَامِ بَقِيَ صَامِدًا

(١) انظر كتاب : الإسلام بين العلماء والحكام، عبد العزيز البدرى ، منشورات المكتبة
العلمية - المدينة المنورة ١٩٨٠ م .

مع عامة الناس ، واجتمع مع من بقى من الأعيان واتفق معهم على تولى الأمور ، وأن يذهب على رأس وفد من الشام لمقابلة قازان ، وقابله في بلدة النبك ودارت بينهما مناقشة عنيفة ، وكلم الشيخ الملك كلاماً قوياً .

وما قاله لقازان : أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا ، فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟ وأبوك وجدك كانوا كافرين ، وما غزوا بلاد المسلمين بعد أن عاهدونا ، وأنت عاهدت فدررت ، وقلتَ فما وفيت^(١) .

وجرت بين الشيخ وبين الملك أمور صدع فيها ابن تيمية بالحق ولم يخش إلا الله عز وجل ، وأفرج عن الأسرى بسبب هذا الموقف .

ثم قرب قازان إلى الوفد طعاماً فأكلوا إلا ابن تيمية فقيل له : ألا تأكل ؟ فقال : كيف أكل من طعامكم وكله مما نهيت من أغذام الناس وطبختموه بما قطعتم منأشجار الناس ؟

ولما علم قازان بحال ابن تيمية ، احترمه وطلب منه الدعاء^(٢) .

بمثل هذه المواقف كانت تنجو الأمة من محنها ، وهي جرأة عجيبة ، وإيمان عميق لا يهاب صاحبه إلا الله .

لقد أنقذ ابن تيمية رحمه الله بحسن تدبيره وثبات جنانه أهل الشام من أزمة شديدة وضياع وفراغ غريبيين ، ويکثر في تاريخ هذه الأمة الأبطال المتجرون دون الله وكان سلطان العلماء في زمانه ، جولات وجولات مع سلاطين عصره .

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير : ٧١٨/١٤ .

(٢) انظر مختصر منهاج السنة للذهبي : ص ٢٣٢

كان العز بن عبد السلام قد تولى خطابة جامع دمشق من قبل الملك الصالح إسماعيل في ربيع سنة (٦٣٧ هـ) . ثم عُزل من هذا المنصب بعد عام إثر خطبة ألقاها الشيخ من منبر ذلك المسجد يوم الجمعة ، إذ حاسب فيها الملك على خيانته الشهيرة مع الصليبيين .

يدرك المؤرخون أن الملك إسماعيل خاف من نجم الدين ابن أيوب حاكم مصر ، فتحالف مع الأفرنج الصليبيين ، ليساعدوه على نجم الدين - وسلم إليهم لقاء هذه المساعدة بعض القلاع والواقع المهمة ، وأذن للفرنجة في دخول دمشق وشراء السلاح .. كان موضوع الخطبة حول هذه الخيانة ، ثم قطع من الخطبة الدعاء للملك .

وكان إسماعيل غائباً عن دمشق فأخبر بذلك فعزل الشيخ ومنعه من الفتوى ، وأمر بسجنه ثم أفرج عنه .

ثم ارتحل العز بن عبد السلام إلى مصر ، ويدرك السبكي في طبقاته ، أن الشيخ طلع إلى السلطان ، في يوم عبد ، وهو ؛ القلعة في القاهرة ، وشاهد العسكر مصطفين بين يديه ، ثم التفت إلى السلطان وهو في سلطان وأبهة حكمه وناداه : يا أيوب ، ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوئك ملك مصر ثم تبيع الخمور ؟ فقال : هل جرى هذا ؟ فقال الشيخ : نعم . الحانة الفلانية ، تباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات : فقال : يا شيخنا ، هذا من أيام أني . فقال الشيخ : أنت من الذين يقولون : إننا وجدنا آباءنا على أمة وقد أمر السلطان بإيقاف الحانة على الفور (١) .

هكذا أمر الشيخ بالمعروف فأزال المنكر ، ونصح الملك في دمشق وشهر بسياسته ، ولو نفى من موطنه .

(١) طبقات السبكي .

أما مواقف المنذر بن سعيد ، فلا يُقل عن المواقف السابقة جرأة وشجاعة وإخلاصاً .

لما بني الخليفة عبد الرحمن الناصر عمارة الزهراء وقصورها وأنفق على بنائها وزخرفها ما أنفق .. حتى شغله هذا الأمر عن شهود صلاة الجمعة إحدى المرات وكان المنذر يتولى خطبة الجمعة والقضاء آنذاك ورأى أن ينصح الخليفة ، ويحاسبه على ملأ من الناس وابتدا خطبته بقوله تعالى : **﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةٌ تَعْبُثُونَ ، وَتَتَخَذُونَ مَصَانِعَ لِعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَارِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهُ وَأَطِيعُونَ .. ﴾** ^(١) .

ومن ثم ذم الإسراف بكلام جزل قوى ، وعلم الخليفة أنه المقصود ، فبكى وندم على تفريطه ، إلا أنه لم يطب نفسه من شدة ما سمع ، فأقسم ألا يصلى خلف الشيخ في صلاة الجمعة ، وصار يصلحها وراء خطيب جامع فرطبه .

تلك هي عقوبة الخليفة الناصر ، إفاء نفسه من الصلاة خلف الشيخ في صلاة الجمعة .

وعندما نصحه ولده « الحَكَمُ » بعزل الشيخ منذر بن سعيد ، زجره قائلاً : « أمثال منذر بن سعيد في فضله وخيه وعلمه يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غيرقصد؟ ». هكذا كان الأئمة ، وهكذا يكون العلماء ، في ديار المسلمين .

ولما أنهى الخليفة بناء الزهراء وقبتها (وكانت من عجائب الدنيا) وجلس هو وأقاربه ووزراؤه على الديباج وسألهم : أرأيتم أم سمعتم ملكاً كان قبلى صنع مثل ما صنعت؟ فقالوا : لا والله يا أمير المؤمنين .

(١) سورة الشعراء : الآيات (١٢٨-١٣١) .

وما دخل الشيخ وأعاد الخليفة عليه المقالة السابقة قال المنذر ودموعه تحدّر على لحيته : « والله يا أمير المؤمنين ، ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ .. مع ما أتاك الله تعالى وفضلك به على المسلمين حتى ينزلك منازل الكافرين ، فاقشعر الخليفة من قوله وقال له : انظر ما تقول .. فقال : نعم أليس الله تعالى يقول : ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةٌ وَيَحْدَدُهُ اللَّهُ جَعَلَنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَيُشَوِّهُمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾^(١)

فوجم الخليفة ونكّس رأسه ، وجعلت دموعه تحدّر على لحيته ثم أقبل على المنذر وقال له : جزاكم الله خيراً وعن الدين خيراً ، فالذى قلت هو الحق ، ثم قام من مجلسه ، وأمر بنقض سقف القبة وأعاد قراميدها تراباً على صفة غيرها^(٢).

بهذا الموقف تراجع الخليفة عن الإسراف ، فما أحوجنا إلى علماء صادقين ، وولاة منصفين ، في عصر اختلطت فيه الأمور والمعايير .

(١) انظر : الإسلام بين العلماء والحكام ص ٧٤ ، ٩٣ .

(٢) الزخرف : ٣٢ .

٣ - الغيرة والعفة

كان العرب في الجاهلية يعدون المرأة ذرّة شرفهم ، وعنوان عرضهم ، ولذلك فقد تفتوا في حمايتها واحفاظها عليها ثم الدفاع عنها زوجة وابنة ، أمًا وأختًا ، فريبة وجارة ، حتى يظل شرفهم سليماً من الدنس ، وعرضهم بعيداً من أن يمس .

ولم يكن شيء يثير القوم كالاعتداء على نسائهم أو المساس بهن ، ولذلك كانوا يتجرّضون في سبيل الدفاع عنهم كل صعب ولا يضلون بأى غال .

كانت الغيرة على الأعراض تولد مع القوم ، فكأنهم أرضعوها فعلاً مع لبان الأمهات ^(١) .

وفي بيئه كهذه قامت فيها الأخلاق على الإباء والاعتزاز بالشرف ، كان لا بد للرجال والنساء من العفة والتغافل ، لأن العدوان على العرض يحرر الوييلات والخروب ، فلا بد من الغيرة على العرض حتى لا يمس أو يخدش .

« لقد كان العرب أغير من غيرهم ^(٢) : لأنهم كانوا أشد الناس حاجة إلى حفظ الأنساب .. حيث أن ثوران الغضب حماية لإكرام الحرم .. ولذلك قيل : كل أمة وضعت الغيرة في رجالها ، وضفت الصيانة في نسائها ، وقد وصل العرب في الغيرة أن جاؤوا الحد ، حتى أنهم كانوا يهدون بناتهم مخافة لحوق العار بهم من أجلهن وأول قبيلة وأدت من العرب

(١) المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي : ص ٣٥ .

(٢) انظر بلوغ الأربع : الألوسي ، ١٤٠/١ !

ربعة ، وذلك أنهم غير عليهم وثبتت بنت لأمير لهم ، فاستردتها بعد الصلح ، وخِيرُث رضي عنها بين أيها ، ومن هى عنده ، فاختارت مَنْ هى عنده ، فقضب والدها ، وسَنَ لقومه الواد ففعلوه - غيرة منهم وشاع الواد في العرب بعد ذلك .

ومن خواص العرب وغيرهم ، أنهم إذا اضطروا للحديث عن نسائهم ، كنُوا عنهن بالبيض ، وقد جاء القرآن الكريم بذلك فقال سبحانه : ﴿ كَأَنْهُنْ يَئِضُّ مَكْنُونٌ ﴾ .

وقال امرؤ القيس : « وبضة خدر لا يُرَام خباءها .. » ويكون عن المرأة بالتجعلة :

ألا يا نخلة بذات عرق عليك ورحمة الله السلام
ويكون عنها أيضاً : بالسرحة والشاة ، والعرب تجعل المها شاة لأنها
عندهم صائنة الضباء ، ولذلك يسمونها بالتجعلة . قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا
آخِنَّ لَهُ رَسْعٌ وَسَعْوَنْ تَجْعَلَهُ وَاحِدَةً ﴾ سورة : ص الآية ٢٣ .

ومن خواص العرب وغيرهم ، أنه كان من عادتهم إذا وردوا المياه أن يتقدم الرجال ، ثم العضاريط^(١) والرعاة ؛ ثم النساء إذا صدرت كل الفرق المتقدمة ، حيث يغسلن أنفسهن وثيابهن ويظهرن آمنات من يزعجهن ، فمن تأخر عن الماء حتى تصدر النساء فهو الغاية في الذل ، وإلى ذلك أشارت كبشة أخت عمرو بن معد يكرب بقولها :

ولا تردوا إلا فضول نسائكم إذا ارتفلت أعقابهن من الدم^(٢)

(١) العضاريط : جمع عضروط وهو الخادم على طعام ب Payne والأجر .

(٢) يقال ترمل وارتمل : إذا تلطخ بالدم وجعلت النساء منلطخات بدم الحيض تفضي إلى الأمر ، بلوغ الأربع : ص ١٤٣ .

وكان المغيرة عند العرب مظاهر كثيرة منها^(١) :

أ - حبهم لعفة النساء عامة ونسائهم خاصة ، ومنها حبهم لحيائهن وتسترهن ووفائهن ووقارهن . ففي مدح عفتين يقول سعيد بن أبي كايل اليشكري^(٢) :

ئسمع الحداث قولًا حسناً لو أرادوا غيره لم يستمع
فهي تجود على جلساتها بحديث حسن ، ولا أمل لهم في غير هذا
ال الحديث .

وقد أشاد الشعراء بعفة الحبيبات وتنعهن ووفائهن قال علقمة بن عبدة^(٣) :

منعمة ما يُستطاع كلامها على بابها من أن تزار رقيب
إذا غاب عنها البعل لم تفش سرها وترضى إياها البعل حين ينوب
ومن أجمل ما قيل في خفر النساء وعفتين قول الشنفرى الأزدى في
غزله^(٤) :

لقد أتعجبتني لا سقوطاً فناعها
إذا ما مشت ولا بذات تلفت
إذا ذكر النسوان عفت وجلت
ما ب السعيد لم يسل أين ظلت

(١) انظر : الحياة العربية للحروف : ص ٣٦٢-٣٦٦ ، والمعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي : ص ٣٥،٣٥.

(٢) المفضليات : رقم (٤٠) ص ١٩٢

(٣) المفضليات رقم ١١٩ ص ٣٩١.

(٤) المفضليات : رقم (٢٠) ص ١٠٩ ، والثاما أخبرت به عن الرجل بن حسن أوسى ، الخليل : الزوج ، والشاعر يعتبر من الصعاليك الفتاك .

ب - وكان من مظاهر الغيرة عندهم : ستر النساء ومنعهن من الظهور أمام الرجال .

يقول الأفوه الأودى مشيراً إلى أن أعداءهم لا يتمكنون من رؤية نسائهم ، في حين أن نساء عدوهم تسبى :
نقاتل أقواماً فنسبي نساءهم ولم ير ذو عزّ انسوتنا جُعلاً^(١)

ج - كانوا يتواصون بالدفاع عنهم : يقول عمرو بن معد يكرب^(٢) :
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً على نسائكم كسرى وما جمعا
بل وصل الأمر ببعضهم أن يوصي زوجته بألا تتزوج بعد ماته : قال
أحد بنى بشكر^(٣) :

آخرى بالذى تريدين بعدى والذى تضررين يا أم عقبة
تحفظينى من بعد موئى لما قد كان منى من حسن خلق وصحبة
أم تريدين ذا جمال ومال وأنا في التراب في سحق غربة
ء - على أنهم كانوا يفخرون بغض البصر عن الجارات ، ويعتبرون ذلك من العفة والغيرة على الأعراض .

إن كشف الستر بمحارح النظرات وهتك الأعراض بخائنة الأعين
وفضح الأسرار باستراق السمع لا يترفع عنه إلا كل عفيف .

(١) الأغانى : طبعة دار الثقافة ، ١٦٥/١ .

(٢) ديوانه : ص ٤٧ .

(٣) ذيل الأمالى والتوادر ص ٢٠١

وقول عنترة^(١) :

ما استمَتْ أثني نفتها في موطنها
أغشى فتاة الحى عند حليها
وأغضَ طرُق ما بدت لى جارقى
حتى يوارى جارته مأواها

فالشاعر لن يراود أثني عن نفسها طلباً للحرام ، وإنما يتزوجها بعد
دفع مهرها لوليها ، وهو قد يزور الفتاة واصلاً لرحمها مadam زوجها
موجوداً ، فإذا ما غزا لن يتردد عليها مخافظة عليها وصيانتها لعرضها وعرضه .

هذه بعض مظاهر العيرة عند العرب ، وأمرها يطول لأن العيرة كانت
من أهم سجايدهم ، وكانت تقوم بسيبها المزدوج ومن أمثلة ذلك ، ما قامت
لأجله حرب الفِجَار الأولى عندما تحرشَ فتيان من فريش وكناة بأمرأة من
قبيل عيلان في سوق عكاظ .

ولأنها لأخلاق كريمة ، بعث النبي الرحمة عليه الصلاة والسلام ليتممها
ويقوم ما انحرف منها ، وهي سجايا رفيعة يعجز كثير من الناس في جاهلية
اليوم ، أن يحافظوا على أمثالها .

وكان من أخلاق العرب أيضاً العفة في المغانم وفي الأموال والمطاعم .

يقول الحادرة^(٢) :

إنا نعف فلا ثريب حليفنا ونكتف شح نفوسنا في المطعم
يقول عنترة :

يخبرك من شهد الوقعة أثني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

(١) الديوان : ص ١٨٥ ، شرح الأستاذ عبد المنعم شلبي .

(٢) ديوانه : ص ٥١ تحقيق د. ناصر الدين الأسد ، دار صادر بيروت ١٩٧٣ م .

وكانوا يعتبرون الترفع عن الدنيا من العفة . يقول الأصم الكلبي^(١) :

أصم عن الخنا إن قيل يوماً
و قبله قول حاتم الطائي^(٢) :
وما ضر جاراً يا ابنة القوم فاعلمي
يعنى عن جارات قومى غفلة .

(١) معجم الشعراء : ص ٢٥٨ للمرزباني ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٠ م .

(٢) ديوان حاتم : ص ٥١ ، دار صادر و بيروت .

الغيرة والغففة في نظر الإسلام

كان هذا الخلق من الأخلاق الحميدة في الجاهلية ، وقد حمده الإسلام فيهم ، وشجع المسلمين على الغيرة ذلك أنها إذا تكبت من النفوس في إحدى المجتمعات كان كالطود الشاغر حمية ودفعاً عن الأعراض ، أما إذا فرت تلك الغيرة في النفوس فسيصبح المجتمع هشاً ضعيفاً أمام الحوادث

وال المؤمن الحق غيور بطبيعة ، عفيف بسجيته ، مراعياً أحكام دينه .. وذلك ما كان من غيرة سعد بن عبادة رضي الله عنه عن المغيرة رضي الله عنه فيما أخرجه البخاري في صحيحه أن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال بين يدي رسول الله ﷺ كلاماً دل على غيرته الشديدة ، فقال النبي ﷺ : « أتعجبون من غيرة سعد لأننا أغير منه والله أغير مني »^(١) إن هذه الغيرة على المحارم والأعراض تبشق من غيرة رب العباد ، وتمثل في خاتم المرسلين .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَمَ رِبُّ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾
الأعراف : ٣٣ .

ويقول ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، ولذلك حرم الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن »^(٢) .

(١) صحيح البخاري : كتاب النكاح - باب الغيرة - وانظر : فتح الباري : ٣١٩/٩

(٢) رواه الشيخان : (واللفظ لسلم) ، كتاب النكاح في البخاري وفتح الباري ٣١٩/٩ ، وصحيغ سلم : ك التوبه : ٤/٢١١٤ .

مظاهر الغيرة في الإسلام

١ - من هذه المظاهر : أن الله فرض على المسلمات ستر مفاتنهنَّ و عدم إبداء زينتهن لغير المحارم .

يقول تعالى : ﴿وَلَا يُبَدِّلُنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا أَطْهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبُنَّ
إِنْجُرِهِنَّ عَلَى حُجُورِهِنَّ﴾ إلَى قوله تعالى : ﴿وَلَا يَضْرِبُنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ
مَا يَخْفِي نَفْسَهُنَّ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾^(١) ويقول جل من قائل : « وَقَرَنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا
تَبَرُّجْ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى » سورة الأحزاب : ٣٢ .

٢ - ومن غيرة الإسلام أيضاً أنه حرم الدخول على النساء لغير المحارم ، كـ حرم الخلوة بهن .

قال ﷺ : « إياكم والدخول على النساء . فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أرأيت الحُمُر ؟ قال : الحُمُر المُؤْتُ ^(٢) والحمور : أخوه الزوج وما أشبهه من أقاربه .

إن الإسلام اتخذ كل وسيلة لمنع الفتنة ، يقول رسول الله ﷺ وهو على منبره : « لا يدخلنَّ رجل بعد يومى هذا على مغيبة إلا ومعه رجل أو اثنان » ^(٣) .

(١) سورة النور : ٣١ .

(٢) مسلم بشرح النووي : ١٤/١٥٣ .

(٣) مسلم بشرح النووي : ١٤/١٥٥ .

٣ - ومن مظاهر هذه الغيرة : الحياة ، وقد حثَ عليه رسول الله ، قال عليه السلام : « الحباء خيرٌ كُلُّه »^(١) وقد كمل خلق الحياة في سيرته عليه السلام ، يقول أبو سعيد الخدري : « كان النبي أشدَّ حياءً من العدراء في خدرها »^(٢) والحياة من الإيمان ، عن ابن عمر أن رسول الله عليه السلام مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياة فقال الرسول عليه السلام : « دعْه فإنَّ الحياة من الإيمان »^(٣) وعن عِمران بن حُصين قال : قال النبي عليه السلام : « الحياة لا يأنى إلا بخير »^(٤)

هذا الحياة الذي يصون العفاف ، وتحلّق به سلف هذه الأمة رجالاً ونساء ، تحاول الجاهلية المعاصرة أن تنتزعه من نفوس الفتيات .

ذُكر في كتاب واقعنا المعاصر : « بينما تابعت الصحافة قضية الفتاة الجامعية وهي تشق طريقها الصاعد الذي تدوس فيه كل المقدسات كي تصل إلى النور ! لقد أوصت هذه الصحف الفتاة الجامعية بقوتها : حذار أن تعصي بصرك ! فغض البصر معناه عدم الثقة بالنفس ، وهو من مخلفات القرون الوسطى المظلمة فتعصي الفتاة هناك بصرها ! أما أنت يا حامنة الراية فارفعي رأسك عالياً ، لتشتبئ أنك متساوية للرجل في كل شيء ... شيئاً ينبغي أن تحرر منها الفتاة الجامعية : عرض البصر ... والحياة »^(٥) .

(١) أخرجه مسلم : ٧/٢ -- نبوى)

(٢) البخاري : ٥٦٦ مع الفتح ، ومسلم بشرح النووي : ٧٨/١٥ .

(٣) أخرجه ابن ماجة (٤١٨١) وأخرجه البخاري في مكارم الأخلاق ص ٤٩ والمضربياني في الصغير (١٤-١٣/١) من حديث أنس رضي الله عنه وإسناده حسن إن شاء الله وانظر (رسالة الحياة : سليم اهلاوي ص ٢٤)

(٤) أخرجه البخاري : ٥٢١ -- الفتح ، (وسلم : ٧/٢-٧ نبوى) .

(٥) واقعنا المعاصر الأستاذ محمد قطب ص ٢٨٨

٤ - ومن مظاهر الغرابة والعنف : غضُّ البصر قال تعالى : ﴿ قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُبُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكِنَ لِمَنْ إِنَّ اللَّهَ حَسْبُهُ بِمَا يَصْنَعُونَ ۚ ۝ وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُبْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .. ۝ ۱۰ ۸﴾ .

يقول سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآية :

« إن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف لا ظهاج فيه الشهوات في كل لحظة ، ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم في كل حين . فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهي إلى سعار شهوان لا ينطفئ ، ولا يرتوى ، فالنظرية الخائنة ، والحركة المثيرة والزينة المتبرجة ، والجسم العاري .. كلها لا تصنع شيئاً إلا تبيّع ذلك السعار الحيواني اخنون .. ! .

وإحدى وسائل الإسلام إلى إنشاء مجتمع نظيف هي الحيلولة دور هذه الاستثارة ، وإبقاء الدافع الفطري العميق بين الجنسين سليماً .. ۸﴾ .

وغض البصر من جانب الرجال أدب نفسي ، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحسن والمحان ، كما أنَّ فيه إغلاقاً للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية .. ۹﴾ .

واهتمت الأحاديث الشريفة بالتحذير من نظرية العين التي يراد بها السوء . قال عليهما مَحَدُوراً من كل وسيلة محرمة : « زنا العينين النظر ، وزنا اللسان النطق ، وزنا الأذنين الاستماع ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين الحُطَّى ، والنفس تُمَنَّى وتشتهي والفرج يُصدق ذلك أو يُكذبه » ۱۰﴾ .

(١) سورة التور : ٣٠ .

(٢) ف ظلال القرآن : (٤/٢٥١٠-٢٥١١) .

(٣) ف ظلال القرآن : (٢/٢٥) .

(٤) رواه البخاري ، كتاب الاستئذان ، وانظر فتح الباري : ٢٦/١٩ .

وقال الشاعر محذراً من أثر النظارات المسمومة :

كل الحوادث مبداتها من النظر
ومعظم النار من مستنصر الشر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها
ففي أعين العين موقف على الخطر
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها
فعل السهام بلا قوس ولا وتر

وقد دعا الإسلام إلى محاربة النفس من أجل عفتها حتى تقاوم
الشهوات عموماً ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَهَدُوا فِي سَبِيلِنَا لَهُمْ سُبْلًا وَلَهُمْ
اللَّهُ لَمَعَ الْمُخْسِنِينَ ﴾^(١) .

فالصورة الحلوة التي تتطلبها للمجاهدة هي أن يقيم الإنسان المؤمن
من إرادته وعزيمته ومراقبته على نفسه ما يصده عن الخنا والأذى ، وما
يربطه على الدوام بالتقى والهدى ، وما يجعله يقاوم الشهوات والأهواء ،
دون أن يحرم ما أحل الله^(٢) . والمجاهدة تبعث على الاطمئنان والراحة
والإيمان . عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله
عليه السلام : « إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم ، من تركها مخافتى أبدلته
إيماناً يجد حلاوته في قلبه »^(٣) والغيرة لها حد ، إذا جاوزته صارت تهمة وظنا
سيئاً بالبريء ، وإذا قصرت عنه كانت تغافلاً ومباديء ديائة^(٤) .

(١) سورة العنكبوت : ٦٩ .

(٢) أخلاق القرآن : الشرباصي ، ١٧٣/٢ ، ١٧٨ .

(٣) رواه الطبراني والحاكم من حديث حديفة وقال : صحيح الأنساد . وقال الحافظ
(المتذرى) أخرجاه من رواية عبد الرحمن اسحق الواسطي وهو واه . ينظر الترغيب والترهيب
جـ ٣ / ص ٣٤ .

(٤) الفوائد : ابن القيم الجوزية ، ص ٣٨ .

فعن جابر بن عبد الله عليه السلام قال : « من الغيرة ما يحب الله و منها ما يبغض الله ، فاما التي يحبها الله فالغيرة في الريبة ، وأما التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة .. »^(١)

العفة : وتعتبر من أهم مظاهر الغيرة الحقيقة ، وهي لا تقتصر على اخراج خاصة ، ولكنها تشمل جميع المحرام إذ تغار عليها ونعت عنها . ولذلك كان من مظاهر العفة عند المسلمين غض الأبصار كما كانت كذلك عند عدد من أهل الجاهلية .

ولذلك فرض الإسلام أدب الاستذان على الزائرين قال تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَذَرْ خَلْوَبَيْوَاتَ غَيْرَ بَيْوَاتِكُمْ حَقَّ تَسْتَأْنِسُوا وَسِلْمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ النور : ٢٧ وهو أدب جديد على العرب قبل الرسالة ويقول عليه السلام : « من اطلع في بيت قوم بغير إذنه ، فقد حُلِّي لهم أن يفقعوا عينه »^(٢) .

على أن العفة التي دعا إليها الإسلام لا تقتصر على الأمور الجنسية ، فقد تجاوزها إلى عفة اللسان ، قال تعالى : ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنِهِ﴾ ف : ١٨ .

وحرم بذاءة اللسان . قال عليه السلام : « فرنا العين النظر وزنا اللسان النطق »^(٣) .

(١) مشكاة المصايد : ٢/٩٩١ (رقم ٣٣١٩)

(٢) أخرجه الإمام مسلم : (١٤/١٣٨) - نموذج

(٣) فتح الباري : كتاب الاستذان ، والفتح : ١١/٢٦

ودعا إلى عفة في المطعم ، فالمسلم لا يأكل إلا حلالاً ، ولا يأكل إلا من عمل يده إذ يترفع عن المسألة : « ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن بي الله داود كان يأكل من عمل يده »^(١) .

الغيرة في حضارة القرن العشرين :

الغيرة من أخلاق العرب ، وشم المسلمين النبيلة ، وبديهيات ديننا الحنيف ، إلا أن هذه السجایا بدأت تضمحل في ديار المسلمين مع الأسف ، مع هجمة الغزو الفكري ، وأخلاق الحضارة الوافدة .

ابعدت مجتمعاتنا - إلا من رحم الله - عن الواقع النظيف الظاهر وانحدرت إلى سفح هابط مرير .

لقد أصبح الاختلاط عادياً بين الأسر - التقدمية - حيث الأحاديث المشتركة والموائد المختلطة ، والملابس العارية الفاضحة .

أصبح أمراً لا يستغرب ، أن يتآبطن المسلم المتحرر (من أخلاق دينه) ذراع زوجته العاري ، بملابسها المكشوفة ويتجول في الأسواق ، شأن أهل الدياثة في حضارة الغرب المنحل أو الشيوعي الملحد .

ولو نظرنا إلى الشواطئ في كثير من بلاد المسلمين حيث الأجساد العارية ، وكتل اللحم البشري الرخيصة ! لها لنا ما توصلنا إليه بعد مجتمع الطهر والعفة والحياء . حتى المدارس والجامعات ، معاهد العلم والتوجيه أصبحت مختلطة بين المراهقين والمراهقات من رواد العلم .. في كثير من بلاد المسلمين .

(١) صحيح البخاري : كتاب البيوع ، والفتح : ٣٠٣/٤ . وانظر : العفة في المعتقدات والقيم ص ٧٨٩ وما بعدها .

ناهيك عن مخيمات التروع الصيفية فقد أصبحت مختلفة حيث ينام الشبان والشابات ، في الفتوة ومنظمات الشبيبة في العديد من ديار المسلمين ، التي غزتها الأنظمة اليسارية أو الباطنية وصارت الدعوة عليه إلى هذا الجحود اهابط ، في الصحف والجلالات .

كتب إحسان عبد القدوس في إحدى توجيهاته التي كان يبيها في مجلة روزاليوسف : « إنني أطالب كل فتاة ، أن تأخذ صديقها في يدها وتذهب إلى أبيها وتقوله له : هذا صديقي »^(١) .

إن الغيرة ماتت في النفوس ، حتى يأتى أمثال هذا ليوجه نصائحه إلى بنات المسلمين .

وما يزال الانحدار شديداً نحو السفح اهابط ، وما نراه في المطارات من مظاهر العُرُى ، وأساليب الاستقبال والمعانقة – ولو كانوا من ذوى القرى – بين الرجال والنساء علينا أيام الناس ، ليجعل الخليم حيران .. وقد يترحم على غيره العرب في جاهليتهم فما بالك بستر الإسلام وواقعه الظاهر النظيف؟! أما في حالة المروء فحدث ولا حرج ، عن اتهاك الأعراض ، حتى بين بلدان العرب والمسلمين خلال حروبهم الطائفية أو الإقليمية .

قد يظن بعض المخدوعين بحضارة الغرب أو الشرق أن ما يقومون به هو من قبيل التقدمية والتحضر ، ولكن هذا لا يعتبر متقدماً بل هو تخلف وهمجية .

« فحين تكون القيم الإنسانية والأخلاق الإنسانية ، هي السائدة في المجتمع كما يريد لها ميزان الله ، فإن هذا المجتمع يعتبر متقدماً متحضرأ .. أو بالاصطلاح الإسلامي يكون مجتمعاً ربانياً مسلماً .. .

(١) واقعنا المعاصر : الأستاذ محمد قطب ص ١٩٤

ذلك أن القيم والأخلاق الإنسانية ليست مسألة غامضة ولا مائعة ،
ولا متغيرة ...

والمجتمعات التي تسود فيها القيم والأخلاق الحيوانية لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرّة مهما بلغت من التقدّم الصناعي والاقتصادي والعلمي ! .
إن المجتمعات الجاهلية الحديثة ، ينحصر فيها المفهوم الأخلاق بحيث تخلّى عن كل ماله علاقة بالتمييز الإنساني عن الحيوان .

ففي هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية ، ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة رذيلة أخلاقية .

فالمفهوم الأخلاق ينحصر في المعاملات الشخصية أو الاقتصادية والسياسية أحياناً وفي حدود مصلحة الدولة ! ..

فمثل هذه المجتمعات مختلفات غير متحضرّة من وجهة النظر الإنسانية .. وهي كذلك غير إسلامية لأن خط الإسلام هو خط تحرير الإنسان من شهواته وتنمية خصائصه الإنسانية وتغلبها على نزعاته الحيوانية «^(١)

فإلى كل عبور على دينه وعرضه ، أسوق هذه المفاهيم على أنه لابد من تربية جادة مستقيمة ، تعتمد على قيم هذا الدين وتصوراته وأخلاقه ، بعد أن ابتعدنا عنها ، تحت ضعف الوازع الديني ، أو ضغط التصورات الفاسدة والعادات الوافدة .

(١) فـ ظلال القرآن : ١٢٥٨/٣

٤ - الوفاء عند العرب

كان الوفاء من الأُخْلَاقِ الْأَصْبَلَةِ عندَ الْعَرَبِ ، فَإِنْ جَلَّ مِنْهُمْ قَدْ يَنْتَهِي
بِالكلمة فتصبح عليه عهداً لابد أن يفى به وإلا عرض شرفه المتجرجع
وكان الغدر بعراة يتتجاهفون عنه ، وإذا ما غدر أحدُهُمْ رفعوا له اللواء
بسوف عناكاظ ليشهروا به وفي ذلك يقول الحادرة « قصبة بن محسن »^(١) :

أَسْمَى وَيَحْكُمْ هَلْ سَعَتْ بِغَدْرَةِ رُفْعِ اللَّوَاءِ لَنَا بِهَا فِي مَجْمَعِ
إِنَا نَعْفُ فَلَا تَرِيبُ حَلِيفَنَا وَنَكْفُ شَحَّ نَفْوسِنَا فِي الْمَضْمَعِ
فِيهِمْ لَمْ يَغْدِرُوا وَإِنَّهُمْ لَنَّ بَأْتُوْا مَا يَشْكُنُ حَيْقَنَهُمْ مِنْهُمْ
وَقَدْ كَانُوا أَوْفِيَاءِ فِي نَصْرِ الْحَلَفاءِ ، وَالذَّبَّ عَنِ الْجَيْرانِ
وَقَدْ كَانَ هَذَا الْخَلْقُ مَتَعَدِّدَ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ ، فَوَفَاءُ مَنْ يَعْاَدُونَ ،
وَوَفَاءُ مَنْ يَعْاهِدوْنَ ، وَوَفَاءُ مَنْ يَجْبُونَ وَوَفَاءُ مَنْ يَصْنَعُ مَعْهُمْ مَعْرُوفًا^(٢)
وَخَيْرُ مَثَالٍ عَلَى رِعَايَةِ الْعَرَبِ لِأَمَانَتِهِمْ ، وَوَفَائِهِمْ مَا فَعَلَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
جُدْعَانَ ، لَمَا هَاجَتِ الْحَرَبُ بَيْنَ كِتَانَةَ وَهَوَازِنَ^(٣) إِذْ جَاءَ حَرْبُ بْنِ أَمِيَّةِ إِلَيْهِ
وَقَالَ لَهُ : احْتَبِسْ فِيْكَ سَلَاحَ هَوَازِنَ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : أَبَالْغَدَرِ تَأْمُرُنِي
بِالْحَرَبِ !! وَاللَّهُ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَقْنِي مَنْهَا إِلَّا سِيفٌ وَقَدْ ضُرِبَتْ بِهِ ، وَلَا
رَمَعٌ إِلَّا وَطُعِنَتْ بِهِ ، مَا أَمْسَكْتُ مَنْهَا شَيْئًا

(١) المفضليات . ص ٤٥ رقم (٨) .

(٢) انظر هذا الموضوع في: الحياة العربية المعروفة (٣٥٨-٣٦٠) واعتقدات وآراء في
الشعر الجاهلي : (ص ٣٧٤-٣٧٦)

(٣) حرب الفجار

وبسب وفاء ابن جدعان ، كانت العرب إذا قدمت عكاظاً دفعت
أسلحتها إلى عبد الله حتى يفرغوا من أسواقهم وحجّهم ثم يردها عليهم إذا
ظعنوا من مكة إلى مضارب قومهم^(١).

ومن وفاء القوم المشهور : موقف السموأل عندما ضحى بولده بقتل
أمام عينيه ، على ألا يسلم سلاح امرئ القيس لخصومه ومن قوله في
ذلك^(٢) :

وَقَيْثَ بِأَدْرَعِ الْكَنْدِيِّ إِنِّي إِذَا مَا خَانَ أَقْوَامَ وَفَيْثَ
وَقَالُوا: إِنَّهُ كَنْزٌ رَغِيبٌ فَلَا وَاللَّهِ أَغْدَرَ مَا مَشِيتَ
وَمِنْ أَنْوَاعِ الْوَفَاءِ: وَفَاءُ الْعَرَبِ لِأَهْلِ عَصِبِيهِ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَخْالِفُهُمْ
مِنْهُمَا كَانَتْ دَرْجَةُ الْخِلَافِ مَعْهُمْ، لَأَنَّهُ وَاحِدٌ وَهُمْ جَمَاعَةٌ، فَمَا يَصِيبُ
جَمَاعَتِهِ سَيِّصِيبُهُ، وَمَا سَيِّصِيبُهُ سَيُؤْثِرُ حَتَّىٰ فِي جَمَاعَتِهِ، وَقَدْ عَابَ النَّاسُ
الْغَادِرُ وَعَيْرُوا بِهِ فَإِذَا شَتَمُوا شَخْصًا قَالُوا لَهُ: يَا غَدَرِ^(٣).

وقد عَدَ الوفاءُ مُحَمَّدةً وَوَاجِبًا ، عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْكِدوهُ بِرْهَنٍ قَدْ يَكُونُ
ثِبَاتًا مُثْلِ أَبْنَاءِ سَادَاتِ الْقَبَائِلِ ، يَقْدِمُونَهُمْ رَهِينَةً لِدِي الْمُلُوكِ ضَمَانًا لَهُمْ فِي
مُقَابِلٍ وَفَائِنَهُمْ بِمَا تَعْهَدُوا بِهِ لِلْمُلْكِ ، وَقَدْ يَكُونُ شَيْئًا لَا قِيمَةَ لَهُ مِنْ الْوِجْهَةِ
الْمَادِيَّةِ كَرْهَنَ قَوْسٌ أَوْ سَهْمٌ .. أَوْ الْوَفَاءُ بِسَبِيلٍ اسْتِجَارَةٍ إِنْسَانٌ بَقِيرٌ .. الْخَ ..
وَمَا كَانَ أَخْلَاقُهُمْ هَذِهِ نَظَرِيَّةٌ صُورِيَّةٌ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ وَاقْعًا ضَرِبَتْ بِهِ
الْأَمْثَالُ .

(١) انظر الأغانى : ٦٦/٢٢ طبعة دار الثقافة .

(٢) ديوان عروة والسموآل : ص ٨٠ .

(٣) جواد على : ٤٠٢/٤

ومن القصص الشهيرة في الوفاء : قصة الطائى الذى وفى للنعمان
وعاد معرضًا نفسه للقتل^(١)

كان النعمان بن المندر قد ألحأته الأمطار إلى منزل هذا الرجل في
البادية وهو لا يعرفه ، وأكرمه دون سابق معرفة .

· وعندما خرج النعمان قال لضيوفه : يا أخا طيء اطلب ثوابك : أنا
النعمان .

وأصابت الطائى نكبة وبلاء وساقت حاله بعد ذلك . فذهب إلى
النعمان إلا أنه وافق يوم بؤسه ، وكان لا بد من قتله كما جرث عادة
النعمان . ثم سأله الملك حاجته من الدنيا .. فطلب أن يؤجله عاماً ليوصى
لأهلة ويبيئه حاله .. وكان للنعمان يومان في السنة ، يوم بؤس ويوم نعيم
قال النعمان : فأقم لي كفيلاً بمواقفك ... نظر الطائى حوله وإذا برجل من
قبيلة كلب يشب إليه ، يقال له : قراد ابن أجدع .. وقال للنعمان : أبىت
اللعن هو علىي .. ورجع الطائى لأهله ، ولما حال الحول ، وبقى من الأجل
يوم قال النعمان لقراد : ما أراك إلا هالكاً غداً فقال قراد :
فإن يك صدر هذا اليوم ولئن فان غداً لناصره قريب
وفي صباح اليوم الثاني ، ركب النعمان في خيله ورجله متسلحاً ، كما
كان يفعل حتى أتى الغرين^(٢) ومعه قراد وأمر بقتله .. فقال له وزراؤه ليس
للك ذلك حتى يستوف يومه .

(١) انظر : بلوغ الأربع : ١٣٠/١ ، وأمثال لميدان : ٩٧/١

(٢) الغرين : بناءان طويلاً يقال لها قيراً مالك وعقيل نديم النعمان قتلهمَا في حالة
سكر فندم وصار يقتل من يأتيه في ذكرى يوم بؤسه هذا ويطلق بدمه ، (بغري) الغرين (بلوغ
ال الأربع) .

وبينا كان قراد مجردأً قائماً في إزار والسياف إلى جنبه ، أقبلت امرأته وهي تقول :

أيا عين بكى لي قراد بن أجدع رهيناً لقتل لا رهيناً مودعاً
أنته المنايا بفتحة دون قومه فأمسى أسيراً حاضر البيت أضرعاً
وبينا هم كذلك إذ أقبل الطائى وقد شق على النعمان مجئه فقال له :
ما حملك على الرجوع بعد إفلاتك من القتل ؟ قال الوفاء .

قال النعمان : والله لا أكون لأم الثلاثة ، وعفا عن قراد وعن
الطائى وقال : والله ما أدرى أيهما أوف وأكرم وأمر بهم الغرين وأنشد
الطائى :

إني امرؤ في الوفاء سجية وجزاء كل مكارم بذالى
ولقد دعتنى للخلاف ضلالتى فأبىت غير تمجدى وفعالى
إنها قصص فريدة ، تبعث على الدهشة والإعجاب .
ومن ضرب بوفائه المثل : عمير بن سلمى الحنفى .

كان قد استجار به رجل من بني عامر بن كلاب ، وكانت معه امرأة
جميلة ، فرأها أخوه عمير « قرين بن سلمى » وصار يتحدث إليها ، فنهاها
زوجها بعد أن علم فانتهت .. ولما رأى قرين ذلك وثب على زوجها وقتلها ،
وعمير غائب فأتى أخوه المقتول قبر سلمى وغاذ به .

ولما قدم عمير أخذ أخاه وألى إلا قتلها ، أو أن يعفو أخوه المقتول ،
فألي أخذ الديمة ولو ضوعفت ، فأأخذ عندئذ عمير أخاه وقتلها لغدره وفأء
لجاره^(١) .

(١) المحر ص ٣٥٢ لابن حبيب ، وجواب على ٤٠٦ /

كان الجاهلي إذا قال كلمة وف بها ، مهما كلفته من عناء ولو أدى
إلى قتله أو قتل قريب عزيز عليه .

على أن ذلك لم ينفع به عامة العرب آنذاك ، وإنما كان الغدر
منتشرًا ، وعدم الوفاء بالعهود معروفاً ، يقول امرؤ القيس مثلاً في انتشار
الغدر^(١) بين بعض القوم :

إذا قات هذا صاحب قد رضيته وقررت به العينان بذلك آخرها
كذلك جدّى ما أصحاب صابباً من الناس إلا خانى ونغيراً
ويقول أوس بن حبْر^(٢) :

وإني رأيت الناس إلا أقلهم خفاف العهود يكترون التتفاًلا
حتى أن بعضهم كان بعد الغدر شجاعة وبعد الذين لا يغدرون من
الجبناء . قال النجاشي يهجو بني العجلان^(٣) :

قبيله لا يغدرون بدمّة ولا يظلمون الناس حبة خردل
هذا عن الوفاء في الجاهلية ، فماذا عنه في الإسلام ؟ ذلك ما سوف
تجلوه الصفحات القادمة ...

(١) الديوان ص ٦٩ وانظر ظاهرة الغدر ص ١٠٩ المعتقدات والقيم .

(٢) الشعر والشعراء لابن قبيصة : ٢٠٨/١ .

(٣) العمدة لابن رشيق ٥٢/١ .

الوفاء في الإسلام

إن الوفاء الذي كان في الجاهلية يتمثل في حفظ الحوار ، والبعد عن نقص الأحلاف ، أو خيانة الأمانة تحول في الإسلام إلى حفظ العهود ، وأداء الأمانات سواء كانت للصديق أم للعدو ، وذلك استجابة لأوامر الله جل وعلا ، وتأسياً بسيرة المصطفى ﷺ

وقد نحدث كتاب الله جل وعلا عن الوفاء في مواطن كثيرة ، وامتدح الأوفياء إذ يقول جل من قائل : ﴿ وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ .. ﴾

لَا أحد أوف بعهده من الله ، فهو القادر المتمكن من الوفاء ، وجعل القرآن فضيلة الوفاء من صفات الأنبياء عليهم صلوات الله فقال تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَقَّعَ ﴾ التجم : ٣٧ وذلك أن إبراهيم عليه السلام بذل غالبة جهده في كل ما طرأ عليه من ربه بذل ماله في طاعة الله ، وقتله إسماعيل فربانا الله حتى فداه الله .. وقاوم الشرك والوثنية واحتمل ابتلاء الإحرار بالثار في سبيل الله ، إلى غير ذلك من ألوان الوفاء .

وأشار القرآن إلى وفاء إسماعيل عليه السلام في قوله : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي
الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾ «مريم : الآية ٤٥» كان إسماعيل عليه الصلاة والسلام مشهوراً بهذه الصفة وحسبنا أنه وعَدَ بالصبر على الذبح وقال لأبيه : ﴿ افْعُلْ مَا تَؤْمِنْ سَتَجْدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ
الصَّابِرِينَ ﴾ ولقد وفى بعهده وصدق في وعده وكان من المخلصين^(١)

(١) انظر أخلاق القرآن الشرباصي ، ١٩٤/٢ وما بعدها

وقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة من الوفاء في أقواله وأفعاله .

ومن أمثلة وفائه ﷺ ، موقفه يوم الفتح من عثمان بن طلحة حاجب الكعبة أيام الجاهلية .. قال ابن قيم الجوزي رحمه الله : « ثم جلس رسول الله قيام إليه على بن أبي طالب ، وفتح الكعبة في يده ، فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا العجابة مع السقاية صلي الله عليك .

فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له فقال : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم يرّ ووفاء » (١) .

نعم إن البر والوفاء من أخلاقه عليه الصلاة والسلام ومن أخلاق رسول الله ، ثم من صفات المؤمنين الصادقين .

بل إن رسول الله ﷺ ، اعتبر أن الإخلاف بالوعد ، من أسوأ الصفات ومن صفات المنافقين ، ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤمِن خان » (٢) .

لقد علمنا الإسلام أن نكون أو فياء حتى في ساعات العُسرة ، ومع الأعداء

« وفي صلح الحديبية عندما جاء أبو بصير هارباً من مكة وتبعه رجالان من قومه يطلبان رَدَّه إليهم ، أتى النبي ﷺ إلا أن ينفذ شروط الصلح مع المشركين ، رغم تالميذ أبى بصير من أن رَدَّه إلى المشركين قد يفتنه

(١) زاد المعاد : ٢٩٥/٢ تحقيق محمد الفقى ، مطبعة السنة الخمديه بالقاهرة ١٩٥٢ م .

(٢) مسلم مع الشرح ٤٦/٢ .

فِي دِينِهِ إِلَّا أَنْ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُ : « يَا أَبَا بَصِيرٍ إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هُؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتُ مِنَ الْعَهْدِ ، وَلَا يَصْلُحُ فِي دِينِنَا الْغَدْرُ ، وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لِكُلِّ وَمِنْ مَعْلُوكٍ مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ فَرْجًا وَمُخْرِجًا »^(١)

النفس تتطلع إلى الفرج والخرج ، ومحال أن يتحقق ذلك إلا بالوفاء حتى مع العدو : « وَإِمَّا تَخَافَ كَمِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْبِئْهُمْ عَلَى سَوَاءِ .. »
« سورة الأنفال : آية ٥٨ »

وقد حفظ الله تعالى ظر رسوله وجاء الفرج بعد قليل ، إذ وجد هؤلاء المستضعفين الفرج والخرج .

قصة أبي جندل في الحديبية ، عندما جاء يجير قيوده هارباً بدينه ، يُرد إلى قومه بسبب العهد الذي اتفق عليه ، رفضاً لأى غدر مهما عظمت التضحيات^(٢) .

واحتدى أصحاب رسول الله بأخلاق رسول الله ، ومن روائع هذا الوفاء : قصة الصحابي الجليل أنس بن النضر رضي الله عنه في غزوة أحد فيما رواه البخاري رحمه الله . روى أنس بن مالك قال : غاب عمى أنس ابن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن أشهدني الله مع النبي قتال المشركين ليريئ ما أصنع !!

فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إني أعذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب النصر ! إنني لأجد ريحها من دون أحد !!^(٣) قال أنس : فوجدنا به

(١) انظر السيرة النبوية : (ابن هشام ٢ / ص ٣٢٣) .

(٢) المصدر السابق ، والرحيق المختوم للشيخ عبد الرحمن المباركي فورى ص ٣٨٥ - طبعة مكة المكرمة ١٤٠٠ هـ

(٣) ينظر الإصابة ج ١ ص ٨٦

بضعاً وثمانين ، ما بين ضربة بالسيف وطعنه بالرمح ورمية بسهم ، ووجدناه وقد مثل به المشركون ، فما عرفه إلا أخْتَه بشامة فيه أو بيتانه .

قال أنس : كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْهَا ظِرْرًا وَمَا بَدَلُوا تَبِدِيلًا ﴾ سورة الأحزاب : ٢٣

هكذا يكون الوفاء ببذل النفس ، والجود بالنفس أقصى غاية الحود

هذا وإن الوفاء بالعهد يشمل الوفاء بمختلف أنواع العهود بين الناس ، سواء أكاد عهداً مادياً أم معنوياً ، ولكن أعلى العهود وأجردها بالرعاية والعناية هو عهد الله جل جلاله ﴿ وَعَهْدُ اللَّهِ أَوْفِيهَا ﴾ ﴿ وَلَا تُشْتَرِكُوا بِعَهْدِ اللَّهِ شَيْئاً قَلِيلًا ﴾

ولعل أجمع الآيات القرآنية لأنواع الوفاء قوله جل وعلا : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ مَأْمُونُوا أَوْفُوا بِالْعُهُودَ ﴾ سورة : المائدة ١

ولذلك قال السيد رشيد رضا : إن أساس العقود الثابت في الإسلام هو هذه الجملة البليغة اختصرت المقيدة ﴿ أَوْفُوا بِالْعُهُودَ ﴾ لأنها تفيد أنه يجب على كل مسلم أن يعي بما عقده وارتبط به ، فكل قول أو فعل يعده الناس عقداً فهو عقد يجب أن يوفوا به كما أمر الله تعالى ما لم يتضمن تحريم حلال أو تحليل حرام (١)

والوفاء بالعهود هو الضمان لبقاء عنصر الثقة في التعامل بين الناس ، وب بدون هذه الثقة لا يقوم مجتمع ولا تقوم إنسانية

(١) عن أخلاق القرآن : الشريachi ٢٠٨/٢

وقد شدد الإسلام في هذه المسألة ، فلم يتسامح فيها أبداً لأنها قاعدة الشقة التي ينحرط بدونها عقد الجماعة ويتهم^(١) قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كِفِيلًا ﴾^(٢)

الإسلام يحارب الغدر والخيانة .

وإذا كان القرآن والسنة قد مجدتا فضيلة الوفاء كل هذا التمجيد ، فإنهما قد حملتا حلة رادعة على الخيانة والغدر . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الظَّالَمِينَ ﴾ « الأنفال : ٥٨ » وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَانِي كُفُورٍ ﴾ « الحج : ٣٨ » وقال : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَخْنُونَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَلَا يَخْنُونَ أَمْنَتُكُمْ وَلَأَنْتُمْ تَعْدَمُونَ ﴾ « الأنفال : ٢٧ »

وقال عليه السلام : « لكل غادر لواه يوم القيمة يُرفع له بقدر غدره إلا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة »^(٣) فالوفاء من صفات الكرام الأحرار والغدر من صفات اللئام الفجars ، فلينظر كل امرىء أين يكون .

وإن الوفاء أباً كان ، واجب شرعاً مع جميع من نتعامل معهم : الأصدقاء والأعداء ، مع الزوجة والولد ، مع الصديق والقريب مع الحيران وعامة الناس .. إذ يجب على المسلم أن يكون نموذجاً صادقاً مع هؤلاء في أخلاقه ووفائه

ومن أولى الناس بالوفاء من تربطنا بهم صلات مودة ومعايشة كالأهل والإخوة ، وأهل الفضل علينا من أصحاب الحقائق والمشايخ والمربيين .

(١) في ظلال القرآن : ٤/٢١٩١

(٢) سورة التحل ٩١

(٣) رواه مسلم : ينظر مشكاة المصابيح ٤٣٧٢٧

كما أن الإسلام حرم اتخاذ المصلحة سبباً في نقض العهد ، ولو مع
الأعداء

« وما يسمى الآن بمصلحة الدولة ، ونقض العهد هذا السبب أمر لا يفره الإسلام ، بل ويجرم بالوفاء بالعهود ... وعلى هذا الأساس قام بناء الجماعة الإسلامية ، وبناء الدولة الإسلامية .

لقد دخلت في الإسلام جماعات وشعوب بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعهودهم ، ومن صدقهم في وعودهم .. ومن إخلاصهم في إيمانهم فكان الكسب أضخم بكثير من الخسارة الظاهرة الظاهرية التي شأت عن نمسكهم بعهودهم ..

لقد ترك القرآن والسنّة في نفوس المسلمين أثراً قوياً وطابعاً عاماً ،
هو طابع التعامل الإسلامي الفردي والدولي التميز .. ^(١)

ومن روائع الوفاء بالعهود ما جرى لأهل حمص مع الصحابي الجليل أبي عبد الله بن الجراح (رضي الله عنه) وجيشه « فلما جمع هرقل صاحب الروم جموعه لل المسلمين ردوا على أهل حمص من الروم ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأئتم على أمركم .

فقال أهل حمص : لولا يتكلكم وعدلكم أحب إلينا ما كنا فيه من الظلم والعشيم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم » ^(٢) وقد حصل مثل هذا مع عدد من مدن الشام وكان لهذا الخلق الرفيع الأثر الصيب في فتح أبواب حمص للمسلمين عندما عادوا من اليرموك متصررين .

(١) الظلال : ٢١٩٢-٢١٩١ / ٤

(٢) انظر القصة في فتوح البلدان للبلاذري ، والخرجان لأنى يوسف رحمه الله الخراج ص ١٣٩٩ ط ١٣٩٩ هـ لبنان بيروت دار المعرفة .

فارن ذلك بإخلال الوعود عند الإنجليز وأشياهم من الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ، إذ غدروا بالشريف حسين بن علي والى مكة آنذاك ، ونفذوا مكيدتهم ضد المسلمين مع اليهود والفرنسيين كما هو معروف .

إن الوفاء بالعهود يرتبط في العقيدة عند المسلمين .

ولا يتقيد بعرض زائل أو منفعة عاجلة مهما عظمت . « وحين كان المسلمون يتعاملون مع الصليبيين خلال الحروب الصليبية ، كانوا يأبون نقض المواثيق حتى حين خصرهم الضرورة ، وتكون المنفعة في نقض هذه المواثيق .. حينئذ كانوا يضربون مثلاً للأخلاق المستمدة من منهج الله ﴿وَإِمَّا تَخَافَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَبْرُدْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَاطِئِينَ هُنَّ هُنَّ أَهْوَانٌ﴾ . الأنفال . ٥٨ .

وحيناً كان الصليبيون ينقضون الميثاق الذي ضربوه للMuslimين ويأخذونهم على حين غفلة ، ويقتلون منهم الألوف من الرجال والأطفال والنساء قتلاً وحشياً .. ويدخلون عليهم المسجد وهم لا جنون إليه بلا سلاح وعدة ويقتلونهم في داخل بيت الله ، حتى تغوص أرجل الخيل الهاجمة في الدماء ..

ثم ترتد الجولة للMuslimين فيتصرون على هؤلاء الصليبيين ذاتهم ، فيعاملونهم على نفس المستوى الإنساني الذي كانوا يعاملونهم به من قبل . كانوا يضربون مثلاً آخر لأخلاقي المسلمين الحقيقة القائمة على ركيزة إنسانية لأنها تستوحى منهج الله وتعيش على هداه . ولكن أوربا الجاهلية المنحرفة عن عبادة الله لم ترتفع إلى هذا المستوى قط في تاريخها كله .. ^(١) .

(١) جاهلية القرن العشرين : الأستاذ محمد فطب ، (١٩٠-١٩١) .

ولقد طغت مفاهيم أوربا الجاهلية هذه على علاقات العالم ، فأصبح الغدر عرفاً دولياً والخيانة لباقه عالمية

وفي العلاقات الفردية : أصبح الوفاء مطلباً نادراً مع الأسف ، يُئْنَ من ضياعه كثير من الذين عصّهم الغدر ومن أقرب الناس إليهم .

بات العقوف متشاراً فلا يفعى الابن بواجبه المفروض عليه شرعاً ووفاء لوالديه . وانصرف لشهوته الدينية وتحولت كثير من المعاملات التجارية إلى الغش والاحتيال والغدر والخيانة ، إذ تكاد لا تأمن على مالك أين تضعه ، ولا كيف تسترده إن تورطت يوماً ما . وهاجم الغدر المؤسسات التربوية ، إذ أصبح هو السائد في مؤسسات كان يتوقعها أن تكون منبع الفضيلة والخير .

وغلب الطلاب أساتذتهم ، وتنكر كثير من طلاب العلم لشائخهم ، وقد ضربوا بِمُثُلِ الإسلام العليا عُرض الحائط ، ووجهوا نحو فوائد أسمها حادة دامية . وبات الجار لا يأمن من بوائق جيرانه ، بينما كان الوفاء وحسن الجوار ، ديدن المسلمين حتى مع أهل الذمة .

إن أخلاق العرب الأصيلة ، فد انهارت .. وأخلاق الإسلام البدائية كادت أن تندثر والأمل كبير في دعاء الإسلام عسى أن يعيدها إلى رونقها .. وفي شباب هذا الدين حتى ينتبهوا من جديد إلى أهمية الجانب الأخلاقى فى مسیرتهم والله لا يضع أجر من أحسن عملاً

٥ - الحرية وإباء الضيّم

إذا كان العربي قد عاش في بيئة مجده ، قليلة الضّرر نادرة الزّرع ، فإنه قد استعراض عن هذا الفقر المادي بأعظم الغنى وأكثره امتناعاً وإسعاداً ، ذلك هو الحرية والإباء ، .. لقد استمتع بخير ما يستمتع به المتحضرون ، لأنه عاش في الصحراء حرّاً كالماء ، طليقاً كالطير ، أياً كالأسد ، قوى القلب كالصخر ، منبسط النفس كالبطحاء »^(١)

وكانَت الحرية من طبيعة العرب منذ أقدم العصور ، فقد روى ديوس دورس الصقل أن الأنبياط وهم من أعراب بلاد الحجر العربية « بصرى » ، كانوا ينتظرون من بدر القمح وررع الأشجار الشمرة ، وبناء البيوت ، لما في هذه الأعمال من التضحية بالحرية طوعاً ، والأعراب الذين لم يستدِهم أحد وهم الدين لم يعطوا الفرس الجزية ، وقد أعطاها أهل فينيقيه وفلسطين كما ذكر هيرودونس »^(٢) .

وذكر ديوس دورس أن الآشوريين والفرس وغيرهم عجزوا عن احتلال جزيرة العرب مع قوة هذه الدول لعدة أسباب منها أن العرب كانوا يحرصون على إخفاء معالم الآبار عن الغرباء حتى لا يعلموا مواقعها ، فيقتلونها بلادهم »^(٣)

(١) الحياة العربية في الشعراً اهالي د.الخوالي ص ٣٥٢

(٢) حضارة العرب - جوزتاف ثوبون ص ٩٣ ترجمة عادل زعبي ، ط

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد علي ، ٤١٤/٢

وقد وصفهم ديدورس الصقلبي : بأنهم يعشقون الحرية ، فيلتحفون السماء ، وقد اختاروا الإقامة في أرضين لا أنهار فيها ولا عيون ماء ، فلا يستطيع العدو المغامر أن يجد له فيها مأوى ، إنهم لا يزرعون حبًا ولا يغرسون شجراً .. ولا يبنون بيوتاً .. ومن يخالف العرف يقتل وهم يعتقدون بالإرادة الحرة وبالحرية .

وهو يشارك في ذلك رأى هيرودوتus الذي أشاد بحب العرب للحرية وحفاظهم عليها ، ومقاومتهم لأية قوة تحاول استرقاقهم واستدلالهم ، فالحرية عند العرب من أهم الصفات التي يتصرف بها العرب في نظر الكتبة اليونان واللاتين ^(١) .

لقد عشق العرب الحرية ، وتعنوا بها في بطولاتهم ، والويل من يريد أن يقف في طريق هذه الحرية يقول لامانس : « ومبلغ حب العربي لحريته مبلغاً عظيماً كبيراً ، حتى إذا حاولت أن تخدعها أو تنقص من أطرافها هاج كأنه وحش في قفص ، وثار ثورة جنونية لتحطيم أغلاله والعودة إلى حريته ، ولكن العربي من ناحية أخرى مخلص مطيع لتقالييد قبيلته ، كريم يؤدى واجبات الضيافة والمخالفة في الحروب كما يؤدى واجبات الصداقة مخلصاً في أدائها بحسب ما رسمه العرف .. » ^(٢) .

« إن العربي شجاع لا يهيب الموت ، والحياة الجديرة بالحفظ في نظره إنما هي حياة البطولة والفتواة والقوة فلماذا يقبل العبودية ؟ إن الناس تستعبدهم الشهوات والمطامع والبقاء على الحياة ولكن العربي بعيد عن ذلك كله

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد علي ٢٦٢/١

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد علي ٢٦٥/١

كل عربى معتر بنفسه يأنف أن يخضع لغيره فلا يدين حاكماً أو رئيساً إلا إذا كان من القبيلة نفسها ، وهم يخضعون لشاختهم خضوع عصبية وائتلاف ، لاخضوع تملك وسلطان

ثم لماذا يخضع العرب لغيره ، وليس له مأوى يلزمهم فلا يريم عنه ؟! وحياته متقللة ؟ استعراض عن المدن بظهور الإبل والخيل ، واستبدل بالقوانين العصبية والتصرة والشجاعة^(١) .

والشعر العربي زاخر بهذه المعاني :

يقول جابر بن جنئي : إنهم يسلمون الملوك إذا سالموهم وعدلوا ، ولكنهم يقتلونهم إذا جاروا ، وليس قتل الملوك لدتهم حراماً ولا محالاً ، ويعتبرون أنفسهم أنداداً للملوك

ناعطى الملوك السلم ما قصدوا بنا وليس علينا فتنهم بمحرم وكائن أزروا الموت من ذى نحبة إذا ما ازدرانا أو أسف لائم^(٢) .
ومن صيحات الإباء وطلب العزة ورفض الظلم ، مقتل عمرو بن هند على يد عمرو بن كلثوم ، عندما بعى الأول وغلقه الزهو وأراد لأمه هند أن تستخدم والدة الشاعر كوصيفة فصاحت ليل : واذلاه ! يالتغلب ! ولما سمعها ولدها ثار الدم في وجهه ، وقام إلى سيف للملك (ابن هند) معلق بالرواق ، وليس هناك سيف غيره ، وقطعه به ، ونادي بني تغلب ، فانتهوا جميعاً في الرواق ، وساقوا نجائبهم وساروا نحو الجزيرة . وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم^(٣) :

(١) الحياة العربية : الحروف ص ٣٥٥

(٢) شعراء النصرانية : ٢٩٠ .

(٣) الشعر والشعراء : ٤٣٥/١ ، والمعلقة بشرح التبريزى . ص ٢٧٦

نطع بنا الوشاة وتزدرينا
متى كنا لأمرك مفتونين
على الأعداء قبلك أن تلينا
أبينا أن نفر الذل فيما
مع الأقارب والأبعد
مع الأصدقاء والأعداء ، وأين هم من ذلك الآن؟ ! يقول طرفة بن
العبد ، مهدداً متوعداً بعاقبة الظلم :

صَفَرَ الْبَنُونَ وَرَهَطَ وَرَدَةَ غَيْبٍ
حَتَّى تَظَلَّ لِهِ الدَّمَاءُ تَصَبَّبُ
بَكْرٌ نَسَاقِهَا الْمَنَابِيَا نَغْلِبُ
وَالظَّلَمُ فَرَقَ بَيْنَ حَسِيْ وَائِلَ
وَالصَّدْقَ بِالْفَهْمِ الْكَرِيمِ الْمَرْجُحِيَ
أَنْدَ رَفَضَ أَعْمَامَهُ أَنْ يَقْسِمُوا مَالَهُ ، وَيَعْطُوهُ نَصِيبَ أَمَهُ
وَرَدَةً ، بَعْدَمَا تَوَفَّ وَالَّدُهُ ، وَكَانَ طَرْفَةُ صَغِيرُ السِّنِّ .

والظلم عاقبته وخيمة ، مهما تجبر الظالم .. وذلك ما دعا بني أسد
أن يشبو على ملوكهم حُجز والد امرئ القيس ، وأن يقتلوه ..

فقد كان يأخذ منهم شيئاً معلوماً ، ولما رفضوا أن يدفعوا للملك سار
إليهم وقتل سرواتهم بالعصا ، وسموا عبيد العصا ، وأسر طائفة منهم ، فيهم
عبيد بن الأبرص ، فقام بين يديه وقال :

بَا عَيْنَ مَا فَابَكَى بَنِي أَسَدَهُمْ أَهْلَ النَّدَامَةِ
أَهْلَ الْقَبَابِ الْحَمَرِ وَآلَ ثَعَمِ الْمَؤَبَّلِ وَالْمَدَامَةِ
أَنْتَ الْمَلِيكُ عَلَيْهِمْ وَهُمُ الْعَيْدُ إِلَى الْقِيَامَةِ

بَأْيِ مَشِيشَةِ عَمَرُو بْنِ هَنْدَ
تَهَدَّدَنَا وَتَوَعَّدَنَا رَوِيدَأَ
فَإِنْ فَاتَنَا بَا عَمَرُو أَعْيَتَ
إِذَا مَا الْمَلِكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفَاً
لَقَدْ رَفَضَ الْعَرَبُ الظَّلَمَ بِيَابَاءَ
مَعَ الْأَصْدَفَاءِ وَالْأَعْدَاءِ ، وَأَيْنَ هُمْ مِنْ ذَلِكَ الْآنَ؟ ! يَقُولُ طَرْفَةُ بْنُ

الْعَبْدِ ، مَهَدِّداً مَتَوَعِّداً بِعَاقِبَةِ الظَّلَمِ :^(١)

مَا تَنْظَرُونَ بِمَالٍ وَرَدَةَ فِيْكُمْ
قَدْ يَعْتَلُ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ صَغِيرُهُ :
وَالظَّلَمُ فَرَقَ بَيْنَ حَسِيْ وَائِلَ
وَالصَّدْقَ بِالْفَهْمِ الْكَرِيمِ الْمَرْجُحِيَ

أَنْدَ رَفَضَ أَعْمَامَهُ أَنْ يَقْسِمُوا مَالَهُ ، وَيَعْطُوهُ نَصِيبَ أَمَهُ

وَرَدَةً ، بَعْدَمَا تَوَفَّ وَالَّدُهُ ، وَكَانَ طَرْفَةُ صَغِيرُ السِّنِّ .

(١) الشعر والشعراء . ١٨٧/١

فرحهم الملك وعفا عنهم ، وردهم إلى بلادهم حتى إذا كانوا على
مسيرة يوم من تهامة .. ركب بنو أسد كل صعب وذلول ، فما أشرق لهم
الضحي حتى انتوا إلى حجر فوجدوه نائماً قد بحوه وشدوا على هجائنه
واستاقوها^(١) . لقد رفضت بنو أسد الظلم فقتلت ملكها لغسل عار الأسر
والقتل والعبودية

ويرفض عنترة الظلم ، ويصر إباءه شرعاً تناقله الركبان :
أثنى على بما علمت فإني سهل مخالفتي إذا لم أظلم
إذا ضلمت فإن ظلمى باسل مر مذاته كضم العلق^(٢)
فالعربي لا يرضى بالظلم وهو القائل: إن الظلم لا يصلح به إلا اثنان :
الحمار والتوند

قال التلمس الضبعي^(٣)
إن أخوان حمار الأهل يعرفه والرسنة الأجد
ولا يقيم على خسف يُرَاد به إلا الأذلان غير الحسنى والوتؤ
هذا على الخسف معقول برمته وذا يشج فلا يكى له أحد
فالمهون لا يرضى به إلا الحمار ، والمدليل الذى لا يهم بإذلاله أحد .

كان العرب يحبون العدل والحق ، ويغضبون الظلم والجور

قال عامر بن الطفيلي :
ألم تعلمى أنى إذا الإلف فادى : إلى الجود لا أنداد والإلف جائز

(١) الشعر والشعراء لابن فتحية ١٠٥/١

(٢) شرح المعلقات للترمذى : ص ٢٣٦-٢٣١

(٣) الحماسة للبحترى: ص ١٩ الرسالة : الناقة السهلة السير - الأجد : الناقة القوية »

وما قاله دُرِيد بن الصَّمَّة في وصيَّاه : « لا تُحضروا نادِيكُمْ
الْأَسْعِيَه ، ولا تلْجُوا بالباطل فليَقُولُوكُمْ »

ويعتبر حلم الفضول من المظاهر الواضحة لحب العرب للعدل
إلا أن عرب الجاهلية بالغوا في طلب الحرية حتى خرجوا عن حدود
المعقول « لأنهم فهموها حرية مطلقة من القيود ، وكان هذا الفهم آثار سيئة
إلى جانب آثاره الحسنة ، فلم يكُن العرب يخضعون للقانون العام ، الذي
ينظم العلاقات الدينية والاجتماعية والسياسية إلا ليفلتوا منه - وقد رفضوا
أن يخضعوا لسلطان أبي بكر الصديق رضي الله عنه حسب تصورهم
وامتنعوا من دفع الزكاة مُذَعِّنِ أنها إتاوة »^(١)

إلا أن الحرية تحولت لدى العرب في الجاهلية إلى أنانية شديدة ،
وفردية مطلقة ، حالت دون تعاون الأفراد مع بعضهم ، ومنعت من
مساعدة القبائل ببعضها بعضاً ، مع وجود خطر أجنبي داهم ، وحالت دون
 تكون المجتمعات الكبرى وهي الحكومات ، واقتصرت التنظيمات السياسية
على القبائل . حتى أن هذا أثر في أشكال الحكومات التي تكونت في
الأماكن الخصبة من المتحضرين ، فجعلت منها اتحاداً مع قبائل جمعت بينها
مصالح متشابهة ، فإذا ما شعرت بزوال مصلحتها انفصلت عن هذا الاتحاد ،
وقد جاهات الحكومات العربية في الجاهلية والإسلام متاعب كثيرة من هذه
الروح القبلية العنيفة ومن الفردية المتطرفة ... ^(٢) .

على أن العربي لم يكن دائماً من يقفون عند حدود من العدل
والإنصاف في العصر الجاهلي ، بل كثيراً ما كان بعضهم يميل إلى الظلم

(١) الحياة العربية : الحوق ص ٣٥٧-٣٥٨ .

(٢) جواد على : ٤٠٩-٤٠٨/٤ .

والقسوة والغلظة مع كل من يستطيعون الاعتداء عليه ، وكل من يقدرون على استباحة حماه واستضعافه^(١) :

يقول عامر بن الطفيلي مصوراً مظالم الجاهلية^(٢) :

بقرنا الحبالي من شنوة بعدها خبطن بغيف الريح نهدأ وختعما
ويقول :

قتلنا منهم مائة بشيخ وصفناهم عصباً قياماً
ولا ننسى الحكمة الجاهلية التي يمثلها قول زهير :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحة يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
هذه هي الحرية التي كان يفهمها العرب ، ارتقى بها الإسلام إلى عزة
المؤمن وإيمانه الضيق داخل تعليمات الشرع الحنيف مع رفض الظلم أياً كان
نوعه ، كما سنرى في الفقرة القادمة .

(١) المعتقدات والقيم : ص ٤٣٢

(٢) ديوان عامر بن الطفيلي ص ١١٧ ، ١١٢

استعلاء الإيمان ومحاربة الظلم في الإسلام

إن الحرية التي تعلق بها العربي تعلقاً شديداً ، ربما خرجت به عن حد الاعتدال ، طيظلم القوى الضعيف ، فقطع الأرحام وتنتهك الحرمات ولذلك جعل الإسلام للحرية حدوداً وضوابط ، فإن حرملك تنتهي طالما سبب الضرر الآخرين ، ضمن القاعدة الشرعية : « لا ضرر ولا ضرار » .

ذلك لأن مصالح الناس مرتبطة ، ومشكلات المجتمعات متشابكة معقدة ، وهذا ما أشار إليه حديث رسول الله عليه السلام فيما رواه النعمان بن شير رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله عليه السلام : « مَثُلُ الْوَاقِعُ فِي حَدُودِهِ وَالْمَدَاهِنِ فِيهَا ، كَمَثُلُ قَوْمٍ رَكَبُوا فِي السُّفِينَةِ ، فَاسْتَهْمَوْا عَلَيْهَا ، فَرَكِبُوا فِي الْعُلُوِّ هُوَ وَرَكِبُوا فِي سُفْلِهَا ، وَكَانُوا إِذَا اسْتَقَوْا آذَوُهُمْ وَأَصَابُوهُمْ بِالْمَاءِ ، فَقَالُوا : إِنَّكُمْ قَدْ آذَيْتُمُونَا مَا تَمْرُونَ عَلَيْنَا ، فَأَعْطُوْا رَجُلًا فَأَسَأُ فَنَقَبَ عَنْهُمْ نَقَبًا ، قَالُوا : مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا : تَأْذِيْمُ بَنَا ، فَنَقَبَ عَنْدَنَا نَقَبًا نَسْتَقِي مِنْهُ ، فَإِنْ تَرْكُوهُمْ هَلَكُوا وَأَهْلَكُوا ، وَإِنْ أَخْذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجُوا وَنَجُوا »^(١) .

فالحرية الشخصية غير المنضبطة ستنهك الناس ، وتفرق السفينة بأهلها جيئاً ، ولذلك لا يصح أن تُترك الحرية للناس حسب الهوى والشهوات .. ولا يصح بحال أن ترفع صوت المذيع عالياً ولو كنت في بيتك ، لتقلق راحة الجيران ، ففيهم الشيخ والطفل والمريض ... ولا يجوز أن تقف

(١) أخرجه الإمام أحمد : ٤ / ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، والترمذى (٢١٧٤) في الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المكر وهو حديث صحيح انظر : شرح السنة : ٤ / ٣٤٢ .

بسيارتك ليحدثك صاحبك في سيارته وتعيقان المارة وحركة المرور ..
باسم الحرية الشخصية

ولا يجوز للمرأة أن تستهتر وخرج بملابس صفيفة شفافة كاسية عارية
باسم حريتها الشخصية ، فتفسد الشبان وتؤذى الأخلاق ..

ولا يصح أن يعبر رجال الفن الرخيص عن نزواتهم في الصورة
والكلمة - باسم الحرية الشخصية - ليتهكوا حرمات الدين والفضيلة
والأمثلة كثيرة في واقعنا المعاصر على التجاوزات غير المنضبطة ،
واستخدام مفهوم الحرية استخداماً جائراً منحرفاً

هذا وإن الإسلام قد شجع المسلمين على إبداء الرأي بحرية
وشجاعة ، جعلت من الغرب قادة لا يهابون الموت بهذا الدين ، شجاعاناً
ضمن آفاق هذه الرسالة ولم لا ؟ وهذا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه
يقول : « إن الرجل ليعجبني إذا سيم خطة خسف أن يقول لا بلء فيه ». .
 فهو لا يكتفى بالاستماع إلى الرأي المخالف وإنما يعلن الإعجاب
بالمظلوم الذي يصدع بظلمه .

ومن هنا كان الأعرابي يقول لأمير المؤمنين ، وخليفة المسلمين ، ما
يريد قوله معارضًا مخالفًا دون أن يخشى في الله لومة لائم .. فأين هذا من
السلط بالرأى عند الكثير من أولياء الأمور في هذا العصر ؟!

استعلاء الإيمان :

لقد روى المسلم على إباء الضيم فهو لا يهاب إلا الله ، ولا يخضع جبهة
إلا لخالقه ولَمْ يخاف والأعمار بيد ربه ؟ ولِمَ يَتَرَكُفُ والأرزاق مُقدرة ؟!
إن الإيمان إذا تَمَكَّنَ من نفس المسلم استعمل به .

« إن الإيمان يمثل حالة الاستعلاء التي يجب أن تستقر عليها نفس المؤمن إزاء كل شيء وكل وضع .. وكل أحد ..

الاستعلاء الذي لا يتهاوى أمام القوة الباغية ، ولا أعراف المجتمع ولا التشريع الباطل ، ولا الوضع المقبول عند الناس ولا سند له من الإيمان »

« إن المؤمن هو الأعلى سندًا ومصدراً ، فما تكون الأرض كلها ؟ وما يكون الناس ؟ وما تكون القيم السائدة في الأرض ؟ والاعتبارات الشائعة عند الناس ؟ وهو من الله يتلقى وإلى الله يرجع وعلى منهجه يسير ؟ » « المؤمن ينظر إلى الباطل المنتفش وإلى الجموع المخدوعة فلا يهين ولا يحزن ولا ينقص إصراره على الحق الذي معه ولا تضعف رغبته كذلك في هداية الضالين والمخدوعين »^(١) قال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَخْرُبُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ سورة آل عمران : ١٣٩

استعلاء الإيمان هذا هو الذي صنع الأعاجيب .. استعلاء الإيمان هذا هو الذي جعل المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - يقف أمام جبروت الفرس في معسكر رُسْتم قائد الفرس المشهور ، بعزة المؤمن وإذراء المخالفية .. يجلس على سرير رستم ووسادته ولما نهروه قال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم ..

إنا معشر العرب سواء ، لا يستبعد بعضنا بعضاً ، .. وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ، وإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ، وأنا لم آتكم ولكن دعوتموني .. واليوم علمت أن أمركم مض محل وأنكم مغلوبون .

(١) معالم في الطريق : فصل استعلاء الإيمان .

وهذا الموقف العزيز من هذا الأعرابى الذى يجاهه القوة العاتية آنذاك ،
إنما صنعه الإسلام العظيم .. ليصبح الداعية الملهم الذى يلقن دهاقنه فارس
مبادئه المساواة والعدل والأدب

ويشبه هذا الموقف : موقف ربعى بن عامر مع رستم أيضاً حيث بلغ
دعوة الإسلام بكل جرأة ، عندما سأله ما جاء بكم ؟ قال : « الله ابتعثنا
لتخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ،
ومن جحور الأديان إلى عدل الإسلام »^(١) .

وكان رسول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قد جاہبوا كسرى
(يزدجرد) بعزة المؤمنين يُبَيِّنُونَ له دعوة الإسلام فإن قبلها وإلا فالقتال
بيهيم^(٢) .

الإسلام يحرم الظلم :

ويرى المسلم على رفضه ، ويحافظ على حقوقه ..
قال تعالى : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيرٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » غافر : ١٨
فمصيرهم في الآخرة مفزوع ، وعقابهم في الدنيا لا بد أت قال عليه السلام : « ليس
ذئب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة الرجم »^(٣) .
فالباغى يصرع في الدنيا وإن كان مغفوراً له مرحوماً في الآخرة .

(١) انظر تاريخ الطبرى : ٤٩٦/٣ وما بعدها

(٢) من هؤلاء : النعمان بن مقرن والمغيرة بن زرارة الأسيدى وذلك قبل القادسية
(انظر المصدر السابق) .

(٣) رواه الترمذى وقال عنه : حديث صحيح ، والمستند للإمام أحمد : ٣٦/٥ .

ويقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولا ندوم مع الظلم
و والإسلام^(١) .

و حذر الرسول ﷺ من دعوة المظلوم .

عن معاذ رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « اتّقِ دعوة المظلوم
فإنّه ليس بينها وبين الله حجاب »^(٢)

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ ظلَمَ قِيدَ
شَيْرَ مِنَ الْأَرْضِ طُوقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ »^(٣)

وفال ﷺ : « الظلم ظلمات يوم القيمة »^(٤) وأعلن سبحانه وتعالى
في الحديث القدسي حرمة الظلم : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسى
و جعلته بينكم محرماً فلا ظلموا »^(٥)

واهتماماً من الإسلام بدفع الظلم أباح الشهير بالظالمين قال تعالى :
« لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهَرُ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلَيْهِماً »

« النساء : ١٤٨ »

فالإسلام يحمى سمعة الناس ما لم يظلموا ، فإذا ظلموا لم يستحقوا
هذه الحماية ، وأذن للمظلوم أن يجهر بكلمة السوء في ظالمه ، وكان هذا هو
الاستثناء الوحيد من كف الألسنة عن كلمة السوء ...

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن نعيم : ص ٤٨

(٢) متفق عليه : البخاري ٢٨٣/٣ ، ٢٨٥ ، ومسلم (١٩)

(٣) متفق عليه : ٨٦/٥ ، ومسلم ١٦١٢٣ (عبد الباق)

(٤) صحيح البخاري : كتاب المظلوم ١٩٩/٣ من كتاب طبقات الشعب

(٥) صحيح سلم : كتاب البر والصلة والأدب ، باب تحريم الظلم : ١٣٢/١٦ -
شرح النووي - ط دار إحياء التراث العربي .

وهكذا يوقف الإسلام بين حرصه ، على العدل الذي لا يطيق معه الظلم ، وحرصه على الأخلاق الذي لا يطيق معها خدشاً للحياة النفي والاجتماعي^(١) .

وقد صور القرآن مصير الظالمين تصويراً حياً . قال تعالى على لسان نوح عليه السلام : « وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا » سورة نوح : ٢٤ .

وقال : « مَنَّا خَطَا تِبْيَهُمْ أَغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَعْمَدُوا هُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا » نوح : ٢٥ .

فبحطيئاتهم وذنوبهم ومعصياتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً والظالمون كانوا بغاة طغاة ، فهم يرون العذاب فيتهاوى كبرياً لهم ويتساءلون في انكسار : « هل إلى مرأة من سبيل ؟ »^(٢) .

هُوَ وَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِنْ مَرَرْتَ مِنْ سَبِيلٍ^(٣)
وَتَرَنَّهُمْ يُعَرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَنَّ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ
« الشورى : ٤٤-٤٥ » .

والظلم محرم في جميع صوره وأشكاله ، فظلم الزوجة محروم كظلم الغريب وكذلك الظلم بين الإخوة وظلم الأبناء وعدم العدل بينهم ، وظلم رب العمل لعماله واقطاع أجورهم ولذلك كان ظلم ذوى القرى أشد مضاضة على المرأة من وقع الحُسَام المُهَنَّد :

وعاقبة الظلم وخيمة في الحياة الدنيا ، فكم من أناس تجبروا وظلموا فأذلهم الله في الحياة الدنيا .

(١) في ظلال القرآن : ٧٩٦/٢ .

(٢) في ظلال القرآن : ٣٧١٦/٦ ، ٣١٦٨/٥ .

إن العدل مطلب عظيم ، لابد من أن نرى الأجيال على تحقيقه ، لأن الظلم صارخ في حياتنا المعاصرة بين الأفراد وعلى نطاق المجتمعات الدولية . والصدع بكلمة الحق واجب شرعاً في حدود درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فالعربي شجاع يأْنِي الضيم ، والمسلم أَبِي شجاع بتعالي بآياته ، ولابد من عودة هذا الخلق النبيل إلى واقع حياتنا المعاصرة ، فقد كثرت المظالم في هذه الأمة ، فاذلها أعداؤها من كل حَدَبٍ وصُوبٍ .

لقد طمع فينا أراذل الشعوب ، وهانت نفوس هذه الأمة مع الأسف ، وكأننا لسنا أحفاد خالد وسعد وأئِي عبيدة ، وأنى بكر وعمر وأصحابهما .. بل أين الإباء عند أحفاد العرب ، أين الشَّمَمَ وعزَّةَ النفس؟ لقد تكالبت علينا الأُمُّ ، ولا رادَ لذلك إلا فضل الله ورحمته وعودته من المسلمين إلى عزة دينهم ، وجهاد شرعى صادق ، وليس ذلك على أبناء هذا الدين ببعيد .

٦ - حُسْنُ الْجِوَارِ حُلْقٌ عَرَبِيًّا أَصْبَلٌ

جاء في القاموس المحيط : الجوار أن تعطى الرجل ذمة فيكون بها
جارك فتجيره والجار أيضاً الحليف^(١).

ويقال للذى يستجير بك : جار ، والجار هو الذى أجرته من أن
يظلمه ظالم ، وجارك : المستجير بك ، والجير هو الذى يمنعك ويجيرك ،
وأجاره : إنقذه من شيء يقع عليه^(٢).

ولقد قدس العرب هذا العُرف - الجوار - تقديساً كبيراً ، وكان مما
يفخر به العرب أن يكون ملذاً لكل خائف وملجاً لكل طريد ، لأن في
ذلك اعترافاً بقوته ومرءاته وكرمه .

وهي فضائل يعتز بها كل عربي ، ويفخر بأن تُنسب إليه ، سواء أكان
هذا التزيل بالجوار قد التجأ بسبب خلع قبيلته له ، أو بغير هذا السبب^(٣) .

والغاية من الجوار : هو طلب الحماية ، والمحافظة على النفس والأهل
والمال ، ولا يجير إنسان آخر إلا إذا أحسن أن في إمكانه أداء أمانة الجوار ،
وإلا عرض نفسه وقبيلته للأذى والسببة والعار .

(١) القاموس المحيط : مادة الجور ولسان العرب : ١٥٤/٤ كلمة جور .

(٢) الشعراء الصعاليك : يوسف خليف ص ٩٣ ، ٩٤ .

وقد استفاد من حق الجوار الغباء والمسافرون والمحاجون وأمثالهم ، فقد أمنوا على راحتهم ورزقهم ، وهم في محيط صعب ، كما أمنوا على حياتهم حتى أن المجرم قد يغفر لجاره ما قد يدو من سوء بسبب حكم الجوار .

قال مجير لجاره : « لولا أنك جار لقتلناك » .

وكان من وسائل إكرام العرب في الجاهلية لجارهم - غير حمايته وإعزازه - رعاية حقه والتغاضي عن عيده ، وحفظ جواره ، والوفاء بعهده^(١) .

وفي ذلك يقول المثقب العبدى^(٢) :

أكرمُ الجار وأرعى حفه إن عرفان الفتى الحق كرم
وفي التغاضي عن عيده وحفظ جواره . يقول قيس بن عاصم^(٣) :
لا يفطرون لعيوب جارهم لهم لحفظ جواره فطن
وكانت بعض القبائل إذا أجرت تعطى حليفها براءة بأنه جارها ،
فقد يدفع إليها سهماً مكتوباً عليه فلان جار فلان ، كما كان يفعل بنو غنم بن
عوف من الخزرج في المدينة المنورة . حيث كان يقال للرجل إذا استجear
بيترب : قوقان في هذا الجبل ثم قد أمنت ، فإذا فعل أحد ذلك وجب على
أهل بيته قبول جواره والدفاع عنه ، وكان قوقل رجلاً من الخزرج اسمه
(غنم بن عوف بن عمرو) سمي به لأنّه كان إذا أتاه إنسان يستجير به أو
بيترب يقول له : « قوقل في هذا الجبل وقد أمنت » . وقيل سمي بذلك

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على ، ٤/٣٦٢ وبعدها .

(٢) انظر : المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي ص ٣٢٥ .

(٣) ديوانه : ص ٢٢٩ شرح الديوان ديوان للمرزوقي : ٤/١٥٨٤ لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٦٧ م) .

لأنهم كانوا يعطون المستجير سهماً ويقولون له : قوقل حيث شئت ، أى سير به حيث شئت^(١) .

وقد أغروا الخليف الجاور حتى أن قريشاً كانت تترفع عن تزويع بناتها من غيرها إلا إذا كانوا من حلفائها ، وبلغ من مكانة الخليف أنه كان يُعدّ من العشيرة ، ولذا كان المجير يرثه في ماله ، وقادوا في حياة الجبار إلى حد زعموا حمايته من الموت ، وذلك أنه إذا مات دفع حاميه ومجيده ديته إلى أهله ، وقد رضى عامر بن الطفيلي أن يجير الأعشى من الموت^(٢) .

وقد بالغ العرب في التنويه بحمايةهم للجبار واللاجئ حتى قالوا : إن مدلج بن سويد الطائى خلا يوماً في خيمته فإذا هو بقوم من طيء ومعهم أوعيائهم فقال : ما خطبكم ؟ قالوا : جراد وقع بفنائك فجئنا لتأخذنه . فركب فرسه وأخذ رمحه وقال : والله لا يعرضن له أحدكم إلا قتلته . إنكمرأيتموه في جواري ثم تريدون أخذنه ! فلم يزل يحرسه حتى حيث عليه الشمس وطار فقال : شأنكم الآن فقد تحول عن جواري . فقالوا : أحمى من مجير الجراد .

ويقال : إن المجير كان حارثة بن مر الطائى وفيه يقول شاعر طيء^(٣) :
ومنا ابن مر أبو حنبل أجار من الناس رجل الجراد
ومن دخل دار أحدهم والتوجه إلى فنائه عدوا فعله حرمة وجواراً
وذماراً ، بل إن تعلن ذلك بالوحشيات والهوم ، حتى أنهم كانوا يسمون
 بذلك : مجير الجراد ، ومجير الغزال ، ونحو ذلك . وفي الأمثال : [أحمى من
 مجير الجراد] ، وأحمى من مجير الظعن ، وهو ربيعة بن مكدم الكنانى الذى

(١) الحوف : الحياة العربية ، ص ٢٨٥ ، وجود على : ٣٦٢/٤ .

(٢) انظر : الحياة العربية للحوف : ص ٢٩٠ .

(٣) أمثال الميدانى : ٢٠٢/١ المطبعة البابية بمصر .

حمى الطعن حياً ومتاً ، إذا وقف فرسه على عقبة (راية) ، واتكاً على رمحه ودمه ينزف (خلال القتال) وال القوم بإزائه يحجمون عن الإقدام عليه ، حتى نجت الطعن بسبب ذلك^(١) ومن حرمة الجوار عند العرب في الجاهلية أن من دخل حرم البيت بمكة صار في جواره آمناً مطمئناً ، وعلى قربت الذب عنه^(٢) وقد يستجير إنسان بقبر فصبر في جواره وفي حرمة ذلك القبر وعلى أصحاب ذلك القبر الذب عن هذا الجوار والدفاع عنه .

ومن هذا القبيل استجارة الناس بقبر عامر بن الطفيلي ، كان قومه من بني عامر ، قد وضعوا حول قبره أنصاباً على مسافة منه إذا اجتازها اللاجيء ، ودخل الحرم المحيط بالقبر صار آمناً على نفسه وماليه ، وقد منعوا دخول حيوان إليه أو مرور راكب به ، احتراماً لحرمة صاحب هذا القبر^(٣) .

وكان الاعتداء على الجار مثيراً لحفظتهم ، كأنه اعتداء عليهم ، وكثيراً ما نشب الحروب بسبب الاعتداء على الجار كما حصل في حرب سمير وهو من أيام العرب بين الأوسن والخزرج (وقد تحدثنا عنه في أيام العرب) . ولذلك قالوا : فلان منيع الجار حامي الذمار . فالجوار خلق عرى أصيل ، ذو دوافع طيبة ، إلا أنهم انحرفوها به عن غاياته النبيلة كما نرى في هذه القصص الآنفة الذكر وكان لابد من إعادة الأمور إلى نصابها ، وإلى ترسیخ معانى حسن الجوار بلا جذور ولا شطط وهذا ما جاء به الإسلام كما سنرى في الفقرة القادمة) .

(١) انظر بلوغ الأربع : الألوسي ١٤٤-١٤٥ / ١ .

(٢، ٣) جواد على : ٤/٣٦٢-٣٦٣ .

لقد تاه الشعرا يفتخرن بأنهم ممتنعوا الجار ، كرماء يعطون العطاء
الجزيل ، وهذا عوف بن عطية بن الخزع من ظيم الرباب يفتخر^(١) :
أحلى الخليل وأعطيتى الجزييل حياء وأفعل فيه البسara
وأمنع جارى من المحففات والجار ممتنع حيث صارا
وقال عبد الله بن جنح النكرى يفتخر بعزوة قومه ، وأن جارهم عزيز
الجانب^(٢) :

من معشر يأبى الهوان أحوهם شم الأنوف ججاجع سادات
عزوا وعز بعزم من جاوروا لهم الذرى وغلاصم الهامات
وقد اشتهر بحسن الجوار ومنعته كثير من سادات القبائل حتى أن
الخلعاء كانوا ينزلون بجوارهم ، فيجدون الأمان والحماية . ومن هؤلاء
السادة الزبير بن عبد المطلب بمكة^(٣) .
وكان البراض الكنافى قد نزل على حرب بن أمية ، فحالقه وأحسن
جواره^(٤) .

ولجا مطرود بن كعب الخزاعى إلى عبد المطلب بن هاشم بن عبد
مناف بجنابة كانت منه فحمة وأحسن إليه^(٥) .
وكان من العار أن يُهان الخليف المحاور ، المستجير بأحد البيوت ،
ولأن لم يكن فيه إلا امرأة أو طفل ، فيجد الحماية والأمان .

(١) المفضليات : رقم (١٢٤) .

(٢) الأصمعيات : رقم (٣٠) ، والغلاصم : ج غلصمة وأصلها رأس الحلقوم وتستعمل
معنى الشرف - الذرى : الأعلى - هامات : رؤوس - ججاجع : سادة كرماء .

(٣) الشعر والشعراء ابن قتيبة .

(٤) الأغانى : ٧٥/١٩ ، طبعة بولاق

(٥) معجم الشعراء : المرزيقان ٣٧٥ ، طبعة ١٣٥٤ هـ .

وقد استفاد المسلمون في العهد المكى من هذا العرف ، حيث عاش الرسول ﷺ في حماية عن أبي طالب ، ودخل مكة بعد رجوعه من الطائف بحماية المطعم بن عدى .

وقصد بعض المسلمين أرض الحبشة ونزلوا مطمئنين بجوار النجاشي ملوكها . وعاش الصديق رضى الله عنه فترة في جوار ابن الدغنة ، ولما حاولت قريش منعه من الصلاة في مسجد بيته على قارعة الطريق ، عن طريق ابن الدغنة رد عليه جواره وقال : « أرد عليك جوارك وأرضي بجوار الله » .

واشتهر في العرب مجبرات من النساء :

وقد علت المرأة إلى هذه المكانة فأجارت وقبل جوارها أجارت فكيهة بنت قادة - خالة طرفة بن العبد - السليلي بن السلكة ، وحمتها من بكر بن وائل ، فمدحها السليلي مشيدا بعملها وحمايتها في قوله^(١) :

لعمُرُ أَيْكَ وَالْأَنْبَاءِ شَمِيْ لَنْعَمُ أَخْتَ بَنِي عَوَارَا
عَنِيْتَ بَهَا فَكَيْهَةَ حِينَ قَامَتْ لَنْصَلُ السَّيْفِ وَانْتَزَعَوْا الْخَمَارَا
مِنَ الْخَفَرَاتِ لَمْ تَفْضُحْ أَخَاهَا وَلَمْ تَرْفَعْ لَوَالَّدَهَا شَنَارَا
وَحَمَتْ زَيْطَةَ بَنْتَ جَذَلَ الْطَّعَانَ دَرِيدَ بْنَ الصَّمَةَ اعْتَرَافًا بِفَضْلِهِ لَأَنَّهَ
كَانَ قَدْ أَعْطَى رَمْحَهُ ، رِبِيعَةَ بْنَ مَكْدَمَ يَوْمَ حَمَى الظَّعِينَةِ ، فَأَلْقَتْ عَلَى دَرِيدَ
تُوبَهَا وَقَالَتْ : يَا آلَ فَرَاسُ أَنَا جَارَةُ لَهُ مِنْكُمْ ، هَذَا صَاحِبُنَا يَوْمَ الْوَادِيِّ .

فَحَبَسَهُ الْقَوْمُ وَقَالُوا : يَنْبَغِي أَلَا نَكْفُرْ نَعْمَتَهُ ، ثُمَّ أَطْلَقُوهُ سَرَاحَهُ
وَكَسْتَهُ رِبَطَهُ وَجَهَزَهُ وَلَحَقَ بِقَوْمِهِ^(٢) .

(١) المخبر : ٤٣٣

(٢) انظر المرأة من الشعر الجاهلي : نساء مجبرات ص ٥٣٥ .

وقد أقر الإسلام هذا العرف ، قال عليه السلام : « المؤمنون تكافأ دمائهم ، وهم يد على من سواهم ، ينسى بدمتهم أدناهم »^(١) لذلك قال لأم هانئ : « قد أجزنا منْ أجزت »^(٢) .

وكان العرف في الجاهلية أن على الجار واجبات لمن أجاروه كأن يحترم هذا الجوار ، ولا يسى إلى من أجاروه لا في أشخاصهم ولا في سمعتهم .

حقوق الجار في الإسلام

عرفنا أن الغرباء والمسافرين قد استفادوا من هذا العرف عند العرب ، ونزل المجاورون والخلفاء قرب الأحياء ومضارب الخيام ، ليجدوا الأمان والطمأنينة في بيئة ليس فيها حكومة ولا قوانين محددة إلا هذه الأعراف القبلية ، والأخلاق المرعية .

وعرفنا أن العرب في الجاهلية ، قد بالغوا في هذا العرف حتى شملت حماية الجار الحراد والغزال وكذلك المخلوع والفتاك .

وجاء الإسلام بأنواره ، فاحترم حقوق الجار ، ثم أوصى بالجيران عموماً ، وأرسى قواعد الحياة الاجتماعية في جو تسوده الأخوة والتراحم والتعاطف ، بين الجيران من المسلمين بل والناس جميعاً .. اعتبرهم الإسلام كالجسد الواحد في تعاطفهم ومشاركتهم الوجودانية .

(١) الحديث صحيح : انظر صحيح سنن النسائي رقم ٤٤١٣ .

(٤) متفق عليه بنظر مشكاة المصاييف ٣٩٧٧ .

قال عليه السلام : « مثيل المؤمنين في ثوادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكتى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »^(١).

وحيث القرآن على رعاية حقوق الجار ، فحضر من الشرك وعقوف الوالدين ، وذكر معها التخدير من إيداء الجيران قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنَا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْجُنُبِ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجُنُبِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ النساء : ٣٦ . وجعل الإسلام أنه (من سعادة المرأة الجار الصالح والمركب الهنيء والمسكن الواسع)^(٢).

وقد جعل هذا الدين الإحسان إلى الجار من علامات الإيمان « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »^(٣).

وقد بلغت عناية رسول الله عليه السلام بشعور الجيران أن قال لصاحبه أبي ذر رضي الله عنه : « يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد حيرائك »^(٤).

وذلك حتى لا يتأنى المحتاجون والأطفال من هؤلاء الجيران . هكذا بلغت العناية بمشاعر الجيران ، بل إن الرسول عليه السلام ، يرسى قواعد العدل

(١) رواه البخاري في صحيحه .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده : ٤٠٧/٣ . وقال الميشعري في مجمع الزوائد ١٦٣/٨ رواه أبو عبد الله رجال الصحيح .

(٣) رواه الإمام مسلم (بشرح النووي) : ١٨/٢ .

(٤) رواه مسلم (في البر) ١٤٣ .

الإلهي عندما يقول : « ما آمن في من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم »^(١) .

ذلك هو التكافل الحق الذي يرى الإسلام عليه أتباعه ، بحيث يؤسس المجتمع القوى المتعاطف ، مما عجزت عن تحقيق مثل هذه العدالة الأنظمة الحديثة غربيها وشرقيها وما زالت تتخبط في دياجير الظلمة والخيرة .

التحذير من الإساءة إلى الجيران :

حافظاً من الإسلام على ستر العورات ، وحفظ أسرار الجيران وأعراضهم يقول عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه »^(٢) .

وجار السوء إنسان حبط عمله ، ولا إيمان له كما أشار إلى ذلك الحديث الشريف ... ذلك أن الشمرة الطبيعية لهذا الإيمان الخلق الحسن والبعد عن الأذى .

قيل لرسول الله ﷺ : « إنَّ امرأة تقوم الليل وتصوم النهار ، ولكنها تؤذى جيرانها . فقال : هي في النار »^(٣) .

إذ لا قيمة لهذا القيام ، وذاك الصيام ، مع تعمد الأذى للجيران !؟ وقالوا : « وفلانة تصلي المكتوبة ، وتصدق بآثار ، ولا تؤذى أحداً ، فقال رسول الله ﷺ : « هي في الجنة »^(٤) .

(١) رواه الطبراني والبزار عن أنس والحديث صحيح (ينظر صحيح الجامع الصغير ج ٢ ص ٩٦٧)

(٢) مسلم مع الشرح : ١٧/٢ ، « والبواقي : الغواص والشروع » .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، « والأثار : جمع ثور وهي قطعة من البر الجامد المستحضر » .

وماذا نقول عن واقعنا المريض في هذا العصر ؟ إن كثيراً من الناس يتلذذون بإيذاء غيرائهم ، حتى بعض الطيبين قد لا يتورعون عن الأذى بشكل أو باخر .

إن للجار في الإسلام حرمة مصونة ، لم تعرفها قوانين الأخلاق ولا شرائع البشر ، بل إن تلك القوانين والشائع الوضعية لست مرئي العبث بحرمة الجار وعرضه ، غالباً ما يكون العبث بعرض الجار أسهل تناولاً ..

وما شاعت فيما تلك الأغاني المائعة التي تصف جار الشباك وغيره إلا حينما زايلتنا أخلاق الفتوة والإيمان ، وغضبتنا غواش من ليل التقليد ، ومجات الغزو الفكري والحضارى ، فبات الفتى الأرعن يتغنى بجارته ويتجول بها في حين لم يُعرف هذا عَنَّا في جاهليتنا بلة إسلامنا .

فعترة الجاهلي كان يقول :

وأغض طرف ما بدلت لي جاري حتى يوارى جاري مأواها
وفي الإسلام يعتبر الزنا في زوجة الجار من الكبائر « أن يزاني الرجل حليلة جاره »^(١) .

وفي الشقق المرصوصة قلما يتعرف الجار على جاره حتى في الموسم والأعياد .

لقد غزتنا أخلاق الغرب المتسيب المتفكك ، فأصوات المذيع ناهيك عن التلفاز تكاد تصم الآذان وتتفرق الناس الليالي الطوال ..

وماذا يصنع المسلم التقى إذا ابْتُلِي بجيران سوء ؟! أينصح ويعترض ؟
والقوانين الوضعية والأعراف الجاهلية لا تبيح له ذلك بحججة التدخل في

(١) انظر : شخصية المسلم : د. محمد علي الهاشمي ، طبعة ١٩٨٣ م (ص ١٧٩-١٧٨) « الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية » .

شُؤون الناس ، ومنع حريةهم الشخصية ، ولو كانوا يرتكبون الفواحش والموبقات . نسأل الله السلامة والنجاة في العُربَة الثانية .

وإذا كانت حضارة الإسلام ، وهدى الرَّحيم ، لا ترضى أن يتأنى المسلم بربع قدر جاره المثير لشهوة الطعام ، فإن حضارة الغرب المادية تتلف فناظير الغذاء وتلقىها في البحر محافظة على مستوى سعره العالمي ، في حين أن الملايين من البشر يعانون الجوع والفقر والجفاف في كثير من دول أفريقيا وأسيا.. ويهددون بالموت جوعاً ، تحت ضغط أثانية الأثرياء وجشعهم في حضارة القرن العشرين الزائفة .. وفي هدى الإسلام أن الإحسان يشمل الجيران المسلمين وغير المسلمين .

روى أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم ، ذُبِحَت له شاة فسأل غلامه : « أهديت لجارنا اليهودي ؟ أهديت لجارنا اليهودي ؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »^(١) .

ومن هنا كان أهل الكتاب يعيشون في جوار المسلمين آمنين مطمئنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ومعتقداتهم ينعمون بحسن الجوار .

ولقد سأله بعضهم رسول الله ﷺ : ما حق الجار على فقال : « إن استقرضك أقرضه وإن استعانك أعتنه ، وإن مرض عدته ، وإن احتاج أعطيته ، وإن اتفق عدت عليه ، وإذا أصابه خير هبته ، وإذا أصابته مصيبة عزّتها وإذا مات اتبعت جنازَته ، ولا يُستطال عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذيه بربع قدرِك إلا أن تعرف له منها . وإن

(١) الحديث صحيح ، متفق عليه ينظر صحيح الجامع الصغير ج ٢ ص ٩٨٤ .

اشترىت فاكهة فاھد له وإن لم تفعل فأدخلنها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيط بها ولده^(١).

فهل عرفت المجتمعات البشرية جاراً أفضل من هذا الجزار المسلم؟ وهل تستطيع حضارات الشرق أو الغرب أن تصل إلى ما وصلت إليه الحضارة الربانية عند المسلمين؟ إلا أن المأساة تكمن في بعد المسلمين اليوم عن هذا المسبح الصاف الرقراق ، منبع التطبيق الواقعى لتعاليم الإسلام إن الذى ينقصنا اليوم : هو العودة إلى فهم عقيدة السلف مع تطبيق هذا الفهم في الواقع العمل للحياة وألا يكون هنالك انفصام نكدر بين النظرية والتطبيق بين العبادة ومقتضياتها السلوكية في التهذيب .. ألا ما أحوجنا إلى التربية الصادقة ضمن هذه المفاهيم فلا تجرفنا الأخلاق النفعية أخلاق الأمم الوافية .. حتى أصبح كثير من أبنائنا يتبعون عن روح هذا الدين بل عن أخلاق العرب الأصيلة .

وماذا نقول عن سوء الجوار بين أقطار العرب والمسلمين؟ صار الضعيف لا يأمن على ممتلكاته وأعراضه ، وحرمات جاره العربي المسلم بل ربما أصبح العدو البعيد والحاقد المريب من أهم وسائل الأمن والاستقرار المزعومين . ليخلص المسلمين من سوء الجوار والشر المرتقب والعدوان الغاشم ، ألا ما أحوجنا من جديد - إلى أصالة حسن الجوار عند العرب ، وشفافية هذا الخلق عند المسلمين ، كما علمهم هذا الدين الحنيف .

(١) رواه الطبراني من حديث ثور بن حكيم عن أبيه عن جده والخرائطي في مكارم الأخلاق والحديث أساسه واهية لكن اختلاف مخارجها يشعر بأن للحديث أصلاً (ينظر عنون الباري الجلد السادس ص ١٤٣) .

٧ - الحِلْمُ عند العرب

أعجب العرب بهذا الخلق ، واشتهر به بعضهم ، ومُدح لذلك أصحابه ، ولا عراة في ذلك ، حيث الطيش وسرعة الانفعال والاستسلام للثورة والهيجان ..

« والحلم لا يتم إلا بإمساك الجوارح كلها ، اليد عن البطش واللسان عن الفحش ، والعين عن فضولات النظر » ... ومن ذَقَ النظر في شعر العرب وخطبهم ، ووقف على لغتهم تبين لديه ما ذكرنا .

هناك كلمة كانت تقال عندهم في مواطن الغضب والتثاجر ، فإذا سمعها أحدهم ، كفَّ عما كان بصدده من التشفى وأخذ الانتقام وهي : « إذا ملكَ فأنسِجْ ». يقصد بها طلب العفو والحلم عند ثوران الغضب ..

والحلم عند العربي في غير موطنه يعتبر ذلاً ، والصبر على ما لا يُحمد زلة » .

« كان الحلم في نظرهم فضيلة ، ولو خالف السائد من أخلاقهم ولذلك كثُر في شعرهم ومناسباتهم مدح الحلماء »^(١) .

مدح أحد شعرائهم « خلف بن خليفة » قوماً من العرب بالحلم ، وإن حدث ما يثيرهم ، وإذا ثاروا كانت ثورتهم عارمة يقول^(٢) :

(١) بلوغ الأربع : (١٠١-٩٩/٢٠١) ، وانظر الحلم : في الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، د. المعرف ص ٣٤٩ .

عليهم وقار الحلم حتى كأنما ولديهم من أجل هيته كهُلْ
إذا استجهلوا لم يغُرِّبُ الحِلم عنهم وإن آثروا أن يجهلوا عظم الجهل
وعندما رأى المُهَلِّل أخاه كلياً، وصفه بالحلم والعفو عند
المقدرة^(١) :

وإنك كنت تحلم عن رجال وتعفو عنهم ولنك اقتدار
وتمنع أن يمسّهم لسان خافَةً مِنْ بُحْرَيْرُ ولا يُجَارُ
ومن فخرهم ما ذكره مالك بن حريم الهمذاني^(٢) :
ومنا رئيسُتُضائِءُ بِحَلْمِهِ سناءً وحلماً فيه فاجتمعوا معاً
وكانوا يفخرون بالحلم مقوروناً بالشجاعة ، وعندما يرثى كعب بن
سعد الغنوى أخاه ، يفخر بأنه كان شجاعاً حليماً^(٣) :

أخى ما أخى لا فاحشَ عند بيته ولا وَرَعَ عند اللقاء هِسْوبُ
هو العسل الماذى حلماً ونائلأً وليث إذا يلقى العدو غضوبُ
لقد كان أما حلئه فمرؤَّح علينا وأما جهله فغزيرُ
حليم إذا ما سُورَةُ الجهل أطلقت حُبَّى الشيب للنفس اللجوج غلوبُ
ورغم حميّتهم فقد كانوا يحلمون على الفريب والصديق ، لأن الحلم
عليهما لا يعد في نظرهم مذلة .

ولمن بن أوس قصيدة رائعة تصور حلمه مع صديقه ، وقد أملتها
عليه عاطفة حارة صادقة يقول فيها^(٤) :

(١) شعراء التصرينية : ص ١٦٣

(٢) الأسمعيات : ص ٦٦

(٣) الأسمعيات رقم (٢٥) ورع : جبان - الماذى : العسل الأبيض اللين -- عريب :
بعد سورة حدة - حسي : ج حبوة - اللجوج : المحادية .

(٤) شرح الحمانة : ١/٦٣ تحقيق العسيلان .

على أينا تغدو المنية أول
وأحبس ما لي إن غرمت فأعقل
ليعقب يوماً منك آخر مقبل
يمينك فانظر أى كف تبدل
وفي الأرض عن دار القل متحول
على طرف الهجران إن كان يعقل

لعمرك ما أدرى وإن لأجل
أحارب من حاربت من ذي عداوة
وإن سؤتني يوماً صفت إلى غد
ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتني
وفي الناس إن دث حبالك واصل
إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته

دعوة حارة صادقة وجهها الشاعر إلى صديقه ، وقد زينها التعلق
والدعوة الودودة إلى الإنفاق .

وقد ورد في شعر العرب ما يشير إلى ترفع بعضهم عن السفهاء ،
وإجلال العرب للحلماء والساسة الزعماء الذين تميزوا بهذا الخلق .

فمن مظاهر الترفع عن الضفائن والأحقاد قول عترة^(١) :
لا يحمل الحقد مَنْ تعلو به الرتبُ ولا ينال العلا مَنْ طبعه الغضبُ
وقوله كذلك^(٢) :

إذ امرؤ سمح الخلقة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواها
وقد كثر مدح الشعراء لأهل الحلم من السادة الذين تميزوا به وأجلوهم .

انظر إلى قول كعب بن سعد الغنو^(٣) :

حليم إذا ما الحلم زَيَّنَ أهله مع الحلم في عين العدو مهيب
إذا ما تراه الرجال تحفظوا فلم تنطق العوراء وهو قريب

(١) ديوان عترة : تحقيق عبد المنعم شلبي ، المكتبة التجارية بالقاهرة ص ٩٨ .

(٢) ديوان عترة : ص ٨٦

(٣) نقد الشعر : ص ١١٦

على أن هذا الخلق العظيم ، من رحابة الصدر ، والترفع المهيب ، كان ينظر إليه العرب نظرة إكبار وإجلال ، لأنه صعبٌ على نفوسهم، ويغلب على حياتهم العامة الحروب والثارات ، بل والحمامة والطيش .

وتنذكر كتب الأخبار روايات في حلم بعض السادة كانت مضرب الأمثال ، ومن هؤلاء ، الأحنف بن قيس ، وقيس بن عاصم المنقري .

روى أن قيس بن عاصم المنقري ، وهو من يُضرب به المثل في حلم ، كان يحدث أصحابه يوماً وهو مُخْبَب إذ جاءوا بابن له قتيل ، وابن عم له كَتِيف . فقالوا : إن هذا قتل ابنك ، فلم يقطع حديثه ولا تَقْضِ حبَّوئه ، حتى إذا فرغ من الحديث ، التفت إليهم وقال : أين ابني فلان ؟ فجاءه فقال : يا بني قم إلى ابن عمك فأطلقه ، وإلى أخيك فادفعه ، وإلى أم القتيل فأعطيها مائة ناقلة فإنها غريبة لعلها تسلو عنه ثم اتكأ على شقه الأيسر وأنشأ يقول^(١) :

إِنِ امْرُؤَ لَا يَعْتَرِي خَلْقِي دَنْسٌ يَفْنِدُهُ وَلَا أَفْرُنْ
مِنْ مَنْقِرٍ فِي بَيْتِ مَكْرَمَةَ وَالْغَصْنِ يَبْنِتُ حَوْلَهُ الْغَصْنُ
لَا يَفْطَنُونَ لِعِبْدِ جَارِهِمْ وَهُمْ لَحْفَظُ جَوَارِهِ فَطْنُ

وكان الأحنف بن قيس موصوفاً بالحلم ، ومن حلمه أنه أشرف عليه رجل وهو يعالج قدرأً له يطبخها . فقال الرجل : قدر كَتْكَفُ الْقَرْدَ ، لا مستعيرها يُعار ولا من يأتِيها يتَدَسِّم ، فقيل ذلك للأحنف فقال : لو شاء لقال أحسن من هذا .

(١) بنوع الأربع : ١٠٢/١ ، وجمع الأمثال للميداني : ٢٠١/١ .

وللأحنف أقوال في الحلم منها : إن الناس يرون الحلم ذلا ، وكان يقول : رب غبظ قد جرعته مخافة ما هو أشد منه ، ومن أقواله : أقبلوا عذر من اعتذر إليكم ، أنصف من نفسك قبل أن يتصف منك ، ما أقبح القطيعة بعد الصلة ، والجفاء بعد اللطف والعداوة بعد الود ، واعلموا أن كفر النعمة لئم ، وصحبة الجاهل شؤم^(١) .

الطيش وسرعة الانفعال

على أن العرقى - خلافاً لما مرَّ من حلم بعضهم - سريع الانفعال عصبي المزاج تشيره كلمة وتهيجه إشارة أو حركة فإذا ظن أن شرفه قد مُسْرَطَ غضب غضبة الأسد ، واستسلم لثورته دون أن يفكر في العاقب .

فالطيش في الحقيقة خلق شائع في البايدية حيث لا حكومة تردع ولا قوانين تمنع ، وحيث يعتقد كل فرد في نفسه السمو السيادة والقوة وعراقة المحتد ، ويتوقع أن تنصره قبيلته وعشائرته^(٢) .

فطبيعة البدوى لا تعرف القصد في الخير ولا في الشر ، مبالغ في عداوته ، مبالغ في محنته ، لا يتورع عن الغدر ، ولكنه إذا عاهد على الوفاء بذل حياته في سبيل عهده ، يغزو وينهب حتى يكاد يفقد حياته ثم يوزع ما يغنمها على سواه^(٣) .

إنها الفردية المفرطة التي جعلت من الصعب على الفرد الانقياد لغيره والخضوع لأحد إلا إذا وجد نفسه أمام مصلحة خاصة أو أمام القوة ذلك لأنه يرى نفسه أشرف الناس ، وإن من المذلة خضوعه لحكم أحد

(١) انظر بلوغ الأربع . ١٠٢-١٠٣/١

(٢) الحياة العربية في الشعر الحالى : د.أحمد الخوف ص ٢٤٦

(٣) الشعراء الصعالبى د. يوسف خليف ص ٧١

ولاسيما إذا كان من يحكمه من أناس دون أهله ومن عشيرة دون
عشيرته^(١).

والشعر الجاهلي غزير المادة في تصوير هذه النزعات ، وقد عرضنا جزءاً
منه خلال الحديث عن حروبهم وأيامهم وثارهم وفخرهم وها نحن نعرض
نماذج أخرى توضح المقصود .

يقول سعد بن ناثب المازني يفتخر بنفسه ، مصوراً نفسية العربي في
الجاهلية^(٢) :

إذا هم ألقى بين عينيه عمره ونكب عن ذكر العواقب جانباً
ولم يستشر في أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحباً
وأى دلالة على الجهل والطيش أقوى من أبيات عمرو بن كلثوم التي
يصور فيها قومه^(٣) :

لنا الدنيا ومنْ أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمين وما ظلمتنا ولكن سبداً ظالمينا
إنهم يطشون عن قدرة ، ولو لم يسمهم أذى واعتداء فهم يبدأون
ولو لم يلحق بهم ظلم .

وها هو قرطبة بن أنيف يشكو من قومه ويتهكم بضعفهم لأنهم تخلوا
عن نصرته ، ثم يدح بني مازن الذين نصروه مسرعين إلى الشر ، وأنهم
ينصرون أخاهم دون أن يعرفوا أنه مظلوم يستحق النصرة^(٤) :

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على ٤/٢٨٥.

(٢) الحمامة : ٦٩/١ ، تحقيق العسيلان .

(٣) شرح المعلقات للترمذى : معلقة عمرو بن كلثوم

(٤) حمامة أبي تمام : (تحقيق العسيلان : ١/٥٨) .

قوم إذا الشر أبدى ناجديه لهم طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانًا
 لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهاناً
 ويتهكم بقومه ويعتبر أن صفحهم عن المسيء ضعفًا ومذلةً :
 لكن قومي وإن كانوا أذوي حسب ليسوا من الشر في شيء وإن هنا
 وهكذا يضيع حلم الحليم وسط طوفان الطيش في الجاهلية ، إذ كانوا
 يعتبرون أن الضعيف مركب ذلول كقول النابغة الذهبياني :
 تعدو الذئاب على من لا كلاب له ونختمى مربض المستأسد الخامن

الحِلْمُ وَالْأَنَاءُ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ

الحلم من الأخلاق الحميدة التي اتصف به بعض أهل الجاهلية وتحت
 عليه الإسلام ، فدعوا إلى العفو والصفح ؛ وتحت على كضم الغيظ
 والتواضع ، ونفر من التكبر والغلظة .

قال تعالى : هُنَّ حُذَّلُ الْعَقُودُ أُمُّ إِلَيْرُفٍ وَأَعْرِضُ عَنِ الْجَنَاحِيلِينَ (١) .
 وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ لأشجاع
 عبد القيس : « إن فيك خصلتين يحبهما الله الحِلْمُ والأَنَاءُ » (٢) .

وكان رسول الله ﷺ أحلم الناس يصفح ويعفو وهو سيد ولد
 آدم .. ويدعو إلى الصفح والعفو ..

أخرج الشیخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء الطفيلي بن
 عمرو الدوسى - رضي الله عنه - إلى النبي ﷺ فقال : إن دوساً قد

(١) الأعراف - ١٩٩

(٢) رواه مسلم : ١٧، ٢٥، ١٨ ، الأَنَاءُ : الشُّتُّ وَتَرْكُ الْعِجْلَةِ »

عَصْتُ وَأَئْتُ ، فَاذْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ ، فَاسْتَقْبِلِ الْقَبْلَةَ قَالَ : « اللَّهُمَّ اهْدِ دُوسًا وَأَئْتِ بَهُمُ اللَّهُمَّ اهْدِ دُوسًا وَأَئْتِهِمْ ، اللَّهُمَّ اهْدِ دُوسًا وَأَئْتْهُمْ »^(١) .

وَمِنْ حَمِيلِ حَلْمِهِ عَلَيْهِ ، قَصْتَهُ مَعَ الْأَعْرَابِ الَّذِي سَاعَدَهُ فِي أَدَاءِ الدِّيَةِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَحْسَنْتِ إِلَيْكَ ؟ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ : لَا وَلَا أَجْلَثْ . فَعَضَبَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ أَنْ يَقُولُوا إِلَيْهِ ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ كَفُوا . ثُمَّ دَعَا الْأَعْرَابِيَّ إِلَى مَنْزِلِهِ وَزَادَهُ وَقَالَ لَهُ : « أَحْسَنْتِ إِلَيْكَ ؟ » قَالَ الْأَعْرَابِيُّ : نَعَمْ فَجَزَّاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ وَعِشْرِيْةِ خَيْرًا .. ثُمَّ سَأَلَهُ أَمَامُ الصَّحَابَةِ فَأَعْدَادُ الْأَعْرَابِ « فَجَزَّاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ وَعِشْرِيْةِ خَيْرًا »^(٢) .

وَهَذَا كَانَ قَلْبُ الدَّاعِيَةِ الْعَظِيمِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ .. هَذَا كَانَ حَيَاتَهُ مَعَ النَّاسِ ، مَا غَضَبَ لِنَفْسِهِ قَطْ ، وَلَا ضَاقَ صَدْرُهُ بِضَعْفِهِمُ الْبَشَرِيِّ وَلَا احْتَجَرَ لِنَفْسِهِ شَيْئًا مِنْ أَعْرَاضِ هَذِهِ الدُّنْيَا ؟ بَلْ أَعْطَاهُمْ كُلَّ مَا مَلِكَتْ يَدَاهُ فِي سَمَاحَةِ نَدِيَّةِ وَوَسِعَهُمْ جَلْمُهُ ، وَبِرُّهُ وَعَطْفِهِ وَوُدَّهُ الْكَرِيمُ . وَهَذَا مَا شَهَدَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَخَطَّهُ اللَّهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ لِتَكُونَ هَذِهِ الْأَخْلَاقُ رُوحُ كُلِّ دَاعِيَةٍ وَعَدْتَهُ مَعَ النَّاسِ : ﴿ وَلَوْ كَنْتَ فَطَأً عَلِيْظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾^(٣) .

كَظِيمُ الْغَيْظِ : وَلَا يُسْتَطِعُ الإِنْسَانُ أَنْ يَكُونْ حَلِيمًا إِلَّا إِذَا كَظِيمَ غَيْظُهُ ، وَلَذِلِكَ حَتَّى إِلَاسِمَ عَلَى كَظِيمِ الْغَيْظِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّكَيْنَظِيمَنَ الْغَيْظُ وَالْعَافِيْنَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ آلُ عُمَرَانَ : ١٣٤

(١) حديث متفق على صحته ، البخاري ٦/٧٧ و مسلم ٢٥٢٤ . ينظر شرح السنة

١٥٠/٥

(٢) انظر حياة الصحابة : ٥٤٤/٢

(٣) ضرب الدعوة في ظلال القرآن : ١/١٩١ ، جمع وإعداد أَحْمَدْ فَائزْ طبع مؤسسة الرسالة ١٤٠٥ هـ

فكم الغيظ يحتاج من الإنسان إلى إرادة صلبة وعزيمة قوية ، وشخصية تحكم في عواطفها ومشاعرها وانفعالاتها فلا يستبد بها الغصب ولا يسيطر عليها أهوى الجامع يدفعها إلى الانتقام والتشفى ، أو إلى ارتكاب ما لا يحسن بالرجل الحكيم الوقور .

قال ﷺ . ما نعدون الصُّرْعَةَ فِيهِمْ ؟ قلنا : الذي لا يصرعه الرجال . فقال : ليس بذلك . ولكن الصُّرْعَةَ هو الذي يملك نفسه عند الغضب ^(١) .

وقد دعا رسول الله ﷺ إلى الرفق في الأمور كلها عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ بِحُبِ الرِّفْقِ فِي الْأُمْرِ كُلُّهُ» ^(٢) .

وعنها (رضي الله عنها) أيضاً أن النبي ﷺ قال : «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه» ^(٣) .

ومن لوازم الأنفة والحلم التواضع وخفض العناد : وذلك من صفات المؤمنين الأتقياء ، قال تعالى : «وَلَا خَفْضَ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» ^٤ الشعرا : ٢١٥ .

وكان ﷺ مثالاً يحتذى في لين المعاملة وخفض العناد ، كان يلقى بأذنه إلى من يحدثه ، فلا ينصرف عنه حتى يتم التحدث ما يريد من حديث وإن طال ، وكان إذا صافحه أحد لم ينزع يده من يد مصافحة حتى يكون المصالحة هو الذي ينزع ، وكان لا يقطع على أحد حديثه .. وكان ﷺ يسخط رداءه لضيوفه حتى يجلس عليه ^(٤) .

(١) رواه مسلم : كتاب البر ، وأبو داود والنسانى ومسند الإمام أحمد ٢٨٢/١

(٢) متفق عليه في البخاري : ٣٧٥/١٠ ، ومسلم : ٢١٦٥

(٣) رواه مسلم : ٢٥٩٤

(٤) انظر : أخلاق القرآن للشريachi (٣٦-٣٢/٣)

هذه هي أخلاق النبوة ، وهكذا تكون أساليب الدعوة فليست الدعوة جفاء وقسوة كما يظنه بعض الناس ، وإنما حلم ولبن في التعامل ، وذوق رفع في الحديث مع وضوح في التصور وثبات على الحق .

« على أن يكون ذلك في المعاملات الشخصية وأساليب الدعوة لا في العقيدة الدينية ولا في الواجبات الشرعية ، فليس في عقيدة الإسلام ولا شريعة الله يكون التغاضي والتسامح ولكن في الأخذ والعطاء والصحبة والجوار »^(١) .

والمؤمن متواضع لين مع إخوانه المؤمنين ، وكان عليه عليه الله يرفض أن يتميز عن أصحابه ، ويساعد في مهنة أهله ويخصف نعله وينحيط ثوبه ، وينجلس على الأرض ويخلب الشاة ، ويجيب دعوة الملوك على خبر الشعير^(٢) .

أخرج الشیخان قوله عليه الله : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف مُسْتَضْعِفٌ لو أقسم على الله لأُبَرِّه ، ألا أخبركم بأهل النار ؟ كُلُّ عُتْلٍ جَوَاطِ مُسْتَكْبِرٍ »^(٣) .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لا تحرقن أحداً من المسلمين فإن حقير المسلمين عند الله كبير » .

وقال الأخفف بن فيس : « عجباً لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتبين » .

(١) طريق الدعوة : ١٩٢/١ ، أحمد فائز .

(٢) انظر : حياة الصحابة ، باب متواضع النبي صلى الله عليه وسلم ٥٥٥/٢ ٥٦٠ .

(٣) أخرجه الشیخان ، وانظر فتح الباری : ٤٨٩/٩ ، « العتل : الشديد الجاف -

الفظ : الغليظ من الناس »السان: عتل، والجواط على المبالغة: المتكبر الجاف أيضاً، اللسان: جوظ .

« وللتواضع حَدٌّ إذا جاوزه كان ذلاً ومهانة ، ومن قصر عنه انحرف إلى الكبر والفخر »^(١)

وكان التواضع من أخلاق الصحابة وسلف هذه الأمة^(٢) . ومن راجع كتب السيرة وجد جمال التواضع يزين كبار الصحابة ومن سار على نهجهم من التابعين وسلف هذه الأمة ... ولا غرابة فقد تخرجوا من مدرسة النبوة الظاهرة ، واقتدوا بسيد ولد آدم عليهما السلام^(٣) .

كان عمر رضي الله عنه قد خرج في يوم حار واضعاً رداءه على رأسه فمر بغلام على حمار فقال : يا غلام أحملني معك ، فوثب الغلام عن الحمار وقال : اركب يا أمير المؤمنين ، قال : لا اركب وأركب أنا خلفك ؟ تريدين تحملني على المكان الوطىء وتركب أنت على الموضع الخشن ، فركب خلف الغلام ودخل المدينة وهو خلفه والناس ينظرون إليه^(٤) .

وأخرج أبو نعيم عن الحسن قال : رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه نائماً في المسجد في ملحقة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين^(٥) .

وأخرج ابن سعد في طبقاته عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان رجلاً تاجراً ، وكان يغدو كل يوم على السوق فيبيع ويتابع ، وكانت له قطعة غنم نروح عليه ، وربما خرج هو بنفسه فيها ، وربما دُعيت له ، وكان يخلب للحجى أغنامهم .

(١) الفوائد : لابن القيم ص ١٣٩

(٢) انظر تفصيل ذلك : حياة الصحابة (٥٦٢/٢ - ٥٧٠) .

(٣) منتخب كنز العمال ٤١٧/٤ ، وحياة الصحابة (٥٦٢/٢) .

(٤) الخلية : أبو نعيم ٦٠/١

فلم يوبع بالخلافة قالت جارية من الحي : الآن لا يُحلب لنا منائج دارنا ، فسمعها أبو بكر فقال : بلى لعمري لأحلبها لكم ، وإنني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه فكان يحلب لهم^(١) .

هكذا كانت أخلاق الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وقد كانوا حكام الدنيا في أيامهم ، وما كان المنصب ليغير من أخلاقهم شيئاً ، بل زادهم نوافضاً : فأين منهم الحكام في عصرنا هذا وهم يسيرون ضمن الجموع الغفيرة والمظاهر العجيبة .

أخرج البخاري أن علياً - رضي الله عنه - اشتري تمراً بدرهم فحمله في ملحفته فقال له رجل : أحمل عنك يا أمير المؤمنين ، قال : لا ، أبو العيال أحق أن يحمل^(٢) . هذه نماذج من التواضع في صدر الإسلام ، بعد أن كان عرب الجاهلية يتميزون بالأنفة والكبر ، والفخر والمنافرة وقد جعل الله العقاب من نوع العمل قال عليه السلام : « يحشر المتكبرون أمثال الذر يوم القيمة في صور الرجال يفشاههم الذل من كل مكان »^(٣) .

وجاء أعرابى إلى النبي عليه السلام فقال : « أتقبلون صبيانكم ، فما نقلهم ». فقال عليه السلام : « أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة »^(٤) .
والقرآن يجب المتطاول بضعفه وضآلته وعجزه في الآية الكريمة :
﴿هُوَ لَا تَمْتَنِعُ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَكَ تِبْلُغُ لِلْجَنَّاتَ طُولًا ﴾
الإسراء : ٣٧ .

(١) طبقات ابن سعد ، عن حياة الصحابة : ٥٦٤/٢ .

(٢) البخاري في الأدب المفرد ، وابن عساكر في المنتخب : ٥٦٥ .

(٣) رواه الترمذى ٢٤٩٤ وسنده حسن وقال الترمذى حسن صحيح « ينظر شرح السنة ١٦٧/١٣ » .

(٤) رواه الشبيخان وأحمد والبيهقي/صحيح الجامع الصغير ج ١ ص ٤٩٧ .

وقد ثَدَتْ السنة الكريمة بحال المتكبرين وجاهمت الجاهلية المتغطرسة ، وأعادت الإنسان إلى وضعه الطبيعي في هذه الحياة .

قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيمة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم ، وهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب وعائق مستكِّر »^(١) . « والعائق : الفقير » .

وصورت السنة النبوية حالة المتكبرين وأنهم لن يدخلوا الجنة .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كُبْرٍ »^(٢) فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة قال : « إن الله جليل يحب الجمال ، الكبير بطر الحق وغمط الناس »^(٣) وأخيراً: فـمـا نـسـتـفـيـدـهـ مـنـ هـذـاـ الـمـوـضـوـعـ : الـقـدـوـةـ الـطـيـبـةـ فـيـ الـحـلـمـ وـالـتـوـاضـعـ وـالـأـنـاءـ ، وـهـذـهـ قـمـ عـالـيـةـ تـشـدـنـاـ إـلـيـهـ ، وـتـجـذـبـنـاـ نـحـوـهـاـ . « فـيـجـبـ عـلـىـ الدـاعـيـةـ خـاصـةـ أـنـ توـفـرـ فـيـ الطـبـيـعـةـ الـخـيـرـةـ الـرـحـيمـ .. الـمـعـدـةـ لـأـنـ تـجـمـعـ عـلـيـهـاـ الـقـلـوبـ ، وـتـأـلـفـ حـوـلـهـاـ الـنـفـوسـ ، يـجـبـ أـنـ يـكـوـنـ رـحـيـمـاـ بـنـ مـعـهـ ، لـيـنـاـ مـعـهـمـ وـلـوـ كـانـ فـظـاـ غـلـيـظـ الـقـلـبـ مـاـ تـأـلـفـ حـوـلـهـ الـقـلـوبـ ، وـلـاـ تـجـمـعـ حـوـلـهـ الـمـشـاعـرـ .

فالناس في حاجة إلى كف رحيم وإلى رعاية فائقة ، وإلى بشاشة سمعة ، وإلى ود يسعهم وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم .. في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء يحمل همومهم ، ولا يعنهم

(١) رواه مسلم : ١٠٧ « ترتيب فؤاد عبد الباق » .

(٢) مسلم بشرح النووي : ٨٩/٢ .

(٣) رواه مسلم : ٩١ — ترتيب وتحقيق محمد فؤاد عبد الباق « بطر الحق : دفعه ورده على قائله ، غمط الناس : احتقارهم » .

بهمه ، ويجدون عنده دائمًا الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضا «^(١) فلينظر العاملون في حقل الدعوة إلى هذه السمات وليطبقوها في واقع حياتهم إن أرادوا التأثير والسير على منهج النبي .

وليلتفت كل مسلم إلى حسن المعاملة ، والحلم والتواضع حتى مع أقرب الناس إليه : الزوجة والولد ، والأصدقاء وأصحاب المهنة ، وأهل الحى والبلدة ، لأن ذلك يستجلب الحبة والودة والتعاطف .

وإن البشرية الحائرة المضطربة ، لتنظر إلى الدعاة أصحاب العزائم والأخلاق المستقيمة ، حتى يخففوا عنها بعض العناء والشك ..

إن الجاهلية المعاصرة نأت عن التعامل النظيف وأسفت في أنانيتها وشهواتها ، وأخلاقها الفعية ، ولا مخلص لها مما تعانيه إلا صحوة إسلامية جادة ، تسير على خطى السلف ، فتثير أمامها السبيل ، وإن الأمانة ضخمة ، والطريق طويلاً ، وهنيئاً للصابرين الأبرار .

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن : (١٩١/١) أحمد فائز .

٨ - صفات حميدة أخرى^(١)

على أن هناك بعض الصفات الحميدة عند العرب ، كانت بقايا متناشرة في تلك الصحاري المترامية الأطراف ، ولعلها من بقايا ميراث النبوة ، شوهدت فيها المعالم حيناً وحرفت عن غاياتها حيناً آخر ، منذ أن بدأ التسبيان والانحراف كلما ابتعدوا عن عهد إبراهيم الخليل وولده اسماعيل عليهما الصلاة والسلام .. حتى أصبحت من جملة العادات والتقاليد ، ونسى أهلها أصلها السماوي مما جعل النفوس مهيئة بشكل أو باخر لقبول الرسالة الجديدة ، لقوم ما انحرف ، وترسي مقومات التوحيد والعبادة ، وترتبطهما بالسلوك والأخلاق بلا عوج ولا انحراف .

وسوف أذكر بعض هذه الأخلاق الحميدة بإيجاز شديد ، حسبما يتسع لنا مجال البحث .

ومن هذه الأخلاق الصدق ، وهو خلق عظيم كان العرب يعتبرونه سجية الليب الماجد ، ويعتبرون أن الكذب من صفات الدنيء الخائب وفي ذلك يقول طرفة^(٢) :

والصدق يألفه الليب المتجوى والكذب يألفه الدنىء الأخيت
ويعتبر زهير بن أبي سلمى أن الصدق منجاة من الشر^(٣) :

وفي الحلم إدهانٌ وفي العفو دُربةٌ وفي الصدق منجاة من الشر فاصدق

(١) انظر تفصيلاً لهذه الصفات في الشعر الجاهلي : رسالة المعتقدات والقيم ص ٣٦٨ وما بعدها .

(٢) ديوان طرفة بن العبد : طبعة دمشق ص ١٠٨ .

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى : طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤ م ص ٢٥٢ .

وعني عن القول أن الصدق من أعظم أخلاق المؤمنين ، والكذب من أخلاق المنافقين ، وإنه ليقود إلى الفجور والنار
 قال تعالى : ﴿ يَتَأْمِنُهَا الَّذِينَ هُمْ أَمْنٌ وَأَتَقْوَاهُمُ اللَّهُ وَكُوْنُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ التوبه : ١١٩

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »^(١) متفق عليه .
 وقلة الحلف ثم البر باليمين كان من صفات بعض العرب .

قال الشوكاني في فتح القدير : « وقد كانت العرب تناوح بقلة الأمان حتى قال فائليهم : قليل الآلية حافظ لبينه وإن ندرت منه الآلية برأت ومن الصفات الطيبة عندهم حفظ السر ، وحفظ اللسان عن البداءة .

يقول قيس بن الخطيم^(٢) :

يا عمرو ليس أخو الأمانة بالذى مارا به من خطة أفشها
 يا عمرو إن أخا الأمانة كاتم لو يستطيع مجلده أخفاها
 كان العرى يميل إلى حفظ اللسان والترفع عن بذىء القول .

(١) البخاري : ٤٢٣/١٠ ، ومسلم : ٢٦٠٧ .

(٢) الديوان : ص ١٠٥-١٠٦ .

يقول ذو الإصبع العدواني^(١) :

ولا لسان على الأدنى بمنطق بالفاحشات ولا فتكى بمحامون
كان الكريم منهم يأنف أن يرد على البداءة بمثلها ، ولكنكه كان كما
وصفعهم شاعرهم قيس بن عنقاء الفزارى^(٢) :

إذا فيلت الفحشاء أغضى كأنه ذليل بلا ذل ولو شاء لانتصر
أما الترفع عن جليس السوء فيمثله قول عدى بن زيد^(٣) :

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم
ولا تصحب الأردي فتردى مع الردى

وهذه الميزة الطيبة من حفظ اللسان ، ونظافة القول والبعد عن
البداءة ، ارتفع بها الإسلام إلى حد الظهور والفضلية ، وأن الإنسان محاسب
على ما يقول قال تعالى : ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ق: ١٨
ودعا إلى القول الحسن الطيب وإلا فالصمت أولى .

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن
باليه واليوم الآخر ، فليقل حيراً أو ليصمت »^(٤) وحدّر الرسول ﷺ من
آثار الكلمة النابية ، غير المسؤولة : « إن العبد ليتكلّم بالكلمة ما يتبيّن فيها ،
يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب »^(٥) . « ومعنى يتبيّن : يتفكير
 أنها خير أم لا » .

(١) المفضليه : رقم (٣١) .

(٢) معجم الشعراء : ص ١٩٩ .

(٣) الديوان : ص ١٧٠ طبعة بغداد ١٩٦٥ م .

(٤) رواه البخاري : ٢٦٥/١١ ، ومسلم : ٤٢ « رياض الصالحين : مراجعة شعب
الأرنووط ، ط : دار المأمون للتراث ط ١٤٠٧ هـ . »

(٥) البخاري : ٢٦٥/١١ ، ٢٦٦ .

فالاعقل من حفظ لسانه، وفكرو تبين ما الذى سيقول، والمؤمن يتميز
بأنه يراقب الله في قوله وفعله لأنه محاسب على كل ذلك .

وكان من صفاتهم الطيبة الحميدة : القناعة والترفع عن الحسد
والمسألة مهما بلغت بهم الفاقة .

يقول الشنفرى^(١) :

وإن مد الأيدي إلى الزاد ولم أكن
بأعجلهم إذ أحشى القوم أعدل
وأغدو خميس البطن لا يستفزني : إلى الزاد حرص أو فؤاد موكل .
وكانوا يعشقون القناعة عفة وترفعاً عن السؤال .

يقول مصرف بن الأعلم^(٢) :

ويقل ما لي ما علمت فلا أرى للدهر حين يغضبني أخشع
والقناعة هي الغنى في نظر الشرع الحنيف ، لأن الغنى غنى النفس
وترفعها .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه السلام قال : « ليس الغنى عن
كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس »^(٣) « والعرض هو المال » ودعا
الإسلام إلى عزة النفس والبذل ، والتعرف عن المسألة . قال عليه السلام : « اليد
العليا خير من اليد السفلية ، واليد العليا هي المتفقة ، والسفلى هي

(١) الأشباه والنظائر للمخالدين : ١٥/٢

(٢) معجم الشعراء : ٣٠٦

(٣) البخاري : ٢٣١/١١ ، ومسلم (١٠٥١) .

السائلة «^(١) وحرم المسألة : « ولا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مُزْعَة لحم » ^(٢) :

وكانوا يرون أن الأمور لا تصلح بالفوضى ، ولا تهدأ بسيادة الجهل ، وإنما بالرأي الحصيف .

ولذلك يقول الأفوه الأودى ^(٣) :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة هم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا
تهدى الأمور بأهل الرأى ما صلحت
فإن تولت فبالأشرار تنقاد

هذه صور من مكارم الأخلاق عرفها عرب ما قبلبعثة ، وافتخرت بذلك ، ثم جاء الإسلام ليرفع بها في النية الطيبة ، والإخلاص لله تعالى . فسيطر رجال الرعيل الأول من هذه الأمة ، أروع الأمثلة في التطبيق العمل لتعاليم الدين الجديد ، سلوكاً نظيفاً ، وواقعاً مشرقاً حياً ، ما تزال البشرية ترنو إليها .

إلا أن مكارم الأخلاق الجاهلية هذه كانت تختلط بركام هائل من مساوىء العادات والأخلاق ، وذلك في ازدواجية عجيبة ، وخلط غريب من القئ والسمين .. وذلك لفقدان العقيدة السماوية الضابطة ، والخراف أهل الجاهلية عن بقایا ديانة التوحيد ، واتباعهم لضغوط الشهوات ونزوات الشر من حين آخر .. وهذا ما سوف أفصل الحديث عنه في المبحث القادم إن شاء الله .

(١) البخارى : ٢٢٥/٣ ، مسلم : ١٠٣٣ .

(٢) البخارى : ٢٦٨/٣ ، ومسلم (١٠٤٠) وانظر « رياض الصالحين - الأربعون » .

(٣) الشعر والشعراء : ١/٢٢٣ .

المبحث الثالث

صور من الأخلاق الذميمة والعادات القبيحة « كما يصورها الشعر الجاهلي »

- ١ - المجون والخلاعة .
- ٢ - الخمر ومجالس الشراب .
- ٣ - القيّان والغناء في الجاهلية .
- ٤ - الميسر .
- ٥ - أخلاق ذميمة أخرى .

تمهيد :

إنَّ مَنْ يَقْرَأُ الْمَبْحَثَ الثَّانِي ، دُونَ قِرَاءَةِ هَذَا الْمَبْحَثِ ، قَدْ يَتَبَادِرُ إِلَى ذَهْنِهِ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا فِي جَاهْلِيَّتِهِمْ أَسْمَى مَا يَكُونُ نَفْوَسًا وَأَرْفَعَ مَا يَكُونُ أَخْلَاقًا ..

وَمِنَ الظَّبِيعِيِّ أَنْ تَكُونَ الْأَخْلَاقُ مُتَبَايِنَةً ، فَيَكُونُ فِيهِمُ الْعَفِيفُ وَالْفَاجِرُ ، كَمَا كَانُ فِيهِمُ الشَّجَاعَانُ وَالْجَبَانُ ، وَالْكَرِمَاءُ وَالْبَخَلُاءُ وَالْحَلَمَاءُ وَالْجَهَالُ ..

وَكَنَا قَدْ تَحدَثَنَا عَنْ بَعْضِ الْأَخْلَاقِ الْذَّمِيمَةِ : كَالْبَخْلُ وَالْطَّيشُ وَالْغَدَرُ وَالْجَبَنُ ، خَلَالِ الْحَدِيثِ عَنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ لِتَظَهَرَ الْأُمُورُ بِأَصْدَادِهَا .

وَسُوفَ أَتَنَاوِلُ فِي هَذَا الْمَبْحَثِ صُورًا أَسَاسِيَّةً كَانَتْ مُتَشَرِّةً لِدِي أَهْلِ الْجَاهْلِيَّةِ ، كَالْجُنُونُ وَشُرْبُ الْخُمُورِ ، وَالسُّعْيُ وَرَاءِ الْبَغَايَا وَمُجَالِسِ الْقَمَارِ .. وَقَدْ كَثُرَ الْحَدِيثُ عَنْهَا فِي الشِّعْرِ الْجَاهِلِيِّ ، بَلْ كَثُرَ الْفَخْرُ بِذِكْرِهَا وَفِعْلِهَا .

كُلُّ ذَلِكُ حَتَّى تَكْتُمِلِ الصُّورَةُ ، وَتَعُودُ إِلَى الْأَذْهَانِ تُلْكَ الصُّورَةُ المُتوازنةُ لِذَلِكَ الْمُجَمَعِ .

هَذِهِ الصُّورَةُ هِيَ التِّي أَشَارَ إِلَيْهَا جَعْفُرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عِنْدَمَا أَجَابَ النَّجَاشِيُّ مُلْكَ الْجَبَشِيَّ عَلَى سُؤَالِهِ : مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ بِهِ قَوْمَكُمْ ، وَلَمْ تَدْخُلُوهُ بِهِ فِي دِينِي وَلَا دِينَ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَلَلِ؟ قَالَ جَعْفُرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - « أَيُّهَا الْمَلَكُ كَنَا قَوْمًا أَهْلَ جَاهْلِيَّةً ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمِيَّةَ ، وَنَأْكُلُ الْفَوَاحِشَ وَنَقْطِعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسْيَءُ الْجَوَارَ ، وَيَأْكُلُ الْقَوْيُ مِنَ

الضعف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ...

ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقدف المحسنات ... ألم ^(١) .

هذه بعض الأخلاق الذميمة ، يصورها الصحابي الجليل كما كانت منتشرة بين قومه من عرب الجاهلية في الفترة التي سبقت الدعوة الإسلامية .

على أن هذه المفاسد والشرور ، على ضخامتها وانحرافها ، تبقى دون المستوى المتحلل الذي وصلت إليه البشرية في عصرنا الحاضر ، بل في جاهليتها الحديثة ..

وسوف نرى بالمقارنة صدق هذه المقوله ، من خلال الحديث عن هذه الأخلاق الذميمة والعادات القبيحة ، ويأتي على رأسها ، الجحود والتبرك وكثرة البغایا ، وما يرافق ذلك من مجالس الطرف واللهو والغناء ، وشرب للخمور ...

(١) انظر : السيرة السوية لابن هشام ، ١/٣٤٣ وما بعدها والرحيق المختوم :

١ - المجنون في الشعر الجاهلي

دور الإماماء في الانحراف الخلقي :

لقد كثر الشعر الذي يتحدث عن المجنون عند عدد من الشعراء ولعل كثرة الإماماء في بلاد العرب كان له دور كبير في انتشار هذه الظاهرة ، حيث كان بعضهم يمارس الدعارة ، وكن ينصبُن رايات على أبوابهن ، لتكون علماً عليهم دلالة ، وهن من البغایا اللاتي يقصدهن الفتیان عادة^(١) .

والدليل على أن البغایا كنَّ من الإماماء ، أن اللغة تطلق البغاء على الفجور في الإماماء خاصة ، وتطلق البغى على الأمة^(٢) .

وقد عبر الأعشى عن الإماماء بالبغایا في قوله^(٣) :

والبغایا يركض أكسيبة الأرضيغ والشرعبي ذا الأذبال
وكان العرب يستمتعون بالإماماء وقد يهبوهن ، وربما احترف بعضهم الغناء ، ومنهن قيان جميلات ، ويظهر ذلك من وصف الشعراء هنَّ .

(١) العقد الفريد : ٥٢/٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر . وانظر هذا الموضوع في الحياة من الشعر الجاهلي : ص ٣٦٨-٣٧٠ .

(٢) انظر : مادة (يعني) في لسان العرب والقاموس المحيط

(٣) ديوان الأعشى : ص ١٦٦ ، ط دار بيروت ١٩٨٣ م « الإخراج : خر أصفر أو أحمر - الشرعي : نوع من البرود حرير أحمر » .

يقول سلامة بن جندل^(١) :
وعندنا قينة بيضاء ناعمة مثل المهاة من الحور الخراعيب
ولم يكن من عادة الإمام أن يتعفّن أو يتحرّن من الرجال قال
الأعشى^(٢) :

ولقد أخالسهن ما يعنيني (وقبله) :
والبيض قد عنست وطال جرأوها ونشأن في قني وفي أذواد
وكان للإماء بيوت لاهية يسمى بها الفتيا .. وكانت البغایا عموماً
محقرات ، وندر أن كن من العربيات .

ولم تكن الخلاعة والمجانة مما يتغاضى عند جميع أهل الجاهلية ، وإنما
كانت مستهجنة عند بعضهم على الأقل .

فامرؤ القيس طرده أبوه بسبب خلاعته ، والمنافرة التي كانت بين
علقمة بن علاءة وأبن عمّه عامر بن الطفيلي كان سببها قول علقمة له : إنك
أعور عاهر ، وأنا عفيف^(٣) .

(١) القينة : الأمة المغنية - الخراعيب : ج خرعوب وهي الشابة الحسنة القوم ،
والرخصة البدنة .

(٢) الديوان : ص ٥١ - الجراء : الشباب من الجواري - القن : الرق . أذواد : جماعات
من الإبل عنست : لم تتزوج .

(٣) انظر الحرف : الحياة العربية ، ص ٣٦٨-٣٦٩ .

نماذج من الشعر الجاهلي تصور مجنون بعض الشعراء :

ورد في طبقات فحول الشعراء لابن سلام قوله^(١) : « و منهم من كان ينعي على نفسه ويتعهّر ، منهم امرأ القيس » حيث قال : ومثلك حبلى قد طرت ومرضع فأهيتها عن ذي نائم محول وقوله :

دخلت وقد ألقت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل وكان امرأ القيس يعد من عشاق العرب والزناء^(٢) : وكان في معلقة امرئ القيس التهتك الكبير ، حيث يذكر ابنة عمه عنيزه ، وما كان في يوم داره جلجل ، حيث نزلت ابنة عمه (عنيزه) مع مجموعة من النساء في الغدير ، وفاجأهن امرأ القيس وهن غوافل ، ثم أخذ ثيابهن ورفض إعطاءهن إياها حتى يخرجن متجردات عاريات ، وعفر هن بعد ذلك ناقته ، وحملته عنيزه على غارب بعيدها وفي ذلك يقول في معلقته^(٣) :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزه فقالت : لك الوبيلات إنك مُزجل
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عفرت بعيدي يا امرأ القيس فانزل

(١) طبقات فحول الشعراء . ٤١/١ ، ٤٣-٤١ ، وفي المسان نعي فلان ينعي بالغواصين إذا اشتهر بتعاضده

(٢) الشعر والشعراء : ٢٢/١ .

(٣) انظر المعلقة : في المعلقات الشعر للتريري (ص ٢٨-٤٠) ، والشعر والشعراء : ١٢٣-١٢٤ ، معاني المفردات : « الخدر : المودج - لك الوبيلات : دعاء عليه ، مرجل : رجل الرجل برجل إذا صار راجلاً أى تخشى أن يعفر بعيدها فتصبح بدونه ، تخشى على رجلها . الغبيط : المودج بعينه ، وقيل مركب من مراكب النساء » .

ثم يتحدث في جزء آخر من معلقته عن قصة غرامية أخرى لا تقل فجوراً عن سابقتها ، يصف فيها خدر صاحبته وأحراسها ومنتها ، وكيف نمك من الوصول إليها رغم كل العوائق وقد استعدت للنوم ، وصور ما كان بينهما من حوار وكيف أطاعته ، وخرجت معهأخيراً من الحى إلى مكان ناء ، وكانت تعفى آثار أقدامها بأذياك ثوبها الموشى .

كل ذلك بغزل صريح مكشوف ، ولا غرابة : « فامرؤ القيس قائد الشعراء إلى النار » .

ومن تغهر بشعره أيضاً الأعشى :

وقد كان مدمناً على الخمرة والقمار والزنا ، ويرى من أخباره : أنه أراد التوجه إلى الرسول ﷺ ، فرده أبو سفيان وقال له : إنه ينهاك عن خلال ويحرمهها عليك وكلها بك رافق ، ولنك موافق ، قال ما هن ؟ قال أبو سفيان : الزنا والقمار والربا والخمر .

عدل الأعشى عن وجهته ، بعد أن أهدته قريش مائة من الإبل ، أخذها وانطلق إلى بلده معرضأً عن دعوة الإسلام ، فلما كان بقاع منفحة رمى به بغيره وقتلها^(١) .

ومن خصائص شعر الأعشى أنه لا يقف طويلاً عند الأطلال صنيع غيره من الجاهلين ، بل يأخذ في وصف صاحبته ، ووصف عواطفه نحوها ، وقد يعمد إلى نفس الصورة القصصية المثبتة في معلقة امرئ القيس : فيتحدث عن مغامراته وكيف يصل إلى محبواته من المتزوجات على شاكلة قوله^(٢) :

(١) انظر الشعر والشعراء : ١٥٧/١ ، ط دار المعارف ، والأغانى ١٢٥/٩ .

(٢) ديوان الأعشى : ص ١٥٠

فضلت أرعاها وظل ينوطها
حتى دنوت إذا الضلام دناها
فرميت عقلة عينه عن شاته
فأصبت حبة قلبها وضاحها
حفظ النهار وبات عنها غافلاً
فها هو يخالس الزوج ويختاله حتى يظفر بيفته كا يزعم .

وطبعي أن نجد غزله مادياً صريحاً ، بسبب فهو وحمره ، وقد نجد
لديه رقة في الغزل وبشدة في قوله ، وخاصة عند الوداع ، استمع إلى قوله في
فاتحة معلقته :

وَدْعَ هُرِيرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْجَلٌ وَهُلْ ثُطِيقٌ وَدَاعِاً أَيْهَا الرَّجُلُ
ثم يسهب في وصف بشرتها وشعرها وعارضها ، ومشيتها الوانية
وحركة حلتها ، بعد وصف حسى ، وغزل فيه رقة عندما يقول :
ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراها لسر الجار تختل
يكاد يصرعها لولا تشددها إذا تقوم إلى جاراتها الكسل
إلى أن يقول بكل صراحة بل بكل وقاحة وإباحية فاضحة :
علقها غرضاً وعلقت رجلاً غيري وعلق أخرى غيرها الرجل
فكلنا مغرم يهدى بصاحبه ناء ودان ومحبوّ ومخبل
فالشاعر شفى بحب صاحبته وهي تعرض عنه وتحب رجلاً آخر ،
والرجل يعرض عنها ويحب أخرى ، وهكذا تضارب في العواطف وإسفاف
في الأذواق ، وإباحية ماجنة ، ثم يتذكر كيف كانت تشدق عليه وعلى
نفسها حين زارها ذات مرة فقال^(١) :

قالت هريرة لما جئت زائرها ويلي عليك ووليل منك يا رجل

(١) انظر شرح الم العلاقات العشر للترمذى : ص ٣٢٩ - ٣٣٦ ، وتعليق شوق ضيف على
بعض أبيات نعنة ، وكتابه العصر الخاھن ص ٣٦١ - ٣٦٢

هذه الصورة الماجنة قد يعبرها بعض الكتاب المحدثين لوحه مشرقة في الأدب العربي إذ يقول : « وبعد أن ينتهي الأعشى من هذه اللوحة المشرقة يعقب عليها بصورة فكاهية لعلاقتها الغرامية ، فهو قد تعلق بها عرضاً ، وهي كذلك قد تعلقت بغيره ثم هذا الرجل تعلق بأخرى ... ، وكذلك الشاعر تعلقت به أخرى ، فأصبح الجميع في وضع عجيب ، كل متبول وكل محب ومحبوب ولكن كلهم بلا أمل لذلك فكلهم مخبوء ومحبوب »^(١) .

أما طرفة بن العبد : فله فلسفة ماجنة أخرى ، تلخص بأن الحياة لا قيمة لها ، وأنه لا يهتم بالحياة ولا الممات لو لا ملذاته وتدور حياته حول ملذات ثلاث : امرأة وفروسية وخمرة .

يقول في معلقته^(٢) :

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى
فمنهن سبق العاذلات بشربه
وكرى إذا نادى المضاف محباً
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب
وتجده هى حياة طرفة ، خمرة يسبق بها العاذلات ، وفرس أصيل
كالذئب الكاسر يكر به على الأعداء ، وفتاة خفيفة الروح مليحة حلوة يلهمو
معها في يوم غائم مطير .

وهذه هي القيم التي كان يؤمن بها الجاهلي ، إذ ليس لديه إيمان ببعث أو حساب ، حتى يدخل له شيئاً من صالح الأعمال .

(١) ملخص من دور الإسلام في بناء العمارة العربية : محمد رشاد خليل ص ٤٤٨ .

(٢) معلقة طرفة : ص ١٠٤ بشرح التبريزى ، والشعراء الستة ص ٤٠٢ .

وأخبار المرقشين^(١) : الأكابر والأصغر تشير إلى هذه العلاقات المحرمة الماجنة ، ويعتبر الشاعران من عشاق العرب المشهورين أما الأول : فقد كانت له ابنة عم « أسماء » ، زوجها أبوها رجلاً من مراد ، في غياب المرقش ، ولما رجع أخبر بذلك فخرج يريدها ، ثم مرض في بعض الطريق ، فتركه صاحبه في غار وقد أكلت السباع أنفه فقال^(٢) :

مَنْ مُبِلُّغُ الْفَتَيَانِ أَنْ مَرْقَشًا أَصْحَى عَلَى الْأَصْحَابِ عِنْدَهُ مُثْقَلًا
ذَهَبَ السَّبَاعُ بِأَنْفِهِ قَرْكَنَهُ يَنْهَسِنُ مِنْهُ فِي الْقَفَارِ مَجْدَلًا

أما المرقش الأصغر^(٣) : فمن أخباره ، أنه كانت له صاحبة اسمها (فاطمة بنت المنذر) ، وكانت لها خادمة تجمع بينهما ، يقال لها هند بنت عجلان ، وكان للمرقش ابن عم يقال له : جناب ، لا يؤثر عليه أحداً ، ولا يكتمه شيئاً من أمره ، فألمح عليه أن يخلفه ليلة عند صاحبته ، فاستجاب له ، وعلمه كيف يصنع إذا دخل عليها .. إلا أنها أنكرته وقالت : لعن الله سراً عند المعید وأخرجه ، ولما علم المرقش بذلك عض على إبهامه فقطعها أسفًا ، وهام على وجهه حياء^(٤) .

ومن ذلك قوله :

صَحَا قَلْبُهُ عَنْهَا حَلَا إِذَا ذَكَرْتَ دَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ قَائِمًا
وَآتَى جَنَابَ حَلْفَةَ فَأَطْعَنَهُ فَنَسَكَ وَلَ اللَّوْمَ إِنْ كَنْتَ نَادِمًا
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَرءَ يَجْذُمُ كَفَهَ وَيَجْشُمَ مِنْ لَوْمِ الصَّدِيقِ الْمَجَاشِيَا
تشير هذه القصة إلى بوادر الإباحية في العصر الجاهلي .

(١) انظر أخبارهما في : الشعر والشعراء ، ٢١٠/١ - ٢١٤.

(٢) المفضلية رقم (٤٥) ، والشعر والشعراء ، ٢١٠/١ .

(٣) هو أخوه المرقش الأكبر ، ويقال : ابن أخيه

(٤) انظر القصة في الشعر والشعراء : ٢١٤/١ ، والمفضلية (٥٦) « ومعنى : زُؤُعه : قلبه -- يجذم : يقطع » .

وذلك عندما يترك المرتش ابن عمه عند صاحبته ، متحاوزاً ما عرف عند العرب من معانى الغيرة إلا أنَّ الفجور فنون في كل جاهلية .
ونعثر في الشعر الجاهلي على صفات أخرى قبيحة ، وعادات في العلاقات المريمة .

منها المعابدة بشق الثياب ، وهي من التعبات في الغزل بشق الثياب والبراقع عند المتعابين ، ومن شدة المغالبة على إظهار المحسن^(١) .
قال أبو عبيدة : « وكان من شأنهم إذا جلسوا للغزل ، أن يتعابروا بشق الثياب ، وشدة المعالجة على إبداء المحسن » .

ومن ذلك يقول سعيم « عبد بنى الحسحاس »^(٢) :

فكم قد شققنا من داء منير ومن برقع عن طفلة غير عانس
إذا شُقَّ برُدْ شق بالبرد برقع دواليك حتى كلنا غير لابس
ويعتبر ذلك من التهتك والمجانة في أخلاق الفساق وكان مشهوراً عند
أهل الجاهلية أنواع من النكاح الفاسد أبطلها الإسلام . مثل : نكاح
الاستبضاع ، ونكاح الحوامل ونكاح المقت^(٣)

على أن الزنا رغم ذلك كله ، لم يكن مباحاً على عمومه في أهل
الجاهلية ، بل كانت الخيانة الزوجية تستوجب عقوبة حصارمة قد تصل إلى
الموت عند بعض العرب .

(١) انظر المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي : محمد محمود صيام .

(٢) ديوان سعيم ص ١٥-١٦ ، تحقيق عبد العزيز الحسين ، ط دار الكتب المصرية

(٣) ستحدث إن شاء الله عن هذه الأمور مفصلة في كتاب المرأة بين الجاهلية والإسلام .

والزاني هو من يتصل بأمرأة محسنة غريبة عنه.. وإن كان الزنا لا يعتبر نقصاً بالنسبة للرجل ، ولا يعاب عليه لأن الرجل عندهم رجل وقد كانوا يفتخرون بالزنا ويفعلونه علناً ، إذ لم يكن محراً عندهم ، وإذا ولد مولود من الزنا وأن الحقه الزاني بنفسه عَدَ ابناً شرعاً له .

والزنا الذي يُعاب عند الجاهليين ، هو زنا المرأة المحسنة من رجل غريب بغير علم زوجها . إذ يعتبر خيانة وغدرأ .

أما زنا الإمام فلا يعد عيباً ، إذا كان بعلم مالكهن وبأمره وقد يلحق بالرجل الأذى من دوى المرأة المحسنة إن زنى بها انتقاماً منه ، هدره شرفهم وإلحاقه الضرر بهم .

ولعل المجتمع لم يخل من عقلاً تأثروا بيقايا الحنيفة ، دين إبراهيم عليه السلام .

ومن هنا ذكر بعض أهل الأخبار أن الرجم عرف جزئياً عند أهل الجاهلية وأن أول من رجم فيها « ربيع بن حدان »^(١) وكان أكثم بن صيّفي حكيم العرب قد حكم بأن الولد للفراش^(٢) .

وهكذا تبدو الجاهلية للباحث المتخصص ، خليطاً من الخبر والشر ، مزيجاً من الغيرة والعفاف ، والجحون والتهتك .. وهو مما تميز به الجاهلية أية جاهلية في القديم وال الحديث ... ومن هنا وجب على دعاة الخير ... دعاء هذا الدين أن يُنعوا أخلاق المجتمع وعاداته مما ران عليها من انحراف وتخبط ومن رواسب الجاهلية

هذه صورة محملة عن الجحون والاستهتار في العصر الجاهلي ، وسنرى في الصفحات القادمة كيف دعا الإسلام إلى الطهر والعفاف ، وقضى على

(١) صبح الأعشى : ٤٣٥/١

(٢) انظر الزنا وعقوبه في الجاهلية : جواد علي ، ٥٥٩/٥ - ٥٦٠ .

دوعي الانحراف والزنا ، كيف حرم الوسائل المؤدية إليه ، إضافة إلى العقوبة التي فررها في حق الزناة .

فأسس بذلك مجتمعاً ترفرف عليه راية الطهر والفضيلة حيث تسود الأسر والبيوت الطمأنينة والاستقرار والحياة .

الطهُرُ والعفاف في ظلال الإسلام

إن الجاهلية العربية لم تكن الإباحية فيها عامة ، ولا المجنون شائعاً بين جميع الطبقات ، وكذلك كانت المجتمعات البشرية تجتمع على استهجان الزنا أو تحريمه حتى عصرنا الحاضر ..

ولم يخالف في ذلك إلا شرذمة في كل مجتمع اتبعت أهواءها وشهواتها البهيمية ، وخالفت هدى الفطرة السوية .

وفطرة الإنسانية نفسها تقتضي حرمة الزنا ، إذ يتوقف عليه بقاء النوع الإنساني ، وقيام التمدن الإنساني بقتضي إلا تكون الحرية للرجل والمرأة في أن يجتمعوا ابتعاد اللذة وقضاء الشهوة النفسية .

ولذلك عَدَت المجتمعات الزنا جريمة مستلزمة للعقوبة الشديدة ، ولكن ظل سلوك المجتمعات نحو هذه الجريمة يلين شيئاً فشيئاً على قدر ما ظلت زخارف المدينة تفسد هذه المجتمعات .

وقد فرقت المجتمعات الجاهلية بين الزنا الحض وهو الزنا بأمرأة لا زوج لها ، وعقوبة هذا النوع هينة في قوانين مصر القديمة وبابل وأشور والهند واليونان .

وتعتبر جريمة الزنا عند هؤلاء هو الزنا بزوجة الغير .. وكانت عقوبة الزنا القتل بالعصا أو بإلقاء الزانية أمام الكلاب حتى تمزقها ، وأن يضجع

الرجل على سرير مملىء من الحديد وتشعل حوله النار .. ألم .. وعنده اليهود
كان القتل للزانيين أو الرجم هو العقوبة لهم .. ثم غيروا وبدلوا ..^(١)

وبذلك يتبيّن لنا أن الشرائع القديمة لم تدع الناس يعيشون في إباحية
شائنة ، كما هو شائع في الجاهلية المعاصرة ، حتى جاء الإسلام وهيأ السبيل
الواقية أمام هذه الحريمة وهيأ المناخ الملائم لإنشاء الأسرة الطاهرة العفيفة .
« فالإسلام حين يضع الحاجز في سبيل اخترافات الجنس ، ييسر الطريق
النظيف للناس ليلبوا دوافع الفطرة على نظافة وارتفاع ، ييسر الزواج
ويشجع عليه اقتصادياً واجتماعياً وفكرياً وروحيًا ، ويجعله عبادة يتقرب
بها الإنسان إلى الله »^(٢) .

ويحرم الاختلاط بين الجنسين : حتى في العبادة قال عليه السلام : « خير
صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها
أولها »^(٣) .

ويتضح من ذلك أن المجالس المختلطة من الرجال والنساء لا تتفق بحال
مع طبيعة الإسلام ، فالدين الذي لا يسمح باختلاط الجنسين للعبادة في
مواضعها ، هل لأحد أن يتصور أنه يبيع الاختلاط بينهما في الكليات
والمكاتب والمجالس والنوادي الساهرة ؟^(٤) .

(١) انظر تفسير سورة النور للمودودي رحمه الله: من ص ٣١-٣٧ ، طبعة دار الاعتصام

١٤٠٢

(٢) جاهلية القرن العشرين : الأستاذ محمد قطب ص ٢٦٠ .

(٣) الحديث صحيح مختصر صحيح سلم / ٢٦٩ ، صحيح أبي داود / ٦٨١٥ بنظر
صحيح الجامع الصغير ج ١ / ص ٦٢٦ .

(٤) تفسير سورة النور . المودودي ص ١٧٧-١٧٨

ثم سن الإسلام آداب الاستذان^(١)؛ إذ كان من عادة العرب في الجاهلية، أنهم كانوا يدخلون بيوت الناس فائلين: « حيتم صباحاً ، حيتم مساء » بدون استذان من أهلها ، وقد تقع أنظارهم على نسائهم وهن في حالة غير جديرة بالنظر .

فحدد الإسلام القواعد والأداب في المجتمع الإسلامي : قال تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَسِلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ٢٧ **فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا مَنْدَدْخُلُوهَا حَتَّى يَوْمَ الْقُرْآنِ قِيلَ لَكُمْ أَنْرِجُوا فَلَازِجُوا هُوَ أَرْزَكٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يُسَاعِدُ عَمَلَكُمْ عَلِيمٌ ﴾** (سورة النور : ٢٧-٢٨) .

وحرّم من أجل ذلك النظر إلى بيوت الناس ، وقد مرّ معنا الأحاديث التي تحرم النظر إلى محارم الناس كما حرمت الخلوة بالمرأة الأجنبية^(٢) وهكذا يسن الإسلام الآداب التي تسمو بالنفس الإنسانية ، وتبتعد بها عن مواطن الريبة والإغراء .

وكان العرف في البيت المسلم في العمارة الإسلامية يسير حسب هذه الأهداف السامية النبوية .

يقول الأستاذ محمد قطب :^(٣)

« ولكن نظرة سريعة إلى البيت في العمارة الإسلامية والبيت في الجاهلية المعاصرة تكشف عن الفارق الهائل في المفاهيم وما يترتب عليها من أنماط السلوك .

(١) تفسير سورة النور ص ١٤٢

(٢) انظر : موضوع الغيرة والأدلة الواردة في ذلك .

(٣) واقعنا المعاصر : (٦-١٠٨) .

فالبيت في العمارة الإسلامية صيانة للأداب وللأخلاق والأعراض
بقدر ما هو في الجاهلية المعاصرة « استعراض » « وكشف » لكل ما ينبغي
أن يungan .

فـالـبيـتـ الإـسـلامـىـ لاـ يـطـلـعـ الزـائـرـ عـلـىـ رـبـةـ الـبـيـتـ لأنـهاـ «ـ حـرمـ »
مـصـونـ .ـ مـنـ أـجـلـ ذـلـكـ يـخـصـصـ لـهـ مـكـانـ فـيـ الـبـيـتـ ،ـ يـسـتـقـبـلـ فـيـهـ وـيـرـحبـ
بـهـ ..ـ وـيـتـاـولـ الـطـعـامـ إـذـاـ دـعـىـ إـلـيـهـ ،ـ دـوـنـ أـنـ يـظـهـرـ لـأـهـلـ الـبـيـتـ أـوـ يـظـهـرـواـ
لـهـ

وـمـنـ بـدـيـهـيـاتـ ذـلـكـ الـبـيـتـ أـنـ تـكـوـنـ غـرـفـ النـوـمـ فـيـ أـعـماـقـهـ لـاـ فـيـ
ظـاهـرـهـ ،ـ لأنـهاـ الأـمـاـكـنـ التـيـ يـضـعـ فـيـهـ النـاسـ ثـيـاـبـهـ ،ـ وـيـنـبغـيـ الـاستـذـانـ قـبـلـ
الـدـخـولـ إـلـيـهـ حـتـىـ مـنـ الـأـطـفـالـ وـمـلـكـ الـيمـينـ .

انـظـرـ فـيـ مـقـابـلـ ذـلـكـ إـلـىـ الـبـيـتـ فـيـ الـعـمـارـةـ الـجـاهـلـيـةـ الـمـعـاـصـرـةـ حـيـثـ
حـجـرـ النـوـمـ هـىـ الـمـكـشـوفـةـ عـلـىـ الـطـرـيـقـ بـحـجـةـ الـحـصـولـ عـلـىـ أـكـبـرـ قـدـرـ مـكـنـ منـ
الـشـمـسـ وـالـهـوـاءـ !ـ وـهـىـ حـجـةـ مـفـتـحـةـ لـاـ تـسـتـرـ الرـغـبـةـ الدـاخـلـيـةـ فـيـ التـعـرـىـ
وـالـانـكـشـافـ ،ـ وـمـنـ الـبـدـيـهـيـ أـلـاـ يـكـوـنـ فـيـهـ حـرـمـ مـصـونـ ،ـ لأنـهـ لـاـ صـيـانـةـ فـيـ
هـذـهـ الـجـاهـلـيـةـ لـشـىـءـ مـنـ الـمـقـدـسـاتـ »ـ .

التحرر من سلطان الشهوة :

وـقـدـ حـرـرـ الـإـسـلامـ إـلـاـنـسـانـ مـنـ كـلـ سـلـطـانـ عـلـىـ الـأـرـضـ حـتـىـ سـلـطـانـ
الـشـهـوـةـ ،ـ شـهـوـةـ الـحـيـاةـ ،ـ وـهـىـ السـلاـحـ الذـىـ يـسـتـخـدـمـ الـطـغـةـ فـيـ اـسـتـذـالـلـ
الـبـشـرـ فـلـوـلاـ حـرـصـ النـاسـ عـلـىـ هـذـهـ الشـهـوـاتـ مـاـ قـبـلـواـ الذـلـ
وـالـشـهـوـةـ لـاـ تـشـبـعـ أـبـدـاـ بـزـيـادـةـ الـانـكـبـابـ عـلـيـهـ ،ـ وـلـكـهـ نـزـدـادـ نـفـتـحـاـ
وـاسـتعـارـاـ ..ـ وـلـذـلـكـ عـنـىـ الـإـسـلامـ عـنـيـةـ خـاصـةـ فـيـ تـحرـيرـ النـاسـ مـنـهاـ^(۱)ـ .

(۱) شـهـاـتـ حـولـ الـإـسـلامـ :ـ صـ ۱۶-۱۷ـ الـأـسـتـاذـ مـحـمـدـ قـطـبـ .

يريد الإسلام الانطلاق من جواذب الأرض نحو آفاق سامة بعيداً عن عبودية الشهوة .

قال تعالى : ﴿ وَأَلَّهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَسْعُونَ أَشْهَوَاتٍ أَنْ يَمْلُأُوكُمْ مِّثْلًا عَظِيمًا ﴾ (النساء : ٢٧) .

يريد الله لعباده التطهير والتيسير وإرادة الخير بالجماعة المسلمة .

أما الذين يتبعون الشهوات فإنهم يريدون لل المسلمين أن يملؤوا ميلاً عظيماً عن المنهج الراشد .. أن يطلقوا الغرائز من كل عقال ديني أو أخلاقي أو اجتماعي ، يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح من أي لون كان .

وهذا ما تريده اليوم الأقلام اهابطة والأجهزة الموجهة لتحطيم ما بقي من الحواجز في المجتمع دون الانطلاق البهيمي الذي لا عاصم منه إلا منهج الله حين نقره العصبة المؤمنة في الأرض إن شاء الله (١)

عقوبات وحدود :

وبعد سد جميع الذرائع أمام الغواية ، وتكوين المجتمع النظيف ، وتربيه الناس على العفة والفضيلة ، فإن الإسلام اتخذ عقوبات رادعة لجريمة الزنا لو حصلت ، وذلك بالجلد لغير المحسن ، والرجم للمحسن ذكرًا كان أم أنثى .

قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوهُ كُلَّ وَجْدٍ مِّنْهُمَا مَنَّاهَ جَلَدَهُ وَلَا تَأْخُذُ كُلَّهُ بِهِمَا رَفَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشَهَدَ عَذَابَهُمَا طَالِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢)

(١) في ظلال القرآن : ٦٣٢ - ٦٣١ / ٢

(٢) سورة التور : (الآية ٢) .

لابد من الصرامة في إقامة الحد ، وعدم الرأفة فيأخذ الفاعلين بجريتما ، وعدم تعطيل الحد أو الترفق في إقامته ، تراخيًا في دين الله وحقه ، وإقامته في مشهد عام يحضره طائفة من المؤمنين ، ليكون أوقع وأوجع في نفوس الفاعلين ونفوس المشاهدين .

أما المحسن فقد حددت حكمه السنة النبوية إذ تم حد الرجم زمان رسول الله عليه وآله وخلفائه الراشدين - رضي الله عنهم -^(١) .

والإسلام وهو يضع هذه العقوبات الصارمة الخامسة لتلك الفعلة المستنكرة لم يكن يغفل الدوافع الفطرية أو يحاربها إنما أراد محاربة الحيوانية التي لا تفرق بين جسد وجسد ..

ويعتمد كذلك على الضمانات الوقائية وعلى تطهير جو الحياة كلها من رائحة الجريمة .. فيعاقب على قذف المحسنات واتهامهن دون دليل أكيد .. بثانيين جلدة مع إسقاط الشهادة والوصم بالفسق . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَا يَأْتُوا بِأَزْيَاءٍ مُّشَهَّدَةٍ فَأَجْلِدُوهُنَّ مِّنْ شَهْدَتْهُمْ جَلَدَةً وَلَا نَقْبِلُ مِنْهُنَّ أَبْدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَسِيقُونَ ﴾ (النور : ٤)^(٢) .

هذا هو المجتمع الإسلامي ، وهذه هي معالم الطهر فيه ، فقد خلصه الإسلام من رواسب الجاهلية والخرافاتها واستمر على ذلك قرونًا متطاولة حتى بدأ الانحراف والانهيار في حضارة القرن العشرين .

(١) انظر قصة رجم ماعز والعامدية في صحيح مسلم مع الشرح للنحوى الجزء ٣٠١ ، ١٩٩ ، ١٩٤/١١

(٢) انظر في ظلال القرآن - (٤/٢٤٨٩-٢٤٩١)

المجون والاستهتار في حضارة القرن العشرين

تميز جاهلية هذا القرن بالفوضى الجنسية والانطلاق البهيمي بلا ضابط ، واعتبار أن هذه الاتصالات الجنسية الفوضوية مظهر من مظاهر الحرية الشخصية ، لا يقف في وجهها إلا متعنت ولا يخرج عليها إلا متزمن !

وفي المجتمعات الجاهلية تتعاون جميع الأجهزة على تحضير المخواجز الأخلاقية ، وعلى إفساد الضوابط الفطرية في النفس الإنسانية ، وعلى تزيين الشهوات البهيمية ووضع العناوين البريئة لها ، وعلى توهين ضوابط الأسرة .. وضوابط المجتمع ورقابته .. وعلى تمجيد هذه الشهوات وتحجيم العُرى العاطفي والجسدي والتعبيرى !

كل هذا من سمات الجاهلية الهاشطة التي جاء الإسلام ليظهر المشاعر البشرية والمجتمعات البشرية منها .

والذى يراجع أشعار امرئ القيس في جاهلية العرب يجد لها نظائر في أشعار الجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية ، كما يجد لها نظائر في الأداب والفنون المعاصرة في جاهلية العرب والجاهليات الأخرى المعاصرة أيضاً^(١) .

ولو قارنا الاستهتار الذى تطرق إليه طرفة بن العبد والأعشى وغيرهما من شعراء التهتك بهذا الانحدار العام في الجاهلية المعاصرة ، لكان أمر تلك الجاهلية .

(١) في ظلال القرآن : ٦٠٢/١ .

وها هي بلاد الغرب والشرق كلها قد أباحت الجنس وباركته بإغصاء الدولة أو تشجيعها الصريح ، وإتاحة الفرصة الواقعية للإشباع بعيداً عن كل نهى أو زجر أو تحريف .

ولكن الجموعة لم تهدأ بالإشباع المطلق المتاح .. فكم قلماً وكم كتاباً .. كم قصة .. كم صورة خليعة .. كم برنامجاً إذاعياً أو تلفزيونياً .. كم أغنية .. كم حفلة عارية أو شبه عارية يستهلكها الشباب من الجنسين؟!.. وما نتائج هذا النهم إلا القلق والجنون والانتحار؟! وماذا أصاب الأسرة من إطلاق الشهوة دون حدود؟ لم تعد الأسرة راحة وسكنى .. ورباطاً زوجياً^(١) .

لقد حاولت الأفلام الهابغطة تلوث شرفنا الحافظ العفيف وأن تنترع من الفتاة المسلمة كل خلق أو تقليد حتى الحياة الذي كانت تميز به الفتاة المسلمة بل الشرقيه حاولوا طمسه في نفسها « لقد أقيمت في شواطئ الاسكندرية « ونشرتها الصحف » مسابقة بعنوان « أبو عيون جريئة » يكون الفائز فيها هو أوقع الشبان وأقلهم حياء وأدباً » .

وكتب أنيس منصور في إحدى مقالاته في أخبار اليوم أنه زار إحدى الجامعات الألمانية ، ورأى هناك الأولاد والبنات أزواجاً أزواجاً ، مستلقين على الحشائش في فناء الجامعة .

قال : فقلت في نفسي ، متى أرى ذلك المنظر في جامعة أسيوط كى نراه عيون أهل الصعيد وتعود عليه^(٢) .

(١) جاهية القرن العشرين : محمد قطب ص ١٧٩ وما بعدها .

(٢) واقعنا المعاصر : محمد قطب ، ص ٢٦٧ ، ٢٩٤ .

ثم ساهمت الأفلام الخليعة والمسلسلات الخليفة في عالمنا الإسلامي في عرض النساء العاريات الراقصات والسباحات في البحار ومن يلاعبن الرجال باللمس والحركات المثيرة ، ويشربن معهم الخمور ، وغير ذلك من الفواحش المكشوفة التي يشاهدها الصغار والكبار ، وحسبك من شر سماعه ، فما بالك برؤيته ومعاينته ؟!

إن المنكرات متى كثر ورودها وتكرر في العين شهودها ذهبت عظمتها من القلوب حتى يراها الإنسان فلا يرى منها منكرات .
لقد أفسدت هذه الأفلام - ناهيك عن الفيديو - أخلاق البنين والبنات لأنها مشهد زور ومدرسة فجور^(١) .

لقد أفسد اليهود وأوربا وها هم يحاولون أن يفسدوا العالم كله .
تقول برونو كولات حكماء صهيون : « يجب أن نعمل لتهار الأخلاق في كل مكان ، فتسهل سيطرتنا ، إن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس كي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تهار أخلاقه .

« وإن ماركس وفرويد ودر كايم ، هؤلاء اليهود الثلاثة وغيرهم من الشياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروزاً .
ماركس ومعه التفسير المادي للتاريخ يقول : إن العفة الجنسية من فضائل المجتمع الإقطاعي البائد

(١) حماية الدين والوطن عن غزو أفلام الحلاوة والفتنة : للشيخ عبد الله بن زيد آل محمود رئيس المحاكم الشرعية بدولة قطر ص ١٠ / ١٤ .

وفرويد يقول : إن الإنسان لا يتحقق ذاته بغير الإشباع الجنسي ، وكل قيد من دين وأخلاق أو مجتمع أو تقاليد هو قيد باطل ومدمر لطاقات الإنسان وهو كبت غير مشروع «^(١)».

ودركايم يفسد علم الاجتماع بنظرياته حيث يحطم قيود الدين والأخلاق .

ومن هنا فقد تحول وجه الأرض إلى ماحور يغفر فاه لكل فتن وفتاة ؟ وإلا فمن أين كثرة الانتحار الخيف يُختطف الشباب والشابات وتزداد النسب ارتفاعاً يوماً بعد يوم «^(٢)».

ومرض الأيدز ذلك الشبح الخيف الذي بدأ يهاجم أوروبا وأمريكا « والإحصائيات كبيرة ومفزعة » هو نتيجة طبيعية للممارسة الجنسية المنحرفة ، أو الشذوذ الجنسي الساقط .

لقد سلط الله عليهم جرثومة هذا المرض المرعب الذي تفترض له القلوب هلعًا ويؤدي ب أصحابه إلى الموت مصداقاً لحديث الرسول ﷺ الذي رواه بريدة - رضي الله عنه - : « ما نقض قوم العهد إلا كان القتل بينهم ، ولا ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلط الله عليهم الموت ، ولا منع قوم فقط الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر » «^(٣)».

وها هي الكوارث والمحروب ، والقتل والدمار يصبح ذلك كله من سمات هذا العصر .

(١) حالية القرن العشرين : ص ١٥٦-١٥٧ .

(٢) انظر مقالاً بعنوان : الانتحار ، مجلة البيان ، العدد الثامن ص ٩٥ إعداد ضيف الله الصفيان .

(٣) رواه البزار : ورجاله رجال الصحيحين غير رجاء بن محمد وهو ثقة

أصبح الجنون والاستهتار بالأخلاق العامة وشيوخ الفاحشة من مميزات
الجاهلية المعاصرة .

وإن الإسلام العظيم الذي خلص البشرية من انحرافها ورذائلها في
الجاهلية القديمة ، هو قادر على تخلصها من هذه الموبقات الجديدة
والإسفاف الشائن .

فرذائل الجاهلية هي هي ، ومقومات الجاهلية هي هي ، وإن تلونت
بأشكال كثيرة ، وحالات مستحدثة .

والأمل كبير في علماء هذه الأمة الخلصين وفي دعائهما احتسبين ، إذ
عليهم تُعدُّ الآمال في التربية العقدية الجادة ، والقدوة الطيبة والتابعة
الحسنة .

والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

٢ - الخمور ومجالس الشراب عند أهل الجاهلية^(١)

من العادات القبيحة التي كانت تلازم أهل الجاهلية شرب الخمور ، وإنفاق الأموال على افتنائها ، وقضاء الليالي الساهرة مع الأصحاب على احتسائها ، مع اعتبارها وسيلة من وسائل الفخر والكرم .

شيوخ انتشارها :

لقد أغرم العرب بالخمرة متحضرين ومتبدلين ، وافتخر الشعراء بمعاقرتها وبذل المال في سبائها .

« وفي مجتمع ضيق كانت الحياة فيه تسير على وتيرة واحدة ، والفراغ فيه أكثر من العمل .. والفقر أكثر من الغنى .. في مجتمع كهذا أقبل الناس على قتل الفراغ بالبحث عن شيء ينسفهم الفقر ويعيث فيهم الأمل والطرب ، ونسيان الفراغ ثم ضياع الوقت ، إذ كانت الخمرة والقمار والنساء متع الحياة عند الشباب »^(٢) .

وقد أولع بالخمر أهل المدن كالحيرة لقربها من الفرس والروم .. وكانت فيها الحانات الكثيرة .. يسكنرون فيها ويُفجرون ، وكانت فيها أديرة للعبادة واحتساء الخمور ، وقد أكثر الشعراء القول في خمور الحيرة وغلمانها وأزهارها وأعيادها ، ولهم فيها ساقيات وفقيبات .

(١) انظر تفصيلاً لذلك : الحياة العربية من الشعر الجاهلي (٤٣٥-٤٥٤) .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام (٤/٦٦٤-٦٦٥) جواد علی .

قال عدى بن زيد :^(١)

ثم ثاروا إلى الصّبُوح فقامت فينةً في يمينها إبريق
قدمته على عقار كعين الد يك صَفَى سُلَافَهَا الرَّاوِوق
مزة قبل مرجها فإذا ما مزجت لذ طعمها من يذوق
كما أولع بالخمرة أهل الطائف لكترة كرومها وأعنابها وكانت بها
حانات كثيرة قبل الإسلام .

ومن شعرائها أبو محجن الشفقي الذي اشتهر بالخمرة في جاهليته ،
وحده أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه - عدة مرات على شربها ، ثم نفاه ،
ولحق بسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - ، وقد أبل بلاء حسنا في
القادسية ، وقال له سعد - رضي الله عنه - بعدها : لا حبستك في الخمر
بعدها أبداً ، فقال أبو محجن : وأنا والله لا أشربها بعد اليوم أبداً^(٢) . فنعم
الإسلام هادياً ومؤدياً .

وينسب إليه قوله :

إذا مت فادفنتي إلى جنب كرمة تروى عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنتي بالفلة فإنني أنحاف إذا ما مت ألا أذوقها
وشغفت الخمر أهل المدينة : ففيها النخيل والزروع ، وفيها يهود ذو
صناعة وثروة وطرب ، لا بد عنونه حتى وقت الخروج والمطاردة ، فبني
التضير كانوا وهم يخلون عن المدينة يحملون معهم الدفوف والمزامير والقيان
يعزفون خلفهم^(٣) .

(١) الأغان : لأن الفرج الأصفهاني .

(٢) الشعر والشعراء : (٤٢٤-٤٢٣/١)

(٣) الحروف : الحياة العربية ص ٤٤٥ .

و كانت الخمارات منتشرة في كل مكان ، ولا سيما على الطرق حيث ينزل بها المسافرون للاستراحة واستعادة النشاط بعد التعب والنصب وكانت بمكة وبسائر القرى خمارات كذلك ، وكان أصحابها من اليهود والنصارى في الغالب .. وفدوا من الخارج للتتكسب وامتهنوا مهنة بيع الخمر وإسقائهما للناس ، وعرفت الخمارة بالحانوت آنذاك^(١) .

أسباب ولع أهل الجاهلية بالخمر^(٢)

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا : لماذا ألوعوا بها كل هذا الولع ؟ وما مظاهر ولعهم هذا ؟ !

أ - ربما ليقضوا وقت فراغهم الطويل الممل ، ولتزيدتهم حمية وحماسة في الحروب . وقد تبعث خيالات سارة وتبعث في القلب النشاط .

قال حسان بن ثابت - رضى الله عنه - ، وذلك في جاهليته^(٣) :
ونشربها فتركتنا ملوكاً وأسدنا ما ينهننا اللقاء
ورأى العرب أن الخمرة تبعث على الكرم . قال عمرو بن كلثوم^(٤) :
ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا
مشعشعة كأن الحصى فيها فإذا ما الماء خالطها سخينا
ترى اللجز الشحيح إذا أمرت عليه ماله فيها مهينا

(١) جواد على : ٦٦٧/٤

(٢) انظر : الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، الحروف .

(٣) ديوان حسان بن ثابت : ص ٨ ط ١٩٨٣ م دار بيروت .

(٤) المعلقة ، شرح القصائد العشر للتبريزى (٤٥٥-٢٥٥) ، اندرین : قرية بالشام قرب حلب - مشعشعة : رقيقة من العصر أو المزج ، الحصى : الورس ، اللجز : البخل .

ب - وبسبب كثرة الحروب استهانوا بالحياة ، وتوقعوا الفجيعة في أنفسهم وأحبابهم ، فانكبوا على لذات الحياة ينهلوها .

وكانوا بين غالب ومغلوب ، غالب سبي وغنم وظفر فيع بالخمر بهم ونشوة ، ومغلوب كسر وسلب ماله وأسرت نساؤه ورجاله .. فأظلمت حياته وضاقت به الدنيا ، فيلود بالخمر يتناسى بها هموه .

فعترة يفخر في معمعة المعركة ، بأنه من يشرب الخمر وينفق عليها ماله ويصون عرضه ، وإذا أفاق من سكره لا يقصر عن كرمه كذلك .

يقول في معلقته : ^(١)

لقد شربت من المدامه بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
إذا شربت فإني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يُكلم
إذا صحوت فما أقصر عن ندى وكا علمت شمائلي وتكرمي
ج - وهم يرون الموت يتحرم الأعمار ويختطف الأحباب فليستمتعوا
بحياتهم القصيرة بما يملكون قبل أن يحتويهم التراب ، وقد عبر طرفة عن هذه
الترزة خير تعبير في معلقته إذ يقول : ^(٢)

ومازال تشارى الخمور ولذى وبيعى وإنفاق طريفى ومتلدى
وأفردت إفراد البعير المعد
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى
فدعنى أبادرها بما ملكت يدى
وجدك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبقي العاذلات بشربة
فطرفة يعد الخمرة واحدة من ثلاثة لولاهما لما حفل بالحياة بعد ذلك .

(١) معلقة عترة : (ص ٢٣٤-٢٣٢) شرح القصائد العشر للتبريزى ، « المشوف المعلم » قديح صاف منقوش .

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزى ، ص ١٠١ وما بعدها .

إنه يعيش في قلق وحيرة ، وجشع ليعتَب من المللّات ، كل ذلك لأنَّه
لا يؤمِّن ببعث ولا نشور .

والغريب أن بعض الكتاب المحدثين يعتبر هذه الآيات والبيت التالى
خاصة :

« فإنْ كُنْت لا تُسْتَطِع دفع مُنْتَيٍ فدُعْنِي أَبَادِرُهَا بِأَمْلَكْتْ يَدِي »
يعتبره دليلاً على أنَّ العرب آمنوا بالحرية والمسؤولية وهم متوكلون
لا متواكلون ولا عاجزون ، لأنَّهم قالوا : إذا كان كل شيء يجري بقضاء الله
وقدره ، فلماذا الخوف من الموت ؟ وهو واقع لا محالة ؟ ولماذا الضئُّ^(١)
بالمال وهو مال الله الذي يعطيه من يشاء وينعنه من يشاء ؟

وما أدرى أين الإيمان بالقضاء والقدر ، وحياة طرفة تحول إلى
جموعة من الشهوات ، بعد بأس قاتل وحياة مظلمة ؟!

د - وكانت الخمرة من مفاحر القداريين على افتئتها حيث يجمع
الرجل ندماءه فيستقيهم وينحر لهم .

يقول الحادرة :^(٢)

فسمَّى ما يدرِيكُ أَنْ رَبَّ فتَيَّةٍ باكِرَثُ لذَّتِهِمْ بِأَدْكَنْ مُترَعٍ
بَكَرُوا عَلَى بُسْحَرَةٍ فَصَبَّحُتُهُمْ مِنْ عَاتِقِ كَدْمِ الغَزَالِ مشعشع
وَمَعْرَضٌ تَغْلِيَ المَرَاجِلُ تَحْتَهُ عَجَلَتْ طَبَخَتْ لِرَهْطٍ حُجُّوعٍ
كانت الخمرة من دواعي فخر العرقى وكرمه ، وكان تقديمها
للضيف وجمع الفتىـان لشربها مفخرة أى مفخرة !

(١) انظر ملـامـع من دور الإسلام في بنـاء العمـارة العـربـية قبل الـبعثـة السـبـوـية ، ص ٦٢٨ ، د. محمد رشـاد خـليل

(٢) المفضليـات رقم (٨) ١ الأـدـكـنـ : الرـقـ - عـاتـقـ : خـمـرـةـ مـعـتـقةـ .

قال ليبد في معلقته بخاطب حبيته : أنت لا تعلمين كثرة الليالي الطيبة
التي قضيتها مع منادمة الكرام ، أبىت أحدهم ولا تدررين كم من راية خمار
قصدتها ، واشترىت الخمر منها غالبة معتقة لندامى ، وإنني لأصطبغ بها قبل
أن يصحو الدجاج^(١) :

بل أنت لا تدررين كم من ليلة طلق لذيد هُوها ومدامها
قد بُث سامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفت وعز مدامها
أغلى السباء بكل أدنى عاتق أو جونة قدحت وفُضّ ختامها
وقلما نجد شاعرًا مرموقًا إلا وقد استهونه الخمرة ، ونادرًا ما كنا نجد
من يفتخر بالكرم والسيادة إلا وقد قرن بهما فخره بالخمرة وتقديمها
للضيوف .

هـ - وقد يحل أحدهم لنفسه الخمر بعد تحريمه حتى يثار لعزيز
كاميرا القيس الذي كان قد حرم الخمر على نفسه بعد مصرع أبيه ، ولما
أوقع بيبي أسد وثار لأبيه منهم صار يحتسيها حُرًّا راضيا^(٢) :
حلَّتْ لِي الْخَمْرُ وَكَنْتُ امْرَءًا عَنْ شَرْبِهِ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ
فَالْيَوْمُ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِنَّمَا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَالْأَغْلَى
وَمَكَذَا يَحْرِمُ الْجَاهْلِيَّةَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَبْعِيْعُ كَمَا يَشَاءُ شَأْنَ كُلِّ جَاهْلِيَّةٍ
تَحْرِمُ وَتُحَلِّلُ حَسْبَ الْهَوَى .

(١) شرح الم العلاقات للطبريزى : ص ١٩٢ ، « السباء » : شراء الخمر - أدنى . زق أغبر
معتق - جونة : خالية مطلية بالقار ، قدحت : مزجت .

(٢) الأسماعيات : (رقم ٤٠) ، « المستحقب » : من قوله احتسب فلان الإمام كأنه جمعه
واحتقبه من خلفه - الواجب : الداعل على القوم في شرابهم ولم يُدع إلىه .

وصف الشعراء بمحالس الخمرة وسُقّاتها^(١)

وصف الشعراء بمحالس الخمرة وأدوات احتسائها من أباريق فضية ،
ودنان متربة ، ممزوجة بروائح الطيب والريحان .

يقول عبيد بن الأبرص واصفًا إياها وارتفاع أثمانها^(٢) :

بماء سحاب في أباريق فضة لها ثمن في البائعين ربيع
وقال الأسود بن يعفر : إن الدن كان مرفوعاً على نصائب وقد طابت
رائحته لشاربيه ، مما عليه من طيب وريحان^(٣) :

سلافة الدن مرفوعاً نصايده مقلدة الفغو والريحان ملثوماً
وقد أولع الشعراء بوصف السقاوة والكتؤوس والنديامي ، والغناء
المصاحب للخمرة ، ولعبدة بن الطبيب أبيات جياد يصور فيها غدوه
مبكراً إلى الخمارين ليشرب خمرة لم يشربها أحد مثله ، صرفاً وممزوجة ،
هناك في أماكن الطرف حيث استمع إلى قينة تغنى بشعر جميل ، فيطرد
وأصحابه لها ، فيعطيونها الهبات ومن ذلك قوله^(٤) :

١- والكوب ملان طاف فوقه زبدٌ وطابق الكبش في السفود مخلول
٢- يسعى به منصف عجلانٌ متطلقٌ فوق الحوانِ وفي الصاع التوابيل

(١) انظر الحياة العربية : المعرف (٤٤٨-٤٥١).

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص : رقم القطعة (٨).

(٣) المفضليات رقم (١٢٥)، الفغو : نبات طيب الرائحة - ملثوماً : عليه ثمام .

(٤) المفضليات : رقم القطعة (٢٦) ص ١٤٤ .

١-- طابق الكبش : ربعة أو قطعة منه - مخلول : مشكوك في السفود وهو السيخ .

٢-- المنصف : الخادم والأثنى : منصفة - الصاع : صحفة فيها حمل وأوزار مخلوط

- ٣- صرفًا مزاجًا وأحياناً يعللنا
 ٤- تذرى حواشيه جياده آنسه
 ٥- تغدو علينا تلهينا ونُصفذها

شِفَرْ كُمْذَهْبَة السَّمَانِ مَحْمُول
 فِي صَوْتِهَا لِسَمَاعِ الشَّرَبِ تَرْتِيلُ
 ثُلْقَى الْبَرُودُ عَلَيْهَا وَالسَّرَابِيلُ^(١)

وقد نستغرب إذا عرفا أن شعراً الجاهلية ، وصفوا السقاة الغلام
وهم يلبسون الأقراط والأحزمة ، أقراطاً من اللؤلؤ في أذن الساق ،
وأصابعه قد صبغت بحمرة تضرب إلى السواد والقينات الساقيات ينطفن
مخفوض الحديث تهاماً ، فيبلغن ما يرذن من إغواء بأيسر سعي وبلا
مشقة ، وهذا ما يقوله الأسود بن يعفر النهشلي ، ويصوره في شعره :^(٢)
ولقد هوَّت وللشباب لذادة بسلافة مزجت بماء غواصي
من خمر ذى نطفِ أغْنَ منطقَ واف بها لدرامِ الإسجاد
يسعى بها ذو تومتين مشمر قنأت أنامله من الفرصاد
وفي وصف القينات الساقيات يقول :

والبيض تمشي كالبلور وكالدمي ونوع من فيمشين بالأفراد
ينطفن معروفاً وهن نوعاً يبغى الوجوه رقيقة الأكباد
ينطفن مخوض الحديث تهاماً فبلغوا ما حاولوا غير تناول
نلاحظ في هذه القصيدة مظاهر التحلل والاختلاط الجنسي واضحاً ،
ما تطور في الجاهلية الحديثة إلى الهيبين والختافس حيث كادت أن تضيع

(١) المفردات : يشرونها صرفاً لطبيها أو مزوجة بالباء لسهولتها . يعللنا : يلهينا غاء القيان - السمان : الأصياغ تزوق بها السقوف ، محمول : يحمله الناس ويرددونه لحسنه ، تلدرى : ترفع - جداء : طويلاً الجيد - الآلة : المنبسطة المتهدلة ، الشرب : الشاربون .

(٢) المفضلة رقم (٤٤) ص ٢١٨ ، ٥ سلقة . خالص الشراب وأوله- غوادي :
السحاب ينشأ غدوة ، نطف : الأفراط - أغون : الذى يخرج صونه من خياله - منطق :
غلام عليه نطاق - الإسجاد : دراهم الأكسرة عليها صور يسجدون لها ذو تومبين:
المؤلّتون - قنات : اشتدت حرتها وضربت للسواد . الفرصاد : التوت - الأرفاد : ج رفـد
وهو القدح الضخم .

معالم الفروق من الحسين ولا غرابة في ذلك فالجاهلية هي الجاهلية في دوافعها ومظاهرها وبعدها عن الفطرة السليمة في كل مكان وزمان

وصف أثرها في التفوس :^(١)

كان تصوير العرب (في شعرهم) للخمر تصویراً مادياً ، إذ وضعوا رفاقها والندامى والكؤوس ، ولم يتجهوا إلى تصوير آثارها في التفوس ، وما تشيره من خيالات وأوهام ، إلا أن قليلاً منهم صور أثر الخمر في نفسه وخلال فرات السكر وأطياقه .

ومن ذلك قول المنخل اليشكري :^(٢)

ولقد شربت من المدامة بالصغير وبالكبير
فإذا سكرت فإنسى رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإنسى رب الشوبه والبمير

وكقول حسان بن ثابت في جاهليته :^(٣)

ونشربها فتركت ملوكاً وأسدًا ما ينهما اللقاء
وقول أمرئ القيس :^(٤)

ونشرب حتى نحسب الخيل حولنا بقاداً وحتى نحسب الجzon أشقرًا
أى إن الشاعر كان يشرب هو وندماؤه حتى يفقدوا صوابهم ،
فيحسرون الخيل صغار ضأن ، ويظنون الأبيض المسود (أو الأسود
المبيض) أشقر ، لأن السكر والخمرة .

(١) انظر جواد على : ٦٧٠/٤ .

(٢) الشعر والشعراء : ٤٠٥/١ . «ويقصد بقوله : الصغير والكبير أي صغير ماله وكبيره
ولم يقصد إباءً كبيراً أو صغيراً كما ذكر التبريزى !!

(٣) الديوان : ص ٨ .

(٤) الشعراء السنة : ص ٧٠ .

المُحرّمون للخمرة في الجاهلية^(١)

كان هنالك عدد من العقلاء ، عرّفوا مفاسد الخمرة وتأكدو من خبثها ، فحرموها على أنفسهم ، ومن هؤلاء : عفيف بن معد يكرب إذ يقول :^(٢)

وَقَائِلَةٌ هَلْمٌ إِلَى التَّصَانِي فَقَلْتُ عَفْتُ عَمَا تَعْلَمْتُنَا
وَوَدَعْتُ الْقَدَاحَ وَقَدْ أَرَانِي بِهَا فِي الدَّهْرِ مُشْغُوفًا رَهِينًا
وَحَرَمْتُ الْخَمْرَ عَلَيَّ حَتَّى أَكُونَ بَقْعَرُ مَلْحُودٍ دَفِينًا

وَمِنْ حَرْمَهَا أَيْضًا عَامِرُ بْنُ الظَّرْبِ وَهُوَ القَائِلُ :^(٣)

سَأَلَةُ الْمُفْتَنِي مَا لَيْسَ فِي يَدِهِ ذَهَابَةً بِعَقْوَلِ الْقَوْمِ وَالْمَالِ
تُورَثُ الْقَوْمُ أَضْغَانًا بِلَا إِحْنَنَ
مَزْرِيَّةُ الْمُفْتَنِي ذَى النِّجَادَةِ الْحَالِيِّ
أَقْسَمَتُ بِاللَّهِ أَسْقِيَهَا وَأَشْرَبَهَا حَتَّى تُمْرَقَ نَرْبُ الْأَرْضِ أَوْصَالِيُّ

وَقَدْ حَرَمَهَا عَلَى نَفْسِهِ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ سَيِّدُ بَنِي نَعِيمٍ ، وَكَانَ عَاقِلًا
حَكِيمًا شاعِرًا ، إِذْ قَدْ ثَمِيلَ مَرَةً وَسَكَرَ سَكَرًا قَبِيحاً حَتَّى أَنَّهُ جَدَبَ ابْنَتَهُ ثُمَّ
نَهَبَ مَالَهُ وَمَالَ الْخَتَارِ ، وَلَا صَحَا أَخْبَرَتِهِ ابْنَتِهِ بِمَا صَنَعَ وَمَا قَالَ . فَآلَ أَلَا
يَذْوَقُ الْخَمْرَ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَالَ :^(٤)

وَجَدَتُ الْخَمْرَ جَامِحَةً وَفِيهَا خَصَالٌ تَفْضُحُ الرِّجَلِ الْكَرِيمِا
فَلَا وَاللَّهِ أَشْرَبَهَا حَيَاةً وَلَا أَدْعُوهُ لَهَا أَبَدًا نَدِيَّا
إِنَّ الْخَمْرَ تَفْضُحُ شَارِبَهَا وَتَجْشِمُهُمْ أَبَدًا أَمْرًا عَظِيمًا

(١) انظر بلوع الأرب : ٤٥٤/٢٩٤-٣٠٠ ، والمحفوظ الحياة العربية :

(٢) أُمالي القائل : ٢٥/١ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م) .

(٣) اخْرُ لَابْنِ حَبِيبٍ : ص ٢٢٩

(٤) انظر شعره لها في الخمر ص ٢٣٧-٢٣٨ ، والأبيات في الأغانى ١٤/٨٤ دار

وقد نقل صاحب بلوغ الأربع عن ابن قتيبة في كتاب الحمراء
ويسمى «كتاب الأشربة» أنه قال :

وقد كان كثير من أصحاب رسول الله ﷺ حرموا الخمر على
أنفسهم في الجاهلية لعلهم بسوء مصروعها وكثرة جنایتها . فقالت عائشة
ـ رضي الله عنها ـ : « ما شرب أبو بكر خمراً في جاهلية ولا إسلام » .
ونقل عن عثمان بن عفان ، وعثمان بن مظعون ، والعباس بن مزداس ـ رضي
الله عنهم ـ أقوالاً في تحريمهم للخمر في الجاهلية^(١) .

ومن حرمتها في الجاهلية أيضاً الحنفاء ، وسادات القوم وشرفاؤهم
بل من حكامهم وحكماءهم أيضاً مثل عبد المطلب بن هاشم ، وورقة بن
 نوفل وزيد بن عمرو بن قُبيل وقس بن ساعدة وغيرهم^(٢) .

على أن النساء ما كن يشربن خمراً ، وكان العرب في الجاهلية وصدر
الإسلام يستبدون على النساء في شربها ، حتى ما يحفظ أن امرأة شربت ولا
سكت .

وقد سقى قوم أعرابية مسکراً ، فلما أنكرت نفسها قالت : أيسيرب
هذا نساؤكم ؟ قالوا : نعم . قالت : لعن كنتم صدقتم ، لا يدرى أحدكم من
أبوه^(٣) .

وهكذا كانت الخمر شائعة إلا عند القليل ، ولا أثر لهاولاء في مجتمع
الجاهلية حيث يضيع تعقل العقلاه ونصح الحنفاء . إلى أن جاء الإسلام
ووضع لها الحد الفاصل ، وحرمتها وأريقت لترحيمها شوارع المدينة المنورة
بالخمور المعتقة الشميّة .

(١) بلوغ الأربع : الجزء الثاني ص ٢٩٦ .

(٢) انظر : الخبر ص ٢٣٧ ، وجود على ٤٠/٦٧٠ ، وأدب الحنفية : حبيب الزهراني .

(٣) كتاب الأشربة لابن قتيبة : ص ٥٩ نقاً عن الحوكف ص ٤٥٤ .

الإسلام يحرم الخمر والمسكرات

إن الخمور التي كانت من مفاخر عرب الجاهلية ، ومن تقاليدهم العريقة المألفة ؛ مع ما يرافقها من نحر الإبل وجمع الندامى على اللهو والطرب . جاء الإسلام ليلغىها .

« وأراد بحكمته أن يأخذ الجماعة المسلمة خطوة خطوة في الطريق الذي أراده لها ، ويصنعها الله على عينه للدور الذي قدره لها . وهذا الدور العظيم لا تتلاعّم معه تلك المضيّعة في الخمر والميسير .. ^(١) »

خلص الإسلام الجماعة المسلمة من رواسب الخمرة بعد أن رسم دعائم التوحيد والعقيدة في نفوسهم .

وقد تدرج الإسلام في تحريم الخمر ، وبحديثنا ابن كثير في تفسيره عن هذا التدرج بقوله :

« لما نزل تحريم الخمر قال عمر - رضي الله عنه - : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت هذه الآية : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسير قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإنهما أكثرا من نفعهما ﴾ (البقرة آية : ٢١٩) .

فدعى عمر فُرئىت عليه فقال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً . فنزلت هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرِبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سَكَارَى ﴾ ^(١) النساء آية ٤٣ »

(١) ف ظلال القرآن : ١ / ٢٢٩ .

فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقربن الصلاة سكران . فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت آية المائدة : ﴿ يأيها الذين آمنوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رُجُسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعْلَكُمْ تُفْلِحُونَ .. إِلَى قَوْلِهِ : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟ ﴾^(١) فلما بلغ : فهل أنت منتهون؟ قال عمر : انتبهنا انتبهنا «^(٢) .

« فالخير يتلبس بالشر في هذه الأرض .. ولكن مدار الحال والحرمة هو غلبة الخير أو غلبة الشر .. فعندما يتعلق الأمر بأى النهى بقاعدة من قواعد التصور الإيماني أى بمسألة اعتقادية فإن الإسلام يقضي فيها قضاء حاسماً منذ اللحظة الأولى .

ولكن عندما يتعلق الأمر بأى النهى بعادة أو تقليد أو بوضع اجتماعي معقد فإن الإسلام يترى ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج وبهاء الظروف الواقعية التي نيسر التنفيذ والطاعة » .

« وبعد نزول آية البقرة ثم آية النساء شربها قوم وتركها آخرون ثم قالوا : لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة ، وتركها قوم في أوقات الصلاة فقط ، فقل من شربها .

والصلاحة في خمسة أوقات معظمها متقارب لا يكتفى ما فيها للمسكر والإفادة وفي هذا كسر لعادة الإدمان » .

(١) تفسير ابن كثير : ٢٤٢/١ طباعة دار الجليل بيروت الأولى ١٤٠٨ هـ .

(٢) رواه أبو داود والترمذى والنسائى من طرق عن إسرائيل عن أبي اسحق ... وقال على بن المدينى : هذا إسناد صالح صحيح وصححه الترمذى عن « تفسير ابن كثير ١ ٢٤٢/١ »

وما نزل التحريم في آية المائدة بعد وقعة أحد في سنة ثلث لم يحتاج الأمر إلى أكثر من منادٍ في نوادي المدينة ، ألا أنها القوم إن الخمر قد حُرِّمَتْ ، حتى ثرّاق في شوارعها^(١) .

قال الفخر الرازى : والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد أَلْفُوا شرب الخمر ، وكان انتفاعهم بذلك كثيراً ، فعلم أنه لو منعهم دفعه واحدة لشَقَ ذلك عليهم ، فلا جَرَمَ أَنْ ذَرَّ جَهَنَّمَ في التحريم رفقاً بهم «^(٢)» .

عالج المنجى الربانى هذا الأمر كله ببعض آيات من القرآن وعلى مراحل في رفق وتؤدة ، وانتهى المسلمين كافة وأريقت زفاف الخمر مجرد سباع الأمر ، ومعَ الذين في أفواههم جرعات من الخمر كانت في أفواههم - حين سمعوا - النداء ، تلك الجرعات .

لقد ملأ الإسلام فراغ ذلك الجيل باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغاً تملئه بنشوة الخمر وخيالات السكر ، وما يصاحبها من مفاخرات وخيالات - ملأ فراغها بالإيمان الذي يشع بها إلى الملاأ الأعلى الوضيء^(٣) .

ولنستمع إلى الحديث الصحيح الذي رواه أنس بن مالك - رضي الله عنه - في تحريم الخمر قال أنس : « كَتَتْ سَاقَ الْقَوْمَ يَوْمَ حُرْمَةِ الْخَمْرِ فِيْتُ أَنِي طَلْحَةُ ، وَمَا شَرَابِهِ إِلَّا الْفَضْيَغُ ، الْبُسْرُ وَالثَّمَرُ ، فَإِذَا مَنَادِيَ يَنْدَى فَقَالَ : اخْرُجْ فَانْظُرْ ، فَخَرَجْتُ فَإِذَا مَنَادِيَ يَنْدَى : أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ

(١) انظر : في ظلال القرآن : ١ / ٢٢٩ ، ٩٧٦ / ٢ .

(٢) انظر الرواجر عن افتراض الكبائر : أحمد بن محمد الهيثمي (ط ٢ محمد محمود الحلبي وشريكه بمصر ١٣٩٠ هـ . ١٤٩٢) .

(٣) الظلال : ٦٦٥ / ٢ .

حرّمَتْ . قال : فجَرَتْ في سكك المدينة . فعال لـ أبو طلحة : اخرج
فأهْرَقَها فهرقتها «^(١)» .

بِينَا حاولت أمريكا أن تطارد الخمرة وشربها ، وسنت عام ١٩١٩ م قانوناً سمى « قانون الجفاف » من باب التهكم عليه ، لأنَّه يمنع الرى بالخمرة واستعملت جميع وسائل المدينة الحاضرة كالمجلات والحضرات والصور والسينما لبيان مفاسد الخمر .

وقد أنفقت الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد عن ستين مليون دولار ، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاماً لا يقل عن « ٥٢٠ » مليون جنيه ، وقد أعدم فيها « ٣٠٠ » نفس وسجن : (٥٣,٢٣٣٥) نفساً ، وبلغت الغرامات (١٦ مليون جنيه) ، وصادرت من الأموال ما يبلغ « ٤٠٤ » مليون جنيه ، ولكن ذلك كلَّه لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراماً بالخمر وعذاً في تعاطيها ، حتى اضطرت حكومتها سنة ١٩٣٣ م إلى سحب هذا القانون وإباحة الخمر في بلادها إباحة مطلقة^(٢) .

هذه هي حضارة القرن العشرين ، هو وسكر وجنون في العبث والفسق ، وهي تعبير عن الخواء الروحي ، وعن الاهتمامات الكبيرة التي تستنفذ الطاقة . فمتى يدرك المفتونون في حضارة التيه والضياع هذه الحقائق ؟

ولذا كانت الخمور قد حرمت بنص كتاب الله تعالى ، فإنها حرمت في السنة النبوية ، وحد شارب الخمر أيام رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين - رضي الله عنهم - كما سيأتي .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٤٨/١٢ .

(٢) عن كتاب : تنبیحات لأنی الأعلى المودوى .

تحريم الخمر والمسكرات من السنة النبوية :

وردت الأحاديث الصريحة والكثيرة في تحريم الخمور والتغافر منها ، وتحريم بيعها وقرنه بشمن الميتة والخنزير . قال عليه السلام يوم الفتح وهو بمكة : « إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام »^(١) .

ويشمل التحريم جميع أنواع المسكرات ، وحدد ذلك الحديث الشريف : « كُلُّ مُسْكِرٍ حَمْرٌ وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ »^(٢) .

وقد وردت أحاديث أخرى تنذر بالوعيد الأكيد والترهيب الشديد لشاربها ، كلعنه ونزع صفة الإيمان عنه ، وعقوبة العذاب الشديد في الآخرة .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله عليه السلام قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »^(٣) .

والويل لمن يصر على شرب المسكر ، لأن شرابه في جهنم سيكون من عرق أهل النار . قال عليه السلام : « كل مسكر حرام ، إن على الله عز وجل عهداً لمن يشرب المسكر أن ينتهي من طينة الخبال ، قالوا : يارسول الله ، وما طينة الخبال ؟ قال : عرق أهل النار ، أو عصارة أهل النار »^(٤) .

(١) صحيح مسلم مع الشرح : ٦/١١ .

(٢) مسلم مع الشرح : ١٧٢/١٣ .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبي داود والترمذى والنمسانى .

(٤) مسلم مع الشرح : ١٧١٥/١٣ .

وقد لعن الله الخمرة وشاربها وبائعها وآخرين ذكروا في نص الحديث
الشريف :

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « لَعْنَ اللَّهِ الْخَمْرَ وَشَاربَهَا وَسَاقِهَا ، وَمُبَاتِغَهَا وَبَائِعَهَا ، وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةِ إِلَيْهِ »^(١) .

وما روی عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان يجلد شاربى الخمر
ومن شهد مجلسهم وإن لم يشرب معهم .

ولا حجّةً لمن يزعم أن في الخمرة منافع صحية وأنها قد تُصنَع
للدواء ، وذلك يخالف صريح الحديث الصحيح إذ سُئل رسول الله عن الخمرة
تصنع للدواء فقال : « ليس بدواء ولكنه داء »^(٢) .

« وهكذا نرى أن الكتاب والسنّة يحرمان الخمور ، ويتوعدان شاربها
بالعذاب والثبور ، وأن الإجماع عند هذه الأمة المسلمة على أنها محظمة وأن
مستحل شربها كافر ، كما أجمعت على تحريمسائر المسكرات ولم يقع في هذا
خلاف بين المذاهب كلها »^(٣) .

ولم يترك الإسلام شاربى الخمر يعيشون في الأمة فساداً ، أو يجاهرون
في شربها ، فوضع العقوبات الرادعة من جلد وتعزير ومقاطعة كأسائق في
الفقرة القادمة .

(١) رواه أبو داود واللّفظ له ، وأبي ماجة والترمذى وقال : حسن غريب

(٢) رواه مسلم في صحيحه : ١٥٢/١٣ (بشرح الترمذى) .

(٣) انظر كتاب : الخمر وسائر المسكرات والمخدرات : أحمد بن حجر آل بوطامي ،
قاضي المحكمة الشرعية في قطر هـ ط المكتب الإسلامي ١٤٠٢ هـ .

عقوبات وأحكام تتعلق بالخمر :^(١)

شد الإسلام النكير على شاربى الخمور ، فحرم شربها قليلها وكثيرها ، ويُكفر مستحل شربها .

قال ابن حزم : الخمر حرام بنص القرآن وسنة رسول الله ﷺ ، وإجماع الأمة ، فمن استحلها من سمع النص في ذلك وعلم بالإجماع فهو كافر مرتد حلال الدم والمال .

ويُحُدُّ شاربُها وإن لم يَسْتَكِر ، سواء أشربَ الكثير أم القليل بإجماع الصحابة على ذلك وللأحاديث الواردة في هذا الموضوع .

والحد الذي يطبق على شارب الخمر وسائر المسكرات الأخرى ما بين أربعين إلى ثمانين جلدة على رأيين للفقهاء .

ولا يُسلِّم على شارب الخمر ولا يُعاد إذا مرض ، ولا تُجَاب دعوته . وكذلك من يبيعها أو يشتريها أو يحملها أو يسكنها أو يعصرها ، بل ينبغي هجرهم لأنهم فُساق .

قال البخاري في الأدب المفرد : « باب لا يسلم على شارب الخمر » وساق إسناده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : « لا تسلموا على شراب الخمر »^(٢) .

وقال البخاري في الأدب المفرد : « باب عيادة الفساق » ثم ساق إسناده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : « لا تعودوا شراب الخمر فإذا مرضوا »^(٣) .

(١) انظر الخمر وسائر المسكرات : أحمد بن حجر آل بوطاطي ص ٩٢ - ٩٨

(٢) البخاري في الأدب المفرد : وقد أورد هذا الأثر في صحيحه معلقاً بصيغة الجزم .

واعتبر الشرع أن شرب ما يسكر بالفعل فسق بالإجماع ولا شك أنه قد ثبت ضرر شرب الخمور على الجسم والعقل وفي ذلك إضاعة للمال ، وتحدث الخصومات بسبب شربها وتفسى الأسرار ، وعنها تنشأ المهانة في أعين الناس ، وإضاعة الصلوات والعبادات .

وشهادة الأطباء والعلماء في الشرق والغرب تؤكد ذلك .

بل إن ديننا الحنيف اعتبر أن الخمر أم الكبائر .

روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - : « قال : سألت رسول الله ﷺ عن الخمر فقال : « هى أم الكبائر وأم الفواحش ، من شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أحد وحالته وعمته » ^(١) .

وحتى الذين انتشرت الخمور بينهم تنبه بعض عقلائهم إلى أضرارها الجسمية والعقلية . يقول « كليمانصو » من كبار ساسة فرنسا : « إن القول بالقدر الذي يتناوله كثير من أهل عصرنا هو سبب زعاف بخرب النشاط البشري بل يقضى على كل مجتمع » .

ـ وقال « هرييو » من كبار ساسة فرنسا أيضاً : « إن معظم من في ملاجئ المجنين - بسبب الغول - يكلفون الحكومة نفقات باهظة كان الأولى بها أن تتفقها على المعوزين البائسين ، والأمة التي تبقى على هذه السخافات تحكم على نفسها بالفناء » ^(٢) .

وستلقي مزيداً من التفصيل على تغلغل المسكرات بأنواعها في المجتمعات الغربية في هذا القرن .

(١) الزواجر : الهيثمي ، ١٤٧/٢ ، ١٥٦ .

(٢) الإسلام والحضارة العربية : محمد كرد على ١٠٣/١ ، الطبعة الثالثة ١٩٦٨ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة .

الخمر والمسكرات في حضارة القرن العشرين

لم تنتشر المسكرات في عصر من العصور كما انتشرت في هذا القرن ولم تصب المجتمعات بحمى السكر علنًا كما أصبت به في هذه الجاهلية .

لقد تفنن الناس في أشكالها وأنواعها ، فعرف الأفيون والهيروين والحسيش والقات وما إلى ذلك مما يسكر الإنسان .

وأصبحت الخمور تُجلب وتصنع وتتباع علنًا حتى في بلاد المسلمين وهي محامية بقوة القانون وسطوة التشريع والعرف .

ومن الأمور التي شاعت الحشيشة ، وقد أشار إليها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (السياسة الشرعية) ما خلاصته : « إن الحشيشة حرام يُحَدّد متناولها كما يحد شارب الخمر ، وهي أخبث من الخمر ، من جهة أنها تفسد العقل والمزاج حتى يصير في الرجل تخت ودياثة وغير ذلك من الفساد وأنها تصد عن ذكر الله »^(١) .

وقال رحمه الله في الفتاوي : « هذه الحشيشة الملعونة هي وأكلوها ومستحلوها ، الموجبة لسخط الله تعالى ، وسخط رسوله وسخط عباده المؤمنين المعرضة صاحبها لعقوبة الله تشمل على ضرر في دين المرء وعقله وخلقه وطبعه .. ففيها من المفاسد ما ليس في الخمر فهي بالتحريم أولى ، ولم تكن الحشيشة قد عرفت وإنما حدثت بمجيء التتار إلى بلاد الإسلام »^(٢) .

(١) انظر السياسة الشرعية لابن تيمية رحمه الله .

(٢) الفتاوي لابن تيمية : ج ٤ / ٣٤٢ ، ٢٢٢ ، وانظر : الزواجر للهيثمي : ٦٠ / ٢

أما الحالات فله أضراره الجسمية كذلك ، ويقرب في مفاسده من الخمر لأنّه مُفترٌ ، وقد (نهى رسول الله ﷺ عن كل مُسْكِرٍ وَمُفَرٍّ) ، وإنّه يلهمي أصحابه عن الصلوات ويكون سبباً للخمول وتبذير الأموال رغم فقر الذين يتغاضونه وحاجتهم إلى قوت العيال الضروري .

وقد كثرت الحبوب المصنعة من المخدرات ، ومن يطلع على ما تنشره الصحف والمجلات عن الخمور وحبوب المخدرات يهوله كثرة الضحايا ، ويدخله الواقع المريض .. في بلاد الغرب والشرق ، وفي بلاد المسلمين حيث أنّ كثيراً منهم صاروا أتباعاً لكل ناعق في الخمور والمخدرات وأنواع الموبقات الأخرى .

وفي تقرير أعدته « منظمة الحد من مفاسد الكحول » ونشرته صحيفة التايمز بتاريخ : ١٩٨٦/٣/٢٥ م جاء فيه :

« إن أكثر من (٢٥) ألف شخص يموتون سنويًا في بريطانيا كنتيجة مباشرة لسوء استعمال الكحول ، وإن واحداً من كل ثلاثة سائقين يتسببون في وقوع حوادث السيارات والتي يتبع عنها آلاف القتلى والجرحى كل سنة .. قد تعدى الحد القانوني في الشراب ». .

« إن نصف المتهمين بجرائم القتل كانوا أثناءها مفرطين في السكر »
« إن الحالة المستمرة التي يعيشها المجتمع هلعاً من مخاطر المخدرات قد صرفت الانتباه بعيداً عن القاتل الحقيقي - يعني الخمور - وفي عام ١٩٨٤ م قتل (٢٥٠٠) على الأقل بسبب الإفراط في تناول الخمور بينما (٢٣٥) حالة وفاة فقط نسبت بها المخدرات ». .

إن السراب الذي يتطلع إليه المخدوعون بهذه الحضارة لتعكسه هذه الأرقام والإحصائيات فنظهر على حقيقتها^(١) .

(١) عن مجلة البيان ، العدد الثاني ، صفر ١٤٠٧ هـ .

وفي تقرير أعده خبراء الصحة ونشرته صحيفة التايمز بتاريخ

١٩٨٦/٣/٢٥ جاء فيه :

إن البريطانيين ينفقون (٣٥) مليون جنيه استرليني يومياً على المشروبات الكحولية ، ويدخل في خزانة الدولة سنوياً (٦ بلايين جنيه) كضرائب على هذه المشروبات ولكن الفاتورة السنوية التي تصرفها البلد من جراء مفاسد هذه المشروبات فدرت بمليار و ٦٨٠ مليون جنيه ، وذلك نتيجة التغيب عن العمل الناجم عن الأمراض التي تسببها الخمور وأجور العلاج في المستشفيات » .

فماذا بقى من حضارة مجتمع ينفق أكثر من (١٢) مليار جنيه سنوياً على الخمور فقط .. في وقت يعيش فيه (١١) مليوناً من أبنائه تحت مستوى الفقر !!؟

وفي نيويورك وصل عدد الذين سقطوا ضحية عمليات الإجرام مع نهاية عام (١٩٨٨م) إلى (١٨٤٩) قتيلاً أى بمعدل خمسة قتلى في اليوم الواحد ، بما في ذلك ثمانية قتلوا عشيّة أعياد الميلاد ، وستة آخرون في اليوم التالي . بينما سجل أعلى رقم قياسي في عام (١٩٨١م)، ١٨٤١ قتيلاً . وبهذا يكون عام ١٩٨٨ م هو الأعنف الذي تمر به مدينة نيويورك ، من حيث الجرائم ، ويعزو المسؤولون في المدينة هذا الارتفاع في عمليات القتل إلى تفشي تعاطي المخدرات بأنواعها^(١) .

هذه بعض إفرازات السُّكُر والغربَدة وتعاطي المخدرات في حضارة التيه والضياع !

حتى الأعياد عند أولئك تصبح مأتم بسبب السكر والغربَدة ، ففى عيد الميلاد في بريطانيا وببلاد الغرب يرى الزائر أنَّ نوعين من الحالات لا

(١) البيان : العدد السادس عشر ص ٩٧

تغلق أبوابها ، بل يزدهر سوقها ويكثر روادها وهم : الحانات والبارات التي يشرب فيها الخمر والمسكرات ، حيث يفرط الناس بشربها إلى حد فقدان العقل وفقدان السيطرة على السلوك .

« ومن الحوادث الطريفة في ليلة العيد السابق أن شاباً سقط من ارتفاع أربعين قدمًا على شابة تبلغ العشرين من العمر مما أدى إلى إصابتها بالشلل المزمن .

والشاب المخمور قال لأصدقائه : لقد كنت في غيبة تامة لا أستطيع أن أتذكر كيف سقطت كل هذه المسافة »^(١) !!

« وقد أعلنت الشرطة البريطانية أنه قد تم القبض على ما يزيد على ١٥٠ شخصاً في منطقة ميدان الطرف الأغر بوسط لندن ، وكانت معظم هذه الحوادث التي وقعت قد جاءت نتيجة للسكر والإخلال بالنظام العام والتعدى على الناس »^(٢) .

وفي بلاد المسلمين : كثرت حوادث مطاردة مهربى المخدرات ، وكثرت جرائم تعاطيها عند كثير من الناس على مختلف الأعمار والمستويات ، وأصبحت عملية مكافحة المخدرات قضية تشغل الحكومات المختلفة .

وكل هذا يتم في غيبة الإيمان ، والبعد عن الوازع الديني ذاك الذى جعل المسلمين يُرِيَّقون الخمور بمجرد أن سمعوا بتحريم كتاب الله لها . فلتعد إلى التربية الإيمانية إذا أردنا التخلص من هذه الشرور وإلا فإن الجاهلية الحديثة أشد فتكاً من الجاهلية القديمة .

(١) البيان : جادى الآخرة ١٤٠٧ هـ عن صحيفة : « الصُّنْ » The Sun في ٢٧/١٢/١٩٨٦ م .

(٢) جريدة الشرق الأوسط : ١٩٨٦/١٢/٢٩ م .

٣ - القيانُ والغناءُ في الجاهلية

لقد أكثر شعراء العصر الجاهلي الحديث عن المغنيات والغناء ولاسيما بعد أن قوى الاتصال بين العرب والأمم الأخرى كالفرس والروم والأحباش حيث كثرت القيان في جزيرة العرب^(١).

وقد شاع ذكر القيان والخمور ومجالس اللهو ، على ألسنة الشعراء في ذلك العصر .. وكان المغنيات والغناء وآلات اللهو والطرب كانت من مستلزمات الخمر في الجاهلية .

يتحدث طرفة بن العبد مثلاً في معلقته عن شربه للخمور مع ندامائه ، وقد أطربتهم قينة حسنة رخيصة الصوت فيقول :^(٢)

ندامى بيض الوجه وقينة تروح علينا بين بُرد ومسجد
رحيب قطاب الجيب منها رفقة يحسن الندامي بضمَّة التجرد
إذا نحن قلنا أسمينا انبرت لنا على رسنها مطروفة لم تشتدِ
فالخمرة وامرأة مغنية والغناء في جو اللهو والطرب كانت من
مقومات الجاهلية آنذاك .

(١) انظر الحياة العربية في الشعر الجاهلي : د. الحوف (١٨٩-١٨٦) .

(٢) شرح القصائد العشر للتبزيزى : (١٠٣-١٠١) .

شرح الغريب : ١ - القينة : الأمة مغنية كانت أو غير مغنية . الحمد : الشوب المصبوغ بالزعفران .

٢ - رحيب قطاب الجيب : أى إن عنقها واسع فتحتاج أن يكون جيبها واسعاً - البضة : البيضاء الرخصة - التجرد : جسدها التجرد من ثيابها .

٣ - أسمينا : غبينا -- على رسنها : أى ترمت برفق . مطروفة : ساكنة الطرف - فاترته - لم تشدد : لم تجهد .

وقال امرؤ القيس : إنه يفرج كربه وهمه عادة بسماع مغنية كانت
تعرف على العود :^(١)
وإن أنسٌ مكروباً فيارب قينه منعمة أعملتها يكران
لها مزهراً يعلو الخميس بصوته أجيشه إذا ما حركته يدان
روى الإخباريون أن امرأ القيس لما طرده أبوه ، كان يسير مع شداد
العرب ، فإذا صادف عديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في
كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ، ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب
الخمر وسقاهم وغثته قيائمه^(٢).

ويبدو أن الخمر كانت تُصحب بالغناء في الأعم الأغلب عند شاربيها
في مجالسهم ، فعمرو بن الإطابة : ينخر باحتساء الخمر المصفاة ، وبسماع
القيان العازفات على الدفوف لفتیان القبيلة . استمع إليه إذ يقول :^(٣)
عللاني وعللا صاحبنا واسقاني من المروق ريا
إن فينا القيان يعزف بالدف لفتیانا وعيشنا رحينا
وعندما أسر عبد يقوث ، وصف مفاخره في ماضيه الذي كان
يتحسر على حرمانه منه ، ومن هذه المفاخر أنه كان يطرب فيشق رداءه بين
القيتين ويتحر للندامي مطيته يقول في قصيدة طويلة :^(٤)
وآخر للشرب الكرام مطيتي وأصدع بين القيتين ردائيها
كأنى لم أركب جواذاً ولم أقل لخيلى كرى نفسى عن رجاليا
ولم أسبا الزق الروى ولم أقل لأيسار صدق : أعظموا ضوء ناريا

(١) الشعراء السنة : ص ٧٨ ، « انكران » : العود الذي يضرب به ، « المزهراً » : العود -

الأجيشه : الخشن الذي فيه بحة »

(٢) الأغاني : ٨٧/٩ « طبعة دار الكتب »

(٣) الأغاني . ١٦٤/٩

(٤) المفضليات : ص ١٥٨ ، رقم الفضة (٣٠)

فقد ارتبطت نشوة الخمر ولذة الغناء في المتعة بالنساء ، إضافة إلى
الميسير وأكل لحوم الإبل .

و كانت هذه الأمور من مفاسخ القوم التي أكثروا تردادها ، انظر إلى
هذا الشعر لبرج بن مسهر الطائفي حيث يفخر بالخمر و سماع القيان ،
وتنداعى خواطر اللذات على ذهنه ، فيذكر الاستمتاع بالنساء المنعمات^(١) :

وندمانٍ يزيد الكأس طيباً سُقِيتُ إذا تغورَّت النجوم
فبتنا بين ذاك وبين مسك فيا عجباً لعيش لو يدومُ
وفينا سمعاً عند شرب وغزلانٍ يعد لها الحميمُ

و كانت الموسيقى تصحب الغناء والخمور والنساء عند القوم ، يصور

ذلك الأعشى في معلقته إذ يقول :^(٢)

يسعني بها ذو زجاجات له نطف مُقلص أسفل السربال معتملاً
ومستجيب تخال الصنْج يسمعه إذا ترجع فيه القينة الفضلُ
والساحبات ذيول الرِّيط آونةً والرافلات على أعجازِها العجلُ
ونكتفى بهذا القدر حيث يطول الشعر في هذا المجال ، وقد ارتبط
بالغناء منذ القدم ، إذ يشير أبو الفرج الأصفهاني إلى بعض شعراء الجاهلية
من كانوا يتغدون بشعرهم مثل : السُّلَيْكِ بْنُ السَّلَكَةِ ، وعلقمة الفحل

(١) الحماسة : ٣٤/٢ ، تحقيق العسيلي .

(٢) معلقة الأعشى : و المعلقات العثر للتربيزي :

الغريب : نطف : قرط في الأذن - الصنْج . هو الذي يكون في الدفوف و نحوه -
الفضل : التي في ثيابها فضليها . الساحبات : النساء اللواتي يرافقن في ثيابهن - العجل : القرب إذ
شبه أعيجاز النساء بالقرب الملعونة .

والأعشى ، وكان الأخير يوقع شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصنج ، ولعله سمي لذلك صناجة العرب^(١) .

وما يلفت النظر ، أن هذا الشعر ، بل وهذا الغناء كان يقتربن بذكر أدوات موسيقية مختلفة كالمزهرا والدف والبربط وهو آلة وترية .

وكانوا يستمعون إلى القیان في الحیرة وهن يضربون على الآلات الموسيقية الفارسية ، وأدخل العرب كثيراً من هؤلاء القیان إلى جزيرتهم مثل : خلیدة ، وهریرة في الیامۃ ، والأخیرة هي صاحبة الأعشى التي ذكرها في معلقته^(٢) .

وفي أخبار غزوہ بدر : أن أبا سفيان لما نصح قريشاً أن تعود قبل أن يوقع الرسول ﷺ بها قال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا فنقيم عليه ثلاثة وتنحر الجُزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمور وتعزف علينا القیان وتسمع بنا العرب^(٣) .

(١) الأغان : (طبعة دار الكتب) ١٠٩/٩ ، ١١٣/٩ .

(٢) السيرة النبوية : لابن هشام ، ج ١ ص ٦١٨

الغناء والمعازف في نظر الإسلام

جاء الإسلام ليظهر الناس من هو الجاهلية ، فحرم عليهم الخمر وكل الموبقات ، وحرم عليهم مجالس الشراب وغناء القيان والمعازف ، نجد ذلك مفصلاً في كتب التفسير والفقه والأحاديث الشريفة .

ونظراً لانتشار البلوى في العصر الحاضر ، مع قلة التنبه إليها سألفي الضوء على هذا الموضوع بما يتناسب مع طبيعة البحث .

تحريم الغناء والمعازف من القرآن الكريم :

وردت آيات عدّة فيها تحريم الغناء صراحة ، وأيات أخرى تحرمه بطريق التضمين ، وإليك آيات القسم الأول :

١ - قال تعالى لإبليس حينما امتنع عن السجود لأدم - عليه السلام - في سورة الإسراء : ﴿ وَاسْتَفِرْزَ مَنِ اسْتَطَعَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَاجْبَعْتَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأُولَادِ وَعِذْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (سورة الإسراء : ٦٤) .

لقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن صوت إبليس المذكور في هذه الآية هو الغناء واللهو واللعب .

وقال مجاهد : « واستفرز من استطعت منهم بصوتك » اللهو واللعب .

وقال آخرون عنى به : « واستفرز من استطعت منهم بدعائك إياه إلى طاعتك ومعصية الله » .

وقال مجاهد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : صوت الشيطان الغناء ، والمزامير واللهو ، وقال الضحاك أيضاً : صوت الشيطان في هذه الآية هو صوت المزمار^(١) .

٢ - والآية الثانية في سورة لقمان :

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرَى لَهُوَ الْحَدِيثُ لِيُضْلِلَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يُغَيِّرُ عِلْمَهُ وَيَتَّخِذُهَا هُرْزًا أَوْ لَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (سورة لقمان : ٦)

روى ابن جرير الطبرى عدة آراء في تفسير هذه الآية^(٢) منها قول عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال : « ومن الناس من يشتري هوا الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم : الغناء والله الذى لا إله إلا هو ، ويرددتها ثلاث مرات .

وعن سعيد بن جعفر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرَى لَهُوَ الْحَدِيثُ ﴾ قال : الغناء .

وفي رواية ثور بن أبي فاختة عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرَى لَهُوَ الْحَدِيثُ ﴾ قال : « هو الرجل يشتري الجارية تغنيه ليلاً ونهاراً » .

روى عن مجاهد أنه قال : الغناء ، وفي بعض الطرق : الغناء وكل له ، وفي بعضها قال : المغنى والمغنية بالمال الكثير والاستماع إليه وإلى مثله من الباطل .

وقد رجح ابن جرير رحمه الله : أن الآية عامة في كل حديث يلهى عن سبيل الله سواء أكان حاصلاً من كافر أو مسلم .

(١) تفسير ابن جرير الطبرى : ١١٨/١٥ ، ١١٩ ط ٢ طبعة الحلبى .

(٢) تفسير ابن جرير الطبرى : (٢١ / من ص ٦٠ حتى ٦٣)

ثم قال : والصواب في ذلك أن يقال : عُنِي به كل ما كان من الحديث ملهاً عن سبيل الله مما نهى الله عن استئناعه ورسوله لأن الله عَمِّ يقوله هو الحديث ولم يخص بعضاً دون بعض .. والغناء والشرك من ذلك^(١).

قال الحاكم أبو عبد الله في التفسير من كتاب المستدرك : « ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحافى الذى شهد الوحي والتتريل عند الشيفيين : حديث مسنده .. فهو أعلم الأمة بمراد الله عز وجل من كتابه ، فعنهم نزل ، وهو أول من خطب به من الأمة ، وقد شاهدوا تفسيره من الرسول عليه صلوات الله عليه علمًا وعملًا ، وهم العرب الفصحاء على الحقيقة ، فلا يعدل عن تفسيرهم ما وُجد إليه سبيلاً .. » .

ويقول ابن القيم رحمه الله بعد تعليقه على هذه الآية :

والغناء أشد لهوا وأعظم ضررًا .. فإنه رُفقة الزنا ، ومنت النفاق وشرك الشيطان ، وخرة العقل ، وصده عن القرآن أعظم من صد غيره من الكلام الباطل لشدة ميل النفوس إليه .

وإنك لا تجد أحداً عُنِي بالغناء وسماع آلاته إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى ، علمًا وعملًا ، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلى استماع الغناء ، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا إلى ذاك ، وثقل عليه سماع القرآن^(٢) .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلَأِنَّ عَلَيْهِ أَيْتَنَا وَلَنْ مُسْتَحْكِرًا كَانَ لَنْ يَسْمَعُهَا كَانَ فِي أَذْنَيْهِ وَقَرَافِشَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(٣) .

(١) تفسير ابن حجر الطبرى : (٢١/من ص ٦٠ حتى ٦٣) .

(٢) رسالة في أحكام الغناء : ابن قيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد الفقى نشر دار طيبة : الرياض ١٤٠٣ هـ .

(٣) سورة لقمان : الآية (٧) .

وَمَا تَقْدِمُ تَبْيَانَ الْغَنَاءِ يَدْخُلُ تَحْتَ عُمُومِ الْآيَةِ : ﴿٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهُ الْحَدِيثَ ﴿٧﴾ .. بِإِجْمَاعٍ مِّنْ يَعْتَدُ بِهِ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ .

٣ - والآية الثالثة ، من الآيات التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه قوله تعالى :

﴿أَفَيْنَ هَذَا الْحَدِيثُ تَعْجَبُونَ لَهُ أَوْ تَضَعُكُونَ وَلَا تَكُونُونَ ۚ ۖ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ﴾

(سورة النجم : ٦١-٥٩) .

قال ابن عباس - رضى الله عنه - : هو الغناء بالجميرية ، واسمى لنا : أى غنى لنا .

وقال عكرمة في تفسير الآية : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنووا ليصدوا الناس عن القرآن بالغناء ، فنزلت الآية : ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ (إِلَى) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾^(١) .

ولهذا سمى السلف الصالح الغناء : قرآن الشيطان لأنه يعارض به القرآن ويشغل به عن ذكر الله .

وقال ابن القيم - رحمه الله - عن ابن عباس قال : السمود هو الغناء في لغة جمير ، يقال : اسمى لنا أى غنى لنا^(٢) .

وقد أورد ابن القيم في رسالته^(٣) اثنى عشر اسمًا للسماع الشيطاني منها : اللهو واللعب ، وهو الحديث ، والزور والباطل والمُكَاء والتَّصْدِيَة ورُقْيَة الزانى وقرآن الشيطان ومنبت النفاق ، وصوت الشيطان ومزموره .. انتهى .

(١) انظر : تفسير القرطبي ١٤/٥١-٥٢ ، وابن كثير في تفسيره : ٢٦١/١٤ .

(٢) إغاثة الهمان : ١/٢٥٨ لابن القيم المخوزية .

(٣) انظر رسالة في أحكام الغناء لابن القيم : (من ص ١٦-٣٧) .

ومن الآيات السابقة وتفسير السلف لها يتبيّن لنا مدى عوم البلوى
فـ انتشار الأغانى ، والتساهل في سماعها .. وفي السنة البرية وأقوال العلماء
والآئمة ما يزيد الأمر وضوحاً في الفقرات القادمة .

ما جاء في تحريم الغناء والمعازف في السنة النبوية

أخرج البخارى في صحيحه عن هشام بن عمار وساق سنه أن النبي ﷺ قال :

« ليكوننَّ فِي أُمَّتِي أُقْوَامٌ يَسْتَحْلِلُونَ الْحَرَّ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَافِ »^(١).

وهذا الحديث صريح في تحريم آلات اللهو المطربة ، إذ يخبر عن قوم يبيحون ويستحلون المعازف وهي آلات اللهو والطرب من طبل ومزمار وعود وربابة وغيرها .

قال القرطبي : أما المزامير والأوتار والكوبية فلا يختلف في تحريم استئناعها ، ولم أسمع عن أحد من يعتبر قوله من السلف وأئمة الخلف من يبيح ذلك ، وكيف لا يحرم وهو شعار أهل الخمر والفسق ويهيج الشهوات والفساد والمحنون ؟!

وما حرمت هذه الأشياء لأنماتها وألقابها بل لما فيها من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة والميل إلى الهوى والانغماس في المعاصي^(٢) .

(١) صحيح البخارى : كتاب الأشربة ، باب فيمن يستحلل الخمر ويسميه بغير اسمه ، وانظر الفتن : ٤٠-٤٤ . « والحرّ : الفرج والمراد به استحلال الرنا » .

قال ابن الصلاح في علوم الحديث : (الحديث صحيح معروف الاتصال بشرط الصحيح) . وقد رد العلماء على قول ابن حزم إن السنن هنا منقطع كابن حجر وابن جيان في صحيحه وال العراقي ، وابن القيم في تهذيب سنن أبي داود فإنه صفحه من ستة وجوه رد فيها على ابن حزم

(٢) الزواجر عن افتراق الكبائر ، لأن العباس أحمد بن محمد المحتسي طبعة مصطفى الحلبي . (٢٠٢-٢١٠/٢).

وأخرج ابن ماجة في سنته ، عن أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه - قال ، قال رسول الله ﷺ : « ليشربَنَّ ناسٌ من أمعنِي الْخَمْرِ ، يسمونها بغير اسمها ، يعزف على رؤوسهم بالمعازف والغنيمات ، يخسف الله بهم الأرض ، ويجعل منهم قردة وختانيز » ^(١) .

وفي هذا الحديث توعد الله مستحلي المعازف ، بأن يخسف بهم الأرض ويسمخ لهم قردة وختانيز ...

وللصحابة أقوال في ذم الغناء والمعازف ، لأنهم - رضي الله عنهم - هم الذين تلقوا عن رسول الله ﷺ وهم الذين فهموا السنة وطبقوها ونقلوها إلينا .

ومن ذلك ما قاله ابن مسعود - رضي الله عنه - : « الغناء ينبع النفاق في القلب كما ينبع الماء العشب » ^(٢)

وقال عثمان بن عفان - رضي الله عنه - : « ما تمنيت ولا تغتبت ولا مست ذكرى يسميني منذ بايعت رسول الله ﷺ فتنزه عن الغناء » ^(٣) .

(١) قال ابن القيم رحمه الله : هذا إسناد صحيح « رسالته في أحكام الغناء » تحقيق محمد حامد الفقي و هناك أحاديث كثيرة وردت في هذا الباب ، لكن لا يخلو كثير منها من مقال و ضعف متقارب ، وبمجموعها تكون دليلاً وحجة ، إلا أنني اكتفيت بذكر الصحيح منها ثم بما صر من أقوال الصحابة رضي الله عنهم .

(٢) صحيح موقوف على ابن مسعود ، أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي رقم (١٢) ، وقال ابن القيم رحمه الله في إغاثة اللھفان من مصايد الشيطان ، تحقيق محمد حامد الفقي : هو صحيح عن ابن مسعود .

(٣) صحيح : انظر نزهة الأسماع في مسألة السماع لابن رجب ص ٦٠ .

ونقل عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال لقوم وفيهم
رجل يتغنى :
« ألا لاسمع الله لكم ، ألا لاسمع الله لكم »^(١) .

وذم أئمة السلف والتابعون لهم بإحسان الغناء وذكروا مخاطره .

كتب عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - إلى مؤدب ولده : « ليكن
أول ما يعتقدون من أدبك بعض الملاهي التي بذوها الشيطان ، وعاقبتها
سخط الرحمن .

فإنه بلغني عن الثقات من أهل العلم : أن صوت المعازف واستماع
الأغاني ، واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب على الماء »^(٢) .

وقال الشعبي رحمه الله : « لعن المعنئ والمعنئ له »^(٣) .
ومثله الضحاك رحمه الله إذ يقول : « الغناء مفسدة للقلب مسخرة
للرب »^(٤) .

(١) حديث صحيح : انظر كتاب أحاديث ذم الغناء والمعازف في الميراث ص ١٥٢ ،
ونزهة الأسماع لابن رجب رقم : ٥٣ ، ص ٥٧ . « فتاوى في الغناء لأحمد بن الحسن البختي
رحمه الله ، تحقيق : حمد بن عبد العزيز الضويان » ص ٣٠ نشر دار طيبة في الرياض ١٤٠٩ هـ .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي رقم (٢٠) ص ٤٠ ، وابن الجوزي في تلبيس
إبليس ص ٢٣٥ ، وإسناده - حسن كما في نزهة الأسماع تعليق رقم (٦٦) وهو فتاوى في الغناء
ص ٤٢٩ .

(٣) إغاثة اللهفان : لابن القيم (١/٢٥٠) ، دار المعرفة للطباعة والنشر « بيروت
لبنان » .

أقوال الأئمة والعلماء في الغناء والمزامير^(١)

إن الغناء المعروف الآن ، والمصحوب بالمعازف المحرمة لا يختلف أثاث
من أهل العلم والدين في تحريمه ، وقد حكى العلماء الإجماع على تحريمه .

ومن حكى الإجماع : ابن جرير الطبرى في تفسيره ، وحكى إجماع
السلف ما عدا رجليين اثنين هما إبراهيم بن سعد ، وعبد الله ابن الحسن
العنبرى ، هذا في الغناء دون سماع آلات الملائكة .

وقد حكى الإجماع أيضاً على تحريمه ابن الصلاح قال : « من نسب
إياحته إلى أحد من العلماء يجوز الاقتداء به في الدين فقد أخطأ » .

وقال الفضيل بن عياض : الغناء رائد الفجور .

وسُئل الإمام مالك عما يترخص به أهل المدينة من الغناء فقال : إنما
يفعله عندنا الفساق .

وقال الإمام أحمد : الغناء ينبع النفاق في القلب فلا يعجبني .

وقال الشافعى عندما سُئل عن الرجل تكون له القينة فيجمع أصحابه
لتسمعهم الغناء قال : « هذه ديانة وصاحب هذه الجارية ديوث والرسول
عليه السلام يقول : « لا يدخل الجنة ديوث » .

(١) انظر : إغاثة اللهمان لابن القيم رحمه الله ، الجزء الأول وتزبيه الشريعة عن إباحة
الأغانى الخليقة : الشیعی أحمد بن یحیی التنجی (من ص ٧٨-٨٦) طبع ونشر الرئاسة العامة
لإدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ١٤٠٥ هـ .

وكان أبو حنيفة وأصحابه من أشد الناس في ذلك ، فقد صرّحوا بحرمة سباع الملاهي كلها كالمزمار والدف وصرحوا بأنه فسق تردية الشهادة .

أقسام الغناء وأراء العلماء فيها :

على أن الغناء المجرد من غير آلة : منه المباح ومنه غناء المحترفين ، ومنه الحرام وإليك خلاصة ما قاله الفقهاء في ذلك .

القسم الأول : يباح الغناء إذا كان لبعث الهمة على العمل التثليل أو للتروع عن النفس أثناء قطع المفاوز كالارتفاع بشرط أن يسلم من الفحش وذكر الحرم كوصف الخمور والقيبات ، أو أن يكون الغناء من امرأة أجنبية أمام الرجال كل ذلك بحرم سماعه .

كل هذا بشرط أن لا يصبح الغناء آلة فهو محظوظ وإلا حرام ولو كان الشعر وعضاً أو حكمة لمكان الآلة لا للذات التغنى المباح .

ومن الغناء المباح بهذه الشروط الرجز بالشعر وكحداء الأعراب لإبلهم ، وغناء النساء لينام الأطفال .

وقد ارتجز النبي ﷺ وأصحابه في بناء المسجد وحفر الخندق ، ومنها قول النبي ﷺ : « يا أبا جعشن رُؤيْدَك سُوقًا بالقوارير » حيث كان يحدو بشعر مباح ، وقد ارتجز عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - في الخندق ، وكان الرسول يرتجز مع أصحابه ، ويسمع الشعر فقد سمع حسان بن ثابت وغيره من شعراء الصحابة - رضي الله عنهم - ، مما يدل على جواز إنشاد الشعر

الذى ليس فيه وصف النساء ولا الخمر وليس فيه إغراء بفاحشة ولا تزيين
لباطل ، وكانوا يطلقون على هذا النوع اسم الغناء^(١)

وقد رَتَّخَ العلماء أيضًا في الغناء والدُّفُّ في الأعراس :
إذ روى البخاري وأحمد عن عائشة - رضي الله عنها - : « أَنَّهَا زَفَّتْ امْرَأَةً
مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا عَائِشَةً ، مَا كَانَ مَعَكُمْ مِنْ هُوَ إِنَّ الْأَنْصَارَ
يَعْجِبُهُمُ اللَّهُو » .

وروى الحمسة إلا أبا داود قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فَصُنْلُّ مَا بَيْنَ الْحَلَالِ
وَالْحَرَامِ الدُّفُّ وَالصَّرُثُ فِي النِّكَاحِ » هذه الرخصة تباح ضمن شروط
وهي :

- ١ - أن تكون في عُرس نكاح شرعي .
- ٢ - أن يكون الدف عبارة عن إطار غربال قد جعل عليه جلد فقط ، يخلو
من الوتر والجلاجل والأجراس الصغيرة .
- ٣ - أن يكون الغناء بألفاظ خالية من الفحش والبذاء والزور والباطل .
- ٤ - ألا يكون مع النساء المصنوتات في العرس رجال أجانب لأن الاختلاط
بالنساء الأجنبية حرام وسماع صوت الأجنبية حرام كذلك^(٢) .

وَرَحَّصَ الْعُلَمَاءُ كَذَلِكَ فِي الْغَنَاءِ وَاللَّهُو فِي الْعِيدِ :
إذ أخرج البخاري رحمه الله ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : « دَخَلَ عَلَيَّ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ تَغْنِيَانِ بَغْنَاءُ بُعَاثٍ فَاضْطَبَعَ عَلَى الْفَرَاشِ
وَحَوَّلَ وِجْهَهُ ، وَدَخَلَ أَبُو بَكْرَ فَانْتَهَى : مَزْمَارُ الشَّيْطَانِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ

(١) انظر : رسائل الشيخ محمد الحامد : ص ١٢٣ - ١٢٥ طبع دولة قطر ١٤٠٣ هـ
وكتاب : كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع لأحمد بن محمد الهيثمي تحقيق محمد
عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٦ هـ .

(٢) الإعلام بأن العزف والغناء حرام : تأليف أبى بكر الجزائري « رسالة » ، ص ٣٥ - ٣٧
- مكتبة الضياء فى جدة .

عليه السلام فأقبل عليه رسول الله فقال : دعهما . فلما غفل عنزئهما فخر جتا ، وكان يوم عيد يلعب السودان بالدُّرْق والحراب ، فإماما سأله النبي عليه السلام ، وإماما قال : أتشترين تنظرين ؟ قلت نعم ، فأقامني وراءه ، خذ على خذه وهو يقول : دونكم يابنى أرفدة ، حتى إذا ملئت قال : حسبك ، قلت : نعم ، قال فاذهبي ^(١) .

وليس في هذا الحديث دلالة على سماع الغناء الحرام .. فقد ذكر صاحب كتاب : تزييه الشريعة ، داحضًا هذه الشبهة وقال : أما بالنسبة لغناء الجاريتين :

١ - إن الشعر المتغنى به ليس من الممنوع بل هو مما تقاول به الأنصار يوم بُعاث .

٢ - إنه صادر من جوار صغار ومثل ذلك يتسامح به .

٣ - إنه في يوم عيد ، والأعياد يشرع فيها مالا يشرع في غيرها من الغناء الذي لا يشمل على منوع ، ومن ذلك قوله عليه السلام لأبي بكر : إن لكل قوم عيده وهذا عيادنا .

ولا يجوز التوسع في العيد والأعراس ، فيؤتي بالمعنى زر الفرق الموسيقية ، ولا يجوز بغير الدف ، ويجب أن يقتصر على محل الرخصة ولا يتعداها إلى غيرها سواء في السبب أو الآلة أو في النوع .

٤ - إن عائشة كانت صغيرة ولم ينقل عنها بعد بلوغها إلا ذم الغناء وأنها - رضى الله عنها - نفت بقولها : « ولست بمغنتين » فنفت عنهما من طريق المعنى ما أثبتته اللفظ .

(١) صحيح البخاري : كتاب العيد ، باب الحراب والدُّرْق يوم العيد ٢ / ٢ وأخرجه مسلم في كتاب العيد : ٦/٨٢-٨٧ .

أما حديث اللعب بالحراب والدراق فقال :

- ١ - إن اللعب بالحراب والدراق من عدة الحرب المباحة .
- ٢ - إنه ليس من اللهو الممنوع ولذلك أبىح في المسجد باقرار الرسول .
- ٣ - إنه في يوم عبد والأعياد يشرع فيها الانبساط أكثر من غيرها ، وأن الكلام المتعنى به من أشعار الحروب وهذا متداول في زمان الرسول عليه السلام ^(١) .

٢ - القسم الثاني : غناء المغنين المخترفين

وهو ما يتحلله المغنوون العارفون بصنعة الغناء ، وهذا النوع هو المختلف فيه على آراء :

أ - أحدها : أنه حرام . قاله القرطبي وهو مذهب مالك الذي قال عنه : إنما يفعله عندنا الفساق .
وهو مذهب أبي حنيفة وسائر أهل الكوفة .. وهو أحد قولي الشافعى وأحمد .

ب - ثانية : أنه مكرر و هو الأظهر عند الشافعى وأحمد وأكثر أصحابهما ، وقول أهل البصرة .

ج - ثالثها : الإباحة ، وهو المروى عن إبراهيم بن سعد والعنبرى وهما شاذان في آرائهما .

د - رابعها : يحرم كثيره دون قليله .. ويحرم إن كان من امرأة لرجل أو لرجل ، أو من رجل لأمرأة أو لنساء أو إن افترن به مسكر أو انقطع إليه ^(٢)

(١) تزية الشريعة : احمد بن محمد بن النجمي ص ٧٢ وما بعدها

(٢) كف الرُّغَاعُ عن غُرمات اللهو والسماع : احمد بن حجر الهنفى (ص ٥٩-٦٣)

٣ - القسم الثالث : الغناء المقترب برقض أو دف أو مزمار ووتر
والمقصود هنا أن الغناء إذا أُبيح أو كُرِه إِنْ انضم إِلَيْهِ حَرَمْ صار حَرَمْ
بانضمام الحرم إليه ، وإذا حرم يشتد إِثْمُه بانضمام الحرم إليه ، وأن الرقص إن
كان فيه تكسر كفعل المخت صار حراماً ، وإن خلا من ذلك كان
مكروهاً .

وإذا انضم الغناء المباح إلى آلات اللهو والعزف الوتيرية يصبح
حراماً^(١) .

الأناشيد الدينية والمُؤَشَّحات :

قال الأذرعى في توسطه: وبعض المغرمين بالرقص من المتصوفة ومن
هذا حذوهم من المتفقهة توهموا أن حديث زَفَنْ (رقص) الحبشه بالمسجد
دليل على جواز الرقص في المساجد مع ضميمة الغناء إليه وذلك خطأ صريح
وجهل قبيح .

وقد تحدثنا عن ذلك في الصفحات السابقة ، حيث لم يكن ذلك من
الحبشه رقصاً على غناء ولا ضرباً بالأقدام بل كان لعباً بالسلاخ .. تدريراً
على استعماله في الحرب .

وقال القرطبي نقلأً عن الإمام الطرسوسي : وأما الرقص والتواجد ،
فأول من أحدهه أصحاب السامری لما اتخد لهم عجلأً جسدًا له خوار فأتوا
يتراقصون حوله ويتواجدون وإنما كان مجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأنما
على رؤوسهم الطير من الوقار ، فينبغي على السلطان ونوابه أن يمنعهم من

(١) كف الرعاع : (ص ٧١-٧٢) .

ذلك . وهذا مذهب الإمام الشافعى ومالك وأئمـة حنفـة وأحمد وغيرـهم من أئمـة المسلمين .

وقال ابن تيمية رحمـه الله في الفتـوى :

أما السـماع ، سـماع الأنـاشيد الـدينـية « فـمن فعل ما ليس بـواجب ولا مستـحب على أنه من جـنس الـواجب أو المـستـحب فهو ضـال مـبـتدـع .. ولا سيـما كـثير من هـؤـلـاء الـذـين يـتـخـذـون هـذا السـماع المـعـدـث طـرـيقـاً يـقـدـمـونـه عـلـى سـماع القرآن وـجـداً وـذـوقـاً ، وبـما قـدـمـوه عـلـيـه من اـعـتقـاد ، فـتجـدـهـم يـسـمـعـون القرآن بـقـلـوبـ لـاهـيـة وـأـلـسـنـ لـاغـيـة ، وـحـركـاتـ مضـطـرـبةـ إـذـا سـمـعـوا (ـالـمـكـاءـ وـالتـصـدـيـةـ) أـصـفـتـ القـلـوبـ وـاتـصـلـ الحـبـوبـ بـالـحـبـ ، وـخـشـعـتـ الأـصـوـاتـ وـسـكـنـتـ الـحـرـكـاتـ فـلا سـعـلـةـ وـلا عـطـاسـ وـلا لـغـطـ وـلا صـبـاحـ ، وـإـنـ قـرـأـوا شـيـئـاً مـنـ القرآنـ أـوـ سـمـعـوهـ كـانـ عـلـىـ وـجـهـ التـكـلـفـ وـ .. حـتـىـ إـذـا سـمـعـوا مـزـمارـ الشـيـطـانـ أـحـبـواـ ذـلـكـ وـأـقـبـلـواـ عـلـيـهـ .. »^(١)

وقـالـ أـيـضـاً : « ... وـاستـمـاعـ الغـنـاءـ وـالـمـعـازـفـ وـنـحـوـ ذـلـكـ مـا لـلـنـاسـ فـيهـ قولـانـ : التـحـريمـ وـالـإـبـاحـةـ لـمـ يـقـلـ أـحـدـ إـنـهـ قـرـبـةـ .. »^(٢)

وقـالـ الـحـافـظـ ابنـ رـجـبـ فـيـ كـتـابـهـ الـقـيمـ : « نـزـهـةـ الـأـسـمـاعـ فـيـ مـسـأـلةـ الـسـمـاعـ » قـالـ : « وـلـاـ رـيـبـ أـنـ التـقـرـبـ إـلـىـ اللهـ بـسـمـاعـ الغـنـاءـ الـمـلـحنـ لـاـ سـيـماـ معـ آـلـاتـ الـلـهـوـ مـاـ يـعـلـمـ بـالـضـرـورـةـ مـنـ دـيـنـ إـلـاسـلـامـ ، بلـ وـمـنـ سـائـرـ شـرـائـعـ الـمـرـسـلـيـنـ أـنـهـ لـيـسـ مـاـ يـتـقـرـبـ بـهـ إـلـىـ اللهـ ، وـلـاـ مـاـ تـرـكـىـ بـهـ النـفـوسـ وـتـنـظـهـرـ بـهـ ، فـإـنـ اللهـ شـرـعـ عـلـىـ أـلـسـنـ الرـسـلـ كـلـ مـاـ تـرـكـوـ بـهـ النـفـوسـ وـتـنـظـهـرـ مـنـ أـدـنـاسـهـ ، وـلـمـ يـشـرـعـ عـلـىـ لـسـانـ أـحـدـ مـنـ الرـسـلـ فـيـ مـلـةـ مـنـ الـمـلـلـ أـشـيـاءـ مـنـ ذـلـكـ .

(١) فـتاـوىـ ابنـ تـيمـيـةـ : ٦٣٤/١١ .

(٢) الفتـوىـ ابنـ تـيمـيـةـ : ٢٢٩/٢٧ .

وقد صع عن الإمام الشافعى رحمه الله أنه قال : تركت بالعراق شيئاً
يسموه التغیر وضعته الزنادقة يصدون به الناس عن القرآن .

والتبغیر هو ما يسمى بالغناء الدينى في هذا الزمان فاينهم كانوا
يجتمعون في أغاني دينية - كذا تسمى - ويضربون معها شيئاً من
الدفوف .

هذه أهم أقسام الغناء ، فصلنا فيها القول لانتشارها وعموم البلوى
فيها ، وسرى أن الناس في هذا العصر تجاوزوا كل هذه الأقسام وبالغوا في
المحرم منها ، وزادوا على ما كان من أمر الجاهلية الأولى .

وأختم هذه الفقرة بفتوى فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله في
حكم الغناء ردًا على سؤال وجه إليه :

يقول السائل : ما حكم الأغاني هل هي حرام أم لا ؟ رغم أنها
أشعها بقصد التسلية فقط ، وما حكم العزف على الربابة والأغافى القديم ؟

فأجاب الشيخ حفظه الله :

« الاستماع إلى الأغاني حرام ومنكر ، ومن أسباب مرض القلوب وقوتها ،
وتصدها عن ذكر الله وعن الصلاة .»

وقد فسر أكثر أهل العلم قوله تعالى : « ومن الناس من يشتري هرث
الحديث بالغناء .. وكان عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يقسم على
أنه هو الحديث هو الغناء ، وإذا كان مع الغناء آلة كالربابة والعود والكمان
والطبل صار التحريم أشد .»

وذكر بعض العلماء أن الغناء بالآلة هو حرام إجماعاً . فالواجب الحذر
من ذلك ، وقد صع عن رسول الله ﷺ قال : « ليكونن من أمتى أقوام

يستحلون الحرّ والحرير والخمر والمعازف ، والمعازف هي آلات الظرب ..
انه .

هذه فتوى فضيلته حفظه الله ، تؤيد ما قدمتُ القول فيه من أقوال
العلماء بشأن الغناء والموسيقى .

ولأن تحريم الإسلام لما كان شائعاً في الجاهلية الأولى ، لدليل واضح
على مدى اهتمامه بتطهير الأسر والمجتمعات من أدران الجاهلية وأرجاسها ..

ولقد عاد كثير من الناس إلى الانزلاق في حماة اللهو الحرم ، كما
انزلقوا في شرب الخمور ، والاختلاط الشائن كأشد مما كان عليه أهل
الجاهلية . مستفيدين من وسائل الحضارة الحديثة .

الفناء والمعازف في العصر الحاضر

قد يُدخل المسلم هجمة الفناء والمعنىين ، بالآلات الموسيقى واللهم المحرم ، في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة في عالمنا المعاصر .

لقد هاجمت الأغنية الخليعة المتكسرة ، والرقصات الساقطة في البيوت والأسواق والمتزهات وكل مكان ، عن طريق وسائل الإعلام ، وأشرطة الفيديو .

لقد أشاع الغرب هذا الداء في البيوت والمقاهي والحانات ، وتأثرت التبعية في بلادنا إلا تقليد هؤلاء فيما يفعلون .

إن الأسر الإسلامية التي كانت إذا جُهر بين أفرادها بلفظة سوء ئمُرُّث وجوه الجالسين منهم حياءً وخجلاً .. أصبحت هذه الأسر تجتمع حول المذيع والتلفاز بذكورها وإناثها وهم يصفقون .. وصارت هذه العائلات الشريفة يتهدى أفرادها الأغاني الخليعة والأصوات الماجنة الفاتنة .

والفناء المعروف اليوم ، وما ترسله أجهزة البث قد اجتمع فيه كل محدود .. ذلك لأنه هو وبالفاظ خليعة وبأصوات النساء العاهرات والرجال الخثرين ، وفوق هذا فهو كلام باطل ليس فيه من الحق شيء^(١) .
وببلاد المسلمين تنتظر استقبال فاذورات أوربا عن طريق البث المباشر من الأقمار الصناعية لا مرحبًا بها .

(١) انظر رسالة : أبو بكر الجزائري (ص ٦-٢٠) .

وإن مخططات حكماء صهيون قد أثمرت في إشاعة الرذيلة والعبث في أخلاق الناس وسمى الساقطون والساقطات « نجوم الفن والسينما » مما يشجع الناشئة على اتخاذ القدوة من هؤلاء الناس .

وقد بلغ المخطط الصهيوبي مدى بعيداً حينما أسس هذه الأفكار وجعل لها شهادات علمية ليضمن اليهود استمرار الدعوة لها والنكس من خلاها .

يقول الجندي : « إن أكبر عملية تمويه قامت بها الحضارة الغربية هي محاولة تصوير الإضحاك والرقص وفنون العرى والكشف والإباحية المتمثلة في المسرح والسينما على أنها فن رفيع أو فن مقدس » .

« والقول بأن الفن له أصوله العلمية وضوابطه الدقيقة التي يتخرج فيها المخرجون والممثلون من جامعات متخصصة ، والتي يتقدم فيها البعض بأطروحات دكتوراه ، فهناك مع الأسف الشديد في بلادنا الآن دكتوراه في الرقص الإيقاعي ، ودكتوراه في المسرح الإباحي .. ودكتوراه في الديكور الفاضح والإخراج المكشوف .. كأنما هذا الفساد والتهاري يرتفع ويرتفع حتى يصبح فتاً عالياً وعلمياً دقيقاً على أيدي دعاته من الماسونيين والصهيونيين والإباحيين ، فيما وراء البحر الذين يتلقفون أبناءنا ويصهرونهم في هذه البوتقة »^(١) .

وقد ركزت الصحافة عموماً وعنيدت بالاتجاه اللا أخلاقي في كثير من بلدان العالم الإسلامي ، وأصبح منها التركيز على المثلات والرافضات والمخفيات .

إن هذه التربية المترهلة ، أفرزت للمسلمين في هذا القرن أجيالاً لاهية عابثة ، تحمل العدو يطعم في إذلالها واحتلال أراضيها ، كيف لا !؟ وهذا

(١) إعادة النظر في كتابات العصر في ضوء الإسلام ، أنور الجندي ، ص ٦٣-٦٤ ، طبعة الاعتصام - القاهرة ١٩٨٥ م .

الشباب العايش لا هم له إلا لين العيش وسماع المحرم ، وأنى له الجهاد بآفاقه السامية وتضحياته الجسيمة ؟ !

ولأن منطق التاريخ ليقول : إن هذا مؤذن باندثار الأمم وخراب الديار .

يقول ابن خلدون في مقدمته متحدثاً عن الغناء وآفاته : « وهذه الصناعة (صناعة الغناء) هي آخر ما يحصل في العمran من الصناعات ، لأنها كمالية في غير وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ والفرح ، وهي أيضاً أول ما ينقطع من العمran عند اختلاله وتراجعه »^(١) .

وهذا ما حل بالأندلس حيث أصبحت الدور والبساتين توقف على الموسيقى ، وأصبح المرضى يعالجون في المستشفيات بالزمر والغناء ، فحل بهم البلاء الذي استأصل شأفتهم^(٢) .

« وكانت المغنيات والموسيقيات في الأندلس يتعلمون صنوفاً من الأدب فياخذن بجماع القلوب ، فيتغالى الأمراء والملطرون بأثمان الجواري من هؤلاء .

فقد اشتري أحد أمراء الأندلس جارية بدبيعة بثلاثة آلاف دينار ، وروى أن بعض الخلفاء العباسين ابناع بعض الجواري من هذا الطراز البديع بمائة ألف دينار »^(٣) .

بمثل هذا ضاعت الأندلس ، وضاعت حضارة المسلمين في بغداد ، وهذه سنة الله في خلقه كلما ركنت الأمة إلى حياة الترف واللهو ، وتخلت عن تعاليم دينها .

(١) مقدمة ابن خلدون : ٧٦٦/٢ ، طبعة دار الكتاب اللبناني

(٢) رسالة الجزائري : إلإعلام بأن العزف والغناء حرام ص ٢٤ .

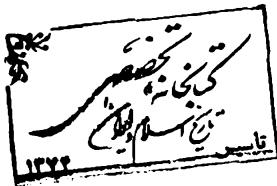
(٣) الإسلام والحضارة العربية ، الجزء الأول ، محمد كرد على .

والآن : إننا لنرى أن العصر الجاهلي أهون شرًا من الجahلية المعاصرة ، حيث أن الفنان كان يمارس عن طريق القيان والرقين ، أما اليوم فقد تبارى الأحرار من الرجال والنساء في التسابق لاعتلاء صهوة هذا الفن الفاجر ، ومن بعض الأسر العريقة بكل أسف .

لقد تمادت الجahلية المعاصرة في غيها وفجورها ، وسبقت الجahلية الأولى ولله المنشكى .

إلا أن الأمل كبير في صحوة المسلمين ، ووعي كثير من شبابهم وشيوخهم ونسائهم في أكثر أنحاء العالم الإسلامي .

وعلى هؤلاء يقع العبء الأكبر في إيصال تعاليم الإسلام صافية كما بدأت ، من أجل التغيير المتضرر والمستقبل المشرق بإذن الله تعالى ، ولو كثرت التضحيات .



٤ - المَيْسِرُ

كان الميسير «القمار» من العادات المفضلة في الجاهلية وكانوا يفتخرون بها ، لأنها من وسائل الكرم لديهم .

واليسير : مصدر ميمى مشتق من **اليسير** لأنه أخذ مال الرجل بسهولة ويسير ، من غير كد ولا تعب ، أو اشتقت من **اليسار** لأنه سلب يساره .
وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - ، أنه قال في الميسير : كان الرجل في الجاهلية يخاطر فيه على أهله وماليه .

كان الميسير من مفاخر أهل الجاهلية لأنهم كانوا يفعلونه في أيام الشدة وقلة اللbin ، في أيام الشتاء حيث يطعمون المحتاجين ما ربحوه من الميسير ، ويعدونه ضرباً من الكرم .

و كانت طريقة الميسير : أن يجتمع الموسرون ويشرروا جزوراً ، يقسمه الجزار عشرة أجزاء ، ثم يُ جاء بالقداح فیأخذ كل من **الأيسار** «المتقامرين» حسب مقدرته ، ثم يسلمونها إلى أمين يدفعها في الرمل ، أو يضعها في خريطة ، ويدخل يده ويخرجها قدحًا بعد الآخر وهكذا .

و عدد القداح عشرة - ويقال لها الأزلام والأقلام - وهي الفذ والتؤام والرقيب والحلس ، والنافس والمسلل ، والمعلى والمنبع والسفيع والوغد .

وفي العادة كان يجتمع عشرة من اللاعبين ويحضرون جزوراً يضمنون لصاحبي الثمن ، ويدفع بعد الميسرة الغارمون وحدهم .. وكل

رابع يأخذ ما خرج له ، والثلاثة الذين تخرج لهم القداح التي لا نصيب لها ، هم الذين يغرون ثمن المزور ، فيقسم عليهم ثلاثة ، وكانوا أحياناً يجعلون لسبعة منها أيضاً إن فازت ، وعلى أصحابها غرم إن خابت .

وأكثرها نصيباً يسمى « المعلى » أما القداح الباقية فلاحظ لها حتى ولو فازت^(١) .

وكانوا يوسرون ليلاً ، حيث يوقدون النار ، وقد عفروا الناقة ، وعلى مقربة منهم فقراء العشيرة يتظرون ما يرمي به الأيسار من أنصبتهم التي حرّمواها على أنفسهم كرماً وأنفة ، والتصدق باللحم هو النفع الذي أشار إليه القرآن الكريم :

﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيما إثم كبير ومنافع للناس وإنهما أكبر من نفعهما ﴾ .

ثم حرّم القرآن بعد ذلك تحريراً قاطعاً لما ينشب عنه من عداء وبغضه بين المتسارعين ، ولأنه استيلاء على مال الناس بغير حق ولا طريق مشروع .

وحتى الكرم الذي في الميسر ليس خالصاً ، كان يكرم الشخص ويذلل من ماله الصرف عن قصد ورغبة^(٢) .

وكثر الفخر في الشعر الجاهلي بقدرة العرب على الميسر ، ففي معلقة لبيد يدعوه ندماه إلى تخر المزور ، حيث يلعبون بأزلام متشابهة ينحرون الناقة عاقراً - لأنها أسمى - أو مطفلاً - لأنها أغلى - وهو يكسب فيطعم

(١) انظر : بلوغ الأربع للآلسو ، (٦٣-٥٣/٣) .

(٢) انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي : الحرف (٤٥٥-٤٥٩) .

الجمع لحمة ، حتى أن الحيران والضيوف يشعون وينعمون كأنهم في
وادي تبالة الخصيب وما قاله :^(١)

وجزور أيسار دعوت لحتها بغالق يتشبه أعلامها
أدعوا بها لعاقر أو م طفل بذلت لجiran الجميع حامها
فالضييف والجار الجنيب كأنما هبطا تبالة مخصوصاً أحضانها^(٢)

ومن تمدح كثيراً بالقمار الأعشى ، فها هو يفتخر بعشيرته شباباً
وكهولاً وما قاله :^(٣)

من شباب تراهم غير ميل وكهولاً مراجحاً أحلاماً
ففقد تصلق القداح على النب ب إذا كان يترهن غراماً
لأنهم يضربون قداح الميسر على التوق الضخمة ، التي يتائبى غيرهم أن
يضر بها عليها اعتزاراً بها ، وضناً بقيمتها .

ويفتخر طرفة بن العبد بالميسرة لأنها دليل الثروة والقدرة ، فقومه
 أصحاب قداح الميسر منذ القدم ، منذ عهد لقمان بن عاد صاحب النسور
السبعة ، وهم يقامرون وإن صعب الشفاء على الفادرين للمشاركة في
القداح ، ثم إن قومه لا يلحون في طلب الدين الذي لهم على رفيق الميسرة ،
ويُدخلون معهم في اللعب ذوى العسرة . يقول في ديوانه :^(٤)

(١) شرح المعلقات العشر للطبرى : (٢٠١-٢٠٢) - مقال : قداح - الأعلام :
العلامات أى هي على قدر واحد متشابهة .

(٢) العاقر : أسمى ، والم طفل : أغلى - اللحام : جمع لحم ، وتبالة : موضع خصيب في
اليمن .

(٣) ديوان الأعشى : ص ٢٠٣-٢٠٤ ، طبعة دار بيروت « تصلق : تغرب - النب :
الإبل الكبيرة - البسر : القمار ، ميل : ج أميل وهو الجبان - مراجع : راجح العقول -
غراماً : مكروهاً » .

(٤) ديوان طرفة بن العبد : (ص ٧٣ شرح الشنقطى) .

وهم أيسار لقمان إذا أغلت الشتوة أبداء الجزر
لا يلحون على غارمهم وعلى الأيسار تيسير العسر
وكان من عادة بعض المقامرين أن يأخذ ما بقى من القداح إن لم
يحضر من يتم الأيسار ، ويقول للأيسار بعدها : تتمتكم ، ويفتخرون النابغة
الذبيان بأنه تتم الأيسار إذ يقول :^(١)

إني أتم أيساري وأمنهم مثنى الأيدي وأكسو الجفنة الأدما
ومن افخر بالميسر وتخسر على الأيام التي كان يقامر فيها : عوف بن
عطية الخزع في قصيده :^(٢)

فلقد زجرت القدح إذ هبت صباً خرقاء تُقذف بالخطارِ المُسْتَنِدِ
إذا قمرت اللحم لم أنظر به نبأً كا هو مأوه شرق الغدِ
وجرى بأعراض البيوت وأهلها ولل مقامة ذى الغنى والمُجتدى
وقد مدحوا من يلعب الميسر بأنه كريم مهين للمال ، وعادوا من لا
يسير وسموه البرم ، ومن ذلك رثاء تتم بن نويرة لأخيه مالك ، فقد ذكر
أنه كان لا يحتمي نصبيه أن يتقسمه الفقراء ، وليس من تعطى النساء زوجته
اللحم في الشتاء لأنه جواد كريم ، ينحر ويطعم ، ويتأمر مع أشراف قومه ،
وليس برمًا لا يساهم مع القوم في الميسر^(٣) .

(١) الشعاء الستة : ص ٢١٥ ، وبلغ الأرب : ٦٢/٣ . « والأدم » : ج إدام وهو ما
يؤتدم به . ويقصد الشاعر أنه يتم أيساره : أي الأنصباء التي كانت تبقى من الجزور في
الميسر ، فكان الرجل الجواد يشتريها ويعطيا .. ، ومثنى الأيدي : أي يعطيهم نصبيهم ويضيف
إليهم حظر ظهم .

(٢) الأصميات : ص ١٧٠ ، الصبا : ريح عب من الشرق - خرقاء : هوجاء -
خطار : خطائر الإبل » « قمرت : كسبت - لم أنظر به : لم أؤخره ، ويقصد أنه يطعم اللحم
غضاظ طيباً لا يؤخره إلى الغد - شرق الغد : شمس الغد » أعراض البيوت : نواحيها - المقامة :
الجماعية في المجلس - المجدى : طالب العطاء

(٣) انظر قصيده في المفضليات رقم (١٧) ص ٢٦٥-٢٦٧ .

يتبيّن لنا بعد هذا العرض من الشعر أنّ العرب قد أُولعوا بالمبسر
مباهاة ومفاخرة ثم عطفاً على المخواج .

وكان بعض الأمم القديمة أشد ولوغاً بالقمار من العرب ولم تقصد
منه إلى إطعام جائع أو محتاج ، فقد كان قدماء الجerman يتقامرون على كلّ ما
يملكون ، فإذا نفدو تقامروا على حرثهم ، فيصير المغلوب عبداً للغالب ،
وكان الرومان واليونان كلفين بالمقامرة ، ولكن العرب نفردوا بالغرض
النبيل من لعب الميسر^(١) . « كما يرى الكاتب »

وهكذا تبقى عادات الجاهلية متشابهة عند جميع الأمم قد يها
وحديثها ، ولو اختلفت المقاصد والغايات .. لأن المنطلق عندها واحد ،
وهو تحكيم الهوى والتقليد ، ومادامت هذه الجاهليات بعيدة عن وحى
السماء .

ثم جاء الإسلام فحرم الميسر بأنواعه ، وما جد منه كذلك لأنه
يورث العداوة والبغضاء ، والأحقاد والخصومات ، وإنَّ جميع أنواع المقامرة
والرهان إنْ كانت من الطرفين ينطبق عليها هذا الحكم الشرعي .

وسوف نفصل القول في موقف الإسلام من الميسر في الفقرة التالية
إن شاء الله ..

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي : د. أحمد الحوق ص ٤٥٩

تحريم الإسلام للميسر

الميسر كل لعب بين فريقين تتحقق الخسارة فيه لفريق ، والرابع الآخر على سبيل المصادفة والحظ .

وقد حرم الإسلام ، فهو من الكبائر ، إذ قرن الله تعالى بينه وبين الخمر قال تعالى :

﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيما إثم كبير ومنافع للناس ، وإنهمما أكبر من نفعهما ﴾ .

حرّم رغم أن للميسر فوائد في الجاهلية ، حيث أن أهل الثروة والأجود من العرب كانوا في شدة البرد وكلب الزمان يتقامرون ، و يجعلون أجزاء الجذور لذوى الحاجة وأهل المسكنة .. وأما مفاسده فكثيرة ، وقد حرّم قطعياً في الآية التالية : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ مَأْمُونُوا إِنَّمَا الْخَنْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَنِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعْلَكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (سورة المائدة : ٩٠) .

وسب التحرّم ، وتعظيم خطر الميسر ، أنه من أكل أموال الناس بالباطل ، وقد نهى الله تعالى عنه ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ .

وروى البخاري أنه ﷺ قال : « مَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ : تَعَالَ أَقْمِرْكَ فَلَيَتَصَدَّقْ »

فإذا كان مطلقاً القول يوجب الكفارة والصدقة فما بالك بالفعل
وال مباشرة ؟^(١)

والحكمة من تحريم القمار : أنها تجعل الإنسان يعتمد في كسبه على المصادفة والحظ والأمنى الفارغة ، لا على العمل والجد .. واحترام الأسباب المشروعة .

ومن مفاسده : أنه أداة هدم البيوت العامرة وافتقار العوائل الغنية ، وإذلال النفوس العزيزة .. فكم سمعنا عن نفوس ذلت بعد عز ، وعن عوائل افتقرت بعد غنى ؟! بسبب القمار وشرورها .

واللعبة بالقمار يورث العداوة والبغضاء بين المتابعين لأكل الأموال بينهم بالباطل ، وحصو لهم على المال بغير حق .

وهو يصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويدفع بالمتابعين إلى أسوأ الأخلاق وأقبح العادات .

والقمار هواية آثمة تلتهم الوقت والجهد وتعلم الخمول والكسل ، ويعطل الأمة عن العمل والإنتاج .

والقمار يدفع صاحبه إلى الإجرام لأن الفريق المفلس يريد أن يحصل على المال من أي طريق كان ، ولو عن طريق السرقة والاغتصاب ، أو الرشوة والاختلاس .

وهو يورث القلق ويسبب المرض ويحطم الأعصاب ، ويولد الحقد ، ويؤدي في غالب الأحيان إلى الإجرام أو الانتحار أو الجنون والمرض العضال .

(١) انظر : الرواحر عن اعراف الكبار : أحمد بن محمد المبتمي (الكبيرة ٤٤٣) ، الجزء ١٩٨/٢ .

ولا يستبعد أن يبيع المقامر على موائد القمار ، دينه وعرضه ووطنه ،
لأجل إشباع نهمة المال والجنس^(١) .

أنواع من القمار قدّيماً وحديثاً :

وقد جدت في عصرنا الحاضر أنواع من القمار إضافة إلى أنواع
تحدث عنها الفقهاء نوجزها جميعاً بما يأتي :

أ - شراء أوراق اليانصيب :

لأن اليانصيب يعتمد على المصادفة والحظ ، وهو لون من ألوان
القمار المحرم ، ولا ينبغي التساهل فيه ، ولو كان باسم الجمعيات الخيرية
والأغراض الإنسانية ، علمًا بأن الميسر الذي كان متداولاً بين العرب في
الماهيلية كان يؤول في النهاية إلى طريق الخير وجهة الخير وإطعام الجائعين ..
 فهو يشبه إلى حد كبير مشروعات اليانصيب التي يرصد ريعها إلى جهات
خيرية ومبرات إنسانية في عصرنا الحاضر .

والإسلام يعتبر مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » من المبادئ الهدامة التي
يروجها اليهود للوصول إلى غاياتهم ، بينما نرى أن الإسلام يسلك الوسائل
الشريفة من أجل الغايات النبيلة ، فالتبريع مثلاً لأى عمل إنساني خيري
لا يعترف به الإسلام إلا إذا كانت الوسيلة التي تزدري إليه ظاهرة .. أما عن
طريق القمار المحرم أو الاقتطاع المفترض فلا .. وما قيمة إنفاق لا تنبع
منابعه من معين الإيمان الصاف وبواعث الرحمة ومعانى البر
والإحسان !؟^(٢) .

(١) نزهة الأولاد في الإسلام : الشيخ عبد الله علوان رحمه الله ٩٣٠/٢ ، طبعة
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، حلب .

(٢) المرجع السابق : عبد الله علوان ٩٣٢/٢

ومع الأسف فقد أصبحت أوراق اليانصيب الدولية تحت إشراف حكومات و هيئات معترف بها ، و صارت من البلوى الشائع ، التي يغفل عنها كثير من الناس .

ب - اللعب بالرهان :

وهو من الألعاب التي شاعت وانتشرت في أيامنا هذه .. سواء أكانت المراهنة على اللعب بالكرة أو بالحمام أو الخيل أو بالشطرنج أو بغيرها^(١) .

والدعوة إلى المباريات المتوعة ، في الفن والرياضة وما إليها أصبحت الشغل الذي يشغل الشباب ، بحيث يُقدم على مسائل الأمة الأساسية في عقيدتها وأمنها وكرامتها .

انظر إلى التشنج الذي يصيب أتباع النوادي الرياضية والمشاكل التي تترجم في أفراد الأسرة الواحدة بسبب هزيمة ناديهما وانظر التوتر العصبي الشديد خلال مباريات (كأس الدوري) للعلم أو ما يسبقه من مباريات . وإن لاستغرب كيف يلتهم الشباب صفحات الرياضة في الصحف العالمية والمحليّة ، ويکاد لا يغير اهتماماً لأية مشكلة أخرى مهما عظمت وجلت ، ولو كان فيها دمار الأمة . إن الرهان بين قبيلتي « عبس وذبيان » في الجاهلية ، والذى أدى إلى حرب « داحس والغبراء » لا يتعدّ عما نحن فيه .. ولعل هذا ما يشير إليه البروتوكول الثالث عشر لخططات حكماء صهيون يقول البروتوكول :

« ولكن بعد الأميين أن يكتشفوا خطأ عمل جديد .. سنهيم بأنواع شتى من الملاهي والألعاب ومزجيات الفراغ .

(١) انظر تفصيلاً لذلك في كتاب « كف الرعاع عن محركات المهو والسماع : افتى

وسرعان ما سبّدا الإعلان في الصحف داعين الناس إلى الدخول في مباريات شئىء في كل أنواع المشروعات : كالفن والرياضة وما إليها .

هذه المتع الجديدة ستلهي ذهن الشعب حتماً عن المسائل التي سنختلف فيها معه .. ^(١)

وصورة الرهان عادة : أن كلاً من الفريقين يشرط على الآخر جُفلاً « أي مكافأة » في حالة من الربح أو الخسارة ، وذلك يعتبر مقامرة لتحقيق الخسارة من فريق والربح الآخر وأكل المال بينهم بغير حق .

ويشتئى من هذا الرهان : اللعب لإعداد وسيلة الحرب والجهاد كالسباق على الخيول أو من أجل رمي الهدف لقوله عليه السلام فيما رواه أصحاب

السنن والإمام أحمد : « لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل » .

ولكن يشرط في هذا الرهان أن تكون المكافأة التي تبدل من غير المتسابقين أو من أحدهما فقط .

أما إذا بذل كل من المتسابقين مكافأة « جُفلاً » على أن من سبق منها أخذ جعلين معًا فهو قمار محظوظ .

وإذا كان بذل الجعل من هيئة أجنبية ، أي من غير اللاعبين كرئيسة الدولة أو الوزارة أو إدارة المدرسة ، فإن العطاء في هذه الحالة جائز شرعاً لانتفاء ظاهرة المقامرة ولتشجيع .. سواء أكان هذا التشجيع من أجل الاستعداد الحربي كالرمي أو التفوق الرياضي كالصارعة أو اللعب بالكرة ^(٢) بلا غلو ولا إسراف .

(١) برونو كولات حكماء صهيون : ترجمة محمد خليفة التونسي الطبعة الثانية

ص ١٩٧

(٢) نزية الأولاد في الإسلام : ٩٣٢/٢

ج - اللعب بالترد :^(١)

وقد اعتبره الإسلام كبيرة من الكبائر ، وذلك لما ورد من النبي عنه .

فقد أخرج أبو داود وغيره ، وصححه ابن حبان والحاكم عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « مَنْ لَعَبَ بِتَرْدٍ أَوْ تَرْدَشِيرٍ فَقَدْ عَصَى اللَّهُ وَرَسُولَهُ » .

وروى مسلم في صحيحه : « مَنْ لَعَبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَانَمَا غَمَسَ يَدَهُ فِي الْحَمْ جِنْزِيرِ وَدَمِهِ » .

وقال صاحب الزواجر : إن ظاهر هذه الأخبار يفيد وعداً شديداً ، ونقل عن عدد من العلماء : أنه يحرم اللعب به ، وهو المنصوص في الأم ويفسق به ، وترد به الشهادة .

وقال الماوردي في الحاوي : « الصحيح الذي ذهب إليه الأثرون تحريم اللعب بالنرد لأنه فسوق ترد به الشهادة »^(٢) .

د - اللعب بالشطرنج :

وقد ذهب الصحابة والتابعون والفتاء في قضية الشطرنج مذهبين :

الأول : الحرمة ومن يرى ذلك على بن أبي طالب وابن عمر وابن عباس - رضي الله عنهم - ، والأئمة : مالك وأبو حنيفة وأحمد رحمهم الله .

(١) انظر : الزواجر ، ١٩٨/٢ ، الكبيرة ٤٤٤ ، والترد أى اللعب بالطاولة حسب تعبيرنا المعاصر .

وما ورد في ذلك قوله ﷺ :

«إن الله تعالى في كل يوم ثلاثة وستين نظرة إلى خلقه ليس لصاحب الشاة فيها نصيب»^(١) وفسر صاحب الشاه بلاعب الشطرنج لأنّه يقول شاه .

وروى عن علي - رضي الله عنه - أنه قال : الشطرنج ميسر الأعاجم .

وقال أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - : لا يلعب بالشطرنج إلا خاطئ .

وفي فتاوى الإمام التوسي : الشطرنج حرام عند أكثر العلماء وكذا عندنا إن فوت به صلاة عن وقتها أو لعب به على عَوْض ، فإن انتفي ذلك كره عند الشافعى وحرام عند غيره .

الرأى الثاني : يرى العجل ومن هؤلاء : أبو هريرة - رضي الله عنه - ، وسعيد بن المسيب وسعيد بن جُبِير وابن سيرين والإمام الشافعى رحمهم الله .

ويعتمد هؤلاء على أن أصل الأشياء الإباحة ، وأن الشطرنج مختلف عن النرد لأن المعول في النرد على الحظ فأشبه الاستقسام بالأزلام ، بينما المعول في الشطرنج على الحذر والتفكير والتدبر فأشبه المسابقة بالسهام .. وفيه نوع من التدريب على تدبير الحرب خلافاً للنرد .

وقد اشترط هؤلاء شروطاً ثلاثة في الإباحة :

١ - ألا يؤخر اللاعب صلاة عن وقتها .

٢ - أن يحفظ اللاعب لسانه عن بدأء الكلام وفحش اللسان .

(١) أخرجه أبو بكر الأثرب بسنده عن وائلة بن الأسعف رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

٣ - ألا يشترط الرهان لكونه قماراً .

وإذا فرط بشرط من هذه الشروط اتجه القول إلى التحرير^(١) .

وال المسلم يتعد في سلوكه عن كل ما يريب حيـث أمامـه المـباحـ الطـيـبـ ، وـالمـؤـمـنـ الجـادـ لـديـهـ منـالـوقـتـ الكـثـيرـ حتـىـ يـضـيـعـهـ فـيـماـ لـأـطـائـةـ تـحـتـهـ .. بلـ نـحـنـ مـسـؤـلـوـنـ عـنـ اـسـتـهـارـ الـوقـتـ قـبـلـ فـوـاتـ الـعـمـرـ .

روى الحاكم بـسـنـدـ صـحـيـعـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ - رـضـيـ اللـهـ عـنـهـماـ - عـنـ النـبـيـ عـلـيـهـ السـلـطـةـ أـنـهـ قـالـ :

« اغتنم خمساً قبل خمس : حيائلك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك وغناك قبل فقرك » .

وقد أباح الإسلام المسابقة في الجري والمصارعة ، واللعب بالسهام والحراب وألعاب الفروسية ، وكل ذلك جائز ، حيث لا مال من الجانبين ولا قمار ، وقد سابق عائشة - رضي الله عنها - ، وصارع ركانة فصرعه^(٢) .

(١) انظر الرواجـرـ للـهـيـشـيـ : (٢٠٠/٢٠٢-٢٠٣) ، وـتـرـبـيـةـ الـأـلـادـ : عـبـدـ اللـهـ عـلـوـانـ : (٩٤٠/٢).

(٢) انظر كـفـ الرـعـاعـ عـنـ مـعـرـمـاتـ النـهـوـ وـالـسـمـاعـ : الـهـيـشـيـ تـحـقـيقـ مـحـمـدـ عـبـدـ الـقـادـرـ عـطاـ صـ١٨٢ـ . وـكـاـبـ الـحـلـالـ وـالـحـرـامـ : الشـيـخـ يـوسـفـ الـفـراـضـاوـيـ صـ٢١ـ .

٥ - أخلاق ذميمة أخرى يصورها الشعر الجاهلي

هناك أخلاق ذميمة كانت متفشية لدى أهل الجاهلية ، خلّصهم الإسلام منها ، ونقلهم إلى مجتمع الظهر والفضيلة نذكرها بإيجاز إكمالاً لصورة المجتمع الجاهلي قبل الإسلام .
ومن هذه الأخلاق والصفات :

انتشار اللصوصية وقطع الطريق :
ويمثل هذه الخلطة الشعراة الصعاليك في شعرهم ، حيث يصور مغامراتهم وفتكهم ونهاهم أو وضع تصوير^(١) .
ومنها الأنانية :

ويصورها قول شاعرهم^(٢) :
لا أشتهي رنق العباء ولا الذي يُخاض وتغشاه المطردة الحرب
ولا أشتهي إلا مشارب أحربث على الناس حتى ليس في مائتها عثب
وكان هذا يحصل في الصراع على المراعي والمياه ، حيث كان من ضرورات الحياة عندهم .

(١) أشرت إلى بعض أخبارهم في الفصل الأول ، طبقات المجتمع .

(٢) الوحنينيات . ص ٣٠٥ ، « والعتب : المرض والفساد انظر لسان العرب : مادة عتب » .

ومن مساوىء الأخلاق عندهم الغيبة والنميمة :

يقول النابغة الذبياني :^(١)

لَنْ كُنْتْ قَدْ بُلْعَثْ عَنِ وِسَايَةَ لِمُبَلْعَكَ الْوَاسِيْ أَغْشُ وَأَكْذُبُ
ويقول الأعشى :^(٢)

وَمِنْ يَطْعَ الْوَاسِيْنَ لَا يَتَرَكُوا لَهُ صَدِيقًا وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبَ الْمَقْرَبَا
فَهَذِهِ صَفَاتٌ كَانَتْ مُنْتَشِرَةً وَكَانَ يَشْتَكِي مِنْهَا آنِدَاكَ وَمِنْ هَنَا لَهُجَّ
الشِّعْرَاءِ بِالشَّكْوَى مِنْهَا .

وَمِنْ الصَّفَاتِ الْذَّمِيمَةِ كَذَلِكَ النِّفَاقُ :

حِيثُ ظَهَرَ أَصْحَابُهُ بِسَمَائِهِمُ الْمَعْرُوفَةُ ، يَدُونُ الْحَبَّةَ وَالْوَدَ ، وَيَخْفُونَ
الضَّعْفَةَ وَالْحَقْدَ ، يَقُولُ الْمَثْقَبُ الْعَبْدِيُّ^(٣) :

لَا تَرَانِ رَاتِعًا فِي مَجْلِسِ فِي لَحُومِ النَّاسِ كَالسَّبْعِ الضَّرِّمِ
إِنْ شَرِّ النَّاسِ مِنْ يَكْشِرُ لِهِ حِينَ يَلْقَانِي وَإِنْ غَبَّ شَتَّمِ

وَمِنْهَا الْعَقُوقُ وَقَطْيَعَةُ الرَّحْمِ :

حِيثُ كَانُوا يَشْنُونَ حَرَبَهُمْ عَلَى أَفَارِبِهِمْ لِأَتْهِمِ الْأَسْبَابَ ، حَتَّى أَنْ
بعضُهُمْ كَانَ يَهْجُو وَالدِّيَهُ وَأَفَارِبِهِ ، وَمَا اسْتَهِرَ بِذَلِكَ الْحَطَبِيَّةِ حِيثُ يَقُولُ فِي
أَمْهِ^(٤) :

تَسْحَى فَاجْلَسِي مَنَا بَعِيدًا أَرَاحَ اللَّهُ مِنْكَ الْعَالَمِينَ
أَغْرِبَالًا إِذَا اسْتَوْدَعْتَ سَرًا وَكَانُوكَ عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَ

(١) ديوان النابغة : ص ٧٧ ، تحقيق شكري فيصل ، دار الفكر بيروت ١٩٦٨ م .

(٢) ديوان الأعشى : ص ٩ ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٣ م

(٣) الديوان : ص ٢٢٩ - ٢٣٠ هـ الضرم: شدة الجوع والكشر : التبس .

(٤) ديوان الحطيبة (ص ٢٧٦-٢٧٧) ط الحلبي بمصر تحقيق نعمان طه ١٩٥٨ م .

وفي أبيه وعمه وخاله :

لحاك الله ثم لحاك حقاً أباً ولحاك من عم وخال
فنعم الشيخ أنت على المخارى وبشـرـ الشـيـخـ أـنـتـ لـدـىـ الـمـعـالـ
ومن مظاهر العقوق أيضًا ضرب الآباء أو حتى قتلهم ، ويصور لنا
هذا قصيدة مؤثرة لمالك بن فهم ، وقد رماه ولده بسمهم فمات منه :^(١)
أعلمـهـ الرـمـاـيـةـ كـلـ يـوـمـ فـلـمـ اـشـتـدـ سـاعـدـهـ رـمـانـيـ
وـكـمـ عـلـمـتـهـ نـظـمـ القـوـافـ فـلـمـ قـالـ قـافـيـةـ هـجـانـيـ

أما قصيدة أمية بن أبي الصَّلت في ابنه ، فإنها تصور لنا مدى عنابة
الأب وإشفاقه على ولده بينما يقابلـهـ بالـعـقـوـقـ عـنـدـمـاـ شـبـ وـكـبـرـ يـقـولـ مـنـهـ :^(٢)
غـذـوـتـكـ مـوـلـوـدـاـ وـعـلـتـكـ يـافـعـاـ ئـلـعـ بـاـ أـخـنـيـ عـلـيـكـ وـتـهـلـ
إـذـ لـيـلـةـ نـابـتـكـ بـالـشـكـوـيـ لـمـ أـبـتـ
فـلـمـ بـلـغـ السـنـ وـالـغـاـيـةـ التـيـ
جـعـلـتـ جـزـائـيـ مـنـكـ غـلـظـةـ وـفـظـاظـةـ
فـلـيـتـكـ إـذـ لـمـ ئـرـعـ حـقـ أـبـوقـ
أـيـنـ هـذـاـ مـنـ نـعـمـ الـإـسـلـامـ الـذـيـ يـجـعـلـ عـقـوـقـ الـوـالـدـيـنـ مـنـ أـكـبرـ
الـكـبـائـرـ ، وـقـوـلـهـ تـعـالـيـ : ﴿ وـاخـفـضـ لـهـمـ جـنـاحـ الذـلـ مـنـ الرـحـمـةـ ، وـقـلـ رـبـ
أـرـحـمـهـمـ كـاـ رـبـيـانـ صـغـيرـاـ ﴾ .

ومن الصفات القيحة والعادات المرذولة ، ما يسمى بالاعتفاد :
وهو أن يغلق الرجل على نفسه وأولاده بابه ز من الجدب ، حتى
يموتوا جوعاً^(٣)

(١) الاشتقاد لابن دريد : ص ٥٤٣ .

(٢) الديوان : ص ٣٧ ، طبعة ١٩١١ م .

(٣) بهذيب اللغة للأزهرى : (٢٢٥/٢) تحقيق : عبد السلام هارون ١٩٦٤ م .

ومن ذلك قول الشاعر :
وقائلةٌ ذا زمان اعتقاد ومن ذاك يقى على الاعتقاد
ومن العادات التي كانت سائدة آنذاك التمييز بين الناس بسبب اللون
والعنصر أو الأمهات^(١).

ومن العادات التي ينبو عنها الندوق : نكاح الحوامل ، ونكاح
الاستبضاع ، ونكاح المقت^(٢).

هذا هو الوجه الكالح للجاهلية ، الوجه الآخر الذي انتشر الإسلام
منه أهلها .. وحررهم من مفاسدها وشرورها بعد أن أبقى على بعض
الأخلاق الكريمة التي كانت سائدة لديهم .

وبذلك كانت تختلط مكارم الأخلاق ومفاسدها بلا ضابط ولا هدى
من كتاب منير .

وها هي السمات الأخلاقية المشابكة للجاهلية المعاصرة تختلط ، بل
وتسود الموبقات وتزداد ضراوتها يوماً بعد يوم .

وسيكون الحديث في الفصل القادم مخصصاً لتصوير السمات
الأخلاقية في المجتمعات الإسلامية والجاهلية .

(١) وقد تحدثت عن هذا الموضوع في الفصل الأول « طبقات المجتمع » .

(٢) سأق الحديث عن هذا الموضوع مفصلاً إن شاء الله في الكتاب الثالث من هذه
السلسلة : « المرأة بين الجاهلية والإسلام » .

الفصل الثالث
أَبْرَزُ السُّمَّاتُ الْأَخْلَاقِيَّةُ ..
فِي الْمُجَتمِعَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ وَالْجَاهِلِيَّةِ

المبحث الأول

السمات الأخلاقية للمجتمعات الإسلامية

- ١ - أثر العقيدة في توجيهه السلوك والأخلاق .
- ٢ - الارتباط الوثيق بين العبادة والأخلاق .
- ٣ - الأخلاق في المجتمع المسلم : أخلاق واقعية .
ومن أبرز معالمها :
 - أ - الإخلاص والتجرد لله تعالى .
 - ب - الحب والتآخي .
 - ج - التناصح « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .
 - د - لزوم النفس ومقاومة الأهواء .

تمهيد :

من خلال دراستنا لأخلاق العرب قبل الرسالة وبعدها تبين لدينا أن للجاهلية موالصفات واضحة وأخلاقياً بينة ، كانت خليطاً من مكارم الأخلاق ورذائلها .

فيينا يروق لك كرم العرب وشجاعتهم وغيرتهم ووفاؤهم يسوقك تعليقهم بشرب الخمور والمقامرة ، وانتشار المجون واللهو والزنا .

وأوضح لدينا أن الإسلام ارتفع بمحكم الأخلاق عند العرب وسما بها ووجهها نحو غاية بناءة ، يقصد منها وجه الله ، وليس السمعة وحسن الأحdonة بين الناس

ثم حارب بلا هواة كل المحراف خلقى ، وحرمه تحريمًا قاطعًا بعد أن ربطه بميزان دقيق ، ورقيب شديد ذلك هو الإيمان ، والخوف من الموقف في يوم الحساب .. ثم جعل العبادة تصفى ما ران على نفس المسلم من شوائب وأدران .. فأصبحت الأخلاق لدى المسلمين أخلاقياً تطبق في عالم الواقع ، وخلال مجتمعات الطهر والصدق والفضيلة والعفاف .

جاء الإسلام إلى العرب « ليستنقذ ما كان لديهم من فضائل ، ويوجهها الوجهة البناءة ، بعد أن كانت ضائعة تحت ركام من الرذائل والموبقات .

من تلك الجاهلية التقط الإسلام النخبة الصالحة وأنشأ بها المجتمع المسلم ، ذلك المجتمع الذي بلغ القمة التي لم تبلغها البشرية قط ، والتي ما تزال أملاً للبشرية يمكن أن تحاوله حين يصع منها العزم على انتهاج الطريق »^(١) .

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب ٥٥٨/١ بتصريف واختصار .

لقد انتقل العرب بالإسلام نقلة بعيدة ، فبعد أن كان التسابق في الجاهلية نحو السمعة وحسن الأحذوحة ، أصبح التسابق نحو القيم الإسلامية الجديدة .

روى أن الحارث بن هشام خرج من مكة ، فجزع أهلها ، وذلك أنه كان سريًا وذا مكانة فيهم ، ولم يبن فيها أحد يطعم إلا وخرج يشييعه ، حتى إذا كان بأعلى البطحاء وقف ووقف الناس حوله ي يكون ، فلما رأى جزع الناس قال :

« يا أيها الناس ، إني والله ما خرجت رغبة بمنفسي عن أنفسكم ، ولا اختيارات بلد علي بلدكم ، ولكن كان هذا الأمر فخررت فيه رجال من قريش ، والله ما كانوا من ذوى أسنانها ، ولا من بيوتها ، فأصبحنا والله لو أن جبال مكة ذهب ، فإنفقناها في سبيل الله ما أدركنا يوماً من أيامهم ، والله لعن فاتونا به في الدنيا لنلتتس أن نشاركهم به في الآخرة »^(١) .

ومن هنا كانت الأوس والخزرج تتصاولان ، كل منهما ت يريد أن يكون لها في الإسلام سابقة على الأخرى .

لقد تعرض القرآن بالتوجيه للفرد والجماعة ، والعلاقة بينهما ، وخطاب الجانبيين ودعاهما إلى الحركة والانتقال من وضع إلى وضع آخر يريده .. وكان القرآن خلال ذلك يستثير فيما وازع الإيمان .

لقد ركز هذا الدين العظيم على التربية الإيمانية وصفائها وإثارةها وجعل من المؤمن رقيباً إيمانياً يحاسبه ، وصفى نفسه بالعبادة ، فكانت التطبيقات العملية لهذه التربية سلوكاً نظيفاً ومعاملة شفافة وأخلاقاً تعلو به فوق المصالح والأهواء .

(١) الاستيعاب : ابن عبد البر (٣٠٣/١) تحقيق على محمد البجاوي . ط. القاهرة - مكتبة النهضة .

١ - أثر العقيدة في توجيه السلوك والأخلاق

إن الإيمان الصادق متى استقر في القلب ظهرت آثاره واضحة في السلوك ، جاء في مسند الإمام أحمد أنَّ رجلاً سأله الرسول ﷺ : أئِ الإيمان أفضَّل؟ قال : « خُلُقٌ جَسَنٌ »^(١) .

فإِلَّا إِسلام عقيدة متحركة لا تطبق السلبية ، إذ أنها بمجرد تتحققها في عالم الشعور ، تتحرك لتحقيق مدلولها في الخارج ، وترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع » « إن هذا الكتاب الكريم جاء لينشيء أمة وينظم مجتمعاً .. العقيدة وحدها هي الأصلة فيه والرابطة .

ومن ثم جاء بالمبادئ التي تكفل تماست الجماعة واطمئنان الأفراد والشعوب »^(٢) .

فالمسلم إذا تمكنَت عقيدة التوحيد من نفسه ، لابد أن يتبرأ من المشركين وما هم عليه من عقائد وسلوك ، فقد تخرج على التربية العقدية نموذج فريد من الرعيل الأول ، فكانوا قممَا شامخة ، ارتفعوا فوق جواذب الجاهلية .

كانت تربية إيمانية طبقت في عالم الواقع ، وتحقق على هديها ميلاد المجتمع الجديد^(٣) .

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٨٥/٤ .

(٢) في ظلال القرآن : (٤/٤، ٢٥٢٥)، (٤/٤، ٢١٩٠) .

(٣) انظر : (التربية العقدية) من كتاب : الحياة السياسية عند العرب وهو الكتاب الأول من هذه السلسلة .

هذا المجتمع الذى حقق بور الإسلام لجمع البشرية ، خلافاً لما كان عليه أهل الجاهلية حين كانوا يقصرون حاسن أخلاقهم على أقربائهم أو أصدقائهم .

يقول حاتم الطائى مصوراً هذه المعاملة^(١) :

ولا يُطعم ابن العم وسط بيوتنا ولا تنصبى عرسه حين يغفل فالدفاع عن ابن العم واجب عند القوم ، وحفظ عرضه إذا غاب من شأنهم فعله ، أما الآخرون ، فالمعاملة تختلف ، ويصور ذلك شاعرهم ، حجر بن خالد التغلبى إذ يقول^(٢) :

منعنا حمانا واستباحت رماحنا حتى كل قوم مستجير مراته
فالقيم الأخلاقية في نظر الإسلام ليست نسبة تتغير من فرد إلى فرد ، ومن مجتمع إلى مجتمع آخر ، ومن زمن إلى زمن بل هي قيم ثابتة تزداد ثباتاً كلما مرت الإنسانية بتجارب في حياتها .

وهي أخلاق متكاملة تحضن جميع الفضائل الإنسانية والأعمال الخيرة لصالح الفرد والمجتمع .. سواء في ميدان المعاملة الفردية أو في ميدان السياسة والحكم ، أو في ميدان الاقتصاد والعلم^(٣) .

وقد يتساءل البعض : ما علاقة العقيدة بالأخلاق ؟
الآن يمكن أن يكون للناس أخلاق طيبة بلا عقيدة ؟ الواقع أن هذا وهم خادع سببه أن النفس تحتجز رصيدها الخلقي بحكم العادة والتقليد أمداً طويلاً ، بعد أن تكون قد فقدت الإيمان كجزء

(١) ديوان حاتم الطائى : ص ٧٦

(٢) شرح ديوان الحمسة : المرزوقي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٧ م .

(٣) التربية الأخلاقية الإسلامية : د. مقداد بالحنى ص ٨٨-٩٠ .

من العقيدة .. وقد تختجزه فترة - على وعي - منفصلاً عن العقيدة ، على أنه شيء ينبع في ذاته أن يقوم .

ولكن النتيجة الختامية واحدة في النهاية .. إنه مادامت العقيدة قد انحرفت فلا بد أن تحرف الأخلاق ، وما دامت الأخلاق قد انفصلت عن العقيدة فلا بد أن تموت .

وإن هؤلاء المخدوعين حسبياً بتأثير الجاهلية أن التصورات قد تنحرف ثم يستقيم السلوك . وهذا وهم من أوهام الجاهلية لأن هؤلاء الناس قد ضلّلوا عن حقيقة الشر الذي يعيشون فيه .. وأن الحياة البشرية ذاتها مهددة بالدمار من ضخامة هذا الشر وعنوانه ، ومن ضخامة تمكّنه من الحياة الواقعية للناس^(١) .

والغاية الأساسية : من حسن الأخلاق عند المسلم ، الذي ينسجم مع عقيدته ، أن يحقق مرضاه ربه ، فيحقق السعادة في آخرته ، ذلك لأن هدف المؤمن الأول من أعماله هو ابتعاء وجه الله جل وعلا ، لأنه أمره بذلك ووعده بالجزاء الأول يوم القيمة على أعماله الخيرة : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الززلة : ٨-٧) .

كما أن المسلم يتحقق السعادة في الدنيا يقول تعالى :

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ مَأْمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَمَا الَّذِي أَرَضَنِي لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْرَفِهِمْ أَمْنًا﴾ (سورة النور : ٥٥) .

(١) جاهلية القرن العشرين : الأستاذ محمد قطب ، الصفحات : ٩٤-٩٥ ، ١٥٠.

والشمرة العملية للمبادئ الأخلاقية هي الإحساس الدائم بالسرور والطمأنينة القلبية ، والشعور بخريمة الذات وخيرية المصير .

وذلك نتيجة طبيعية ، لأن الإنسان عندما يعمل بمقتضى عقيدته ويؤدي الواجبات كما ينبغي أداؤها ، ويتجنب المحرمات .. يشعر بأنه إنسان خير قوى الإرادة .

ومن يقرأ للكتاب الوجوديين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، يعلمكم يعانون من الاضطراب النفسي والقلق في أعماق قلوبهم ، ولعل ذلك من طبيعة عدم الإيمان .

إذ أنَّ في طبيعة الحياة الإنسانية جانبًا لا يُملأ إلا بالإيمان .. وقد يدفع القلق مؤلاه الحيارى إلى محاولات الانتحار .. وكل ما ينقصهم في الحقيقة : الطمأنينة الداخلية التي لا توجد إلا بسبب الإيمان والعقيدة السليمة^(١) .

سوء الحluck دليل على ضعف الإيمان :

ربط الإسلام بين الإيمان والسلوك عموماً ، والسلوك الأخلاقي بوجه خاص ربطاً قوياً لا انفصاماً له ، ونلاحظ ذلك في نصوص كثيرة منبثقة في الكتاب والسنة .

ومن ذلك قول الرسول ﷺ :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »^(٢) .

(١) انظر : الاتجاه الأخلاقي في الإسلام : د. مقداد بالجن الطبعة الأولى ، ١٣٩٢ هـ . مكتبة الحاخامي بمصر . الصفحات ٢٢٨، ٢٧٩، ٤١٢١ .

(٢) متفق عليه - مشكاة المصابيح رقم الحديث ٤٢٤٤ .

وقوله عليه السلام :

«أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنَهُمْ أَخْلَاقًا»^(١).

إن قرن الإيمان بحسن الخلق والسلوك الرفيع أمر يلفت النظر ، إلا أن كثيراً من المسلمين يهملون هذا الجانب في أيامنا هذه مع الأسف الشديد .

بينما كان المسلمون الأوائل إذا سمعوا آية فيها نزول أمر واجب سارعوا إليه ، وإذا نزل تحريم أمر انتهوا عنه ، وذلك من صدق الإيمان وصلابة العقيدة .

وقد مرّ علينا في قضية تحرير الخمر ، كيف أسرع المؤمنون إلى إراقة ما عندهم منها في شوارع المدينة المنورة .

ولكن سؤالاً هاماً يطرح نفسه ، وهو إذا كان للعقيدة هذا الدور الفعال في السلوك فلماذا لا نرى ذلك الأثر في واقع المسلمين الآن؟!

إننا نجد البون شاسعاً بين ما يدعون من عقيدة وبين ما يسلكون ، وقلما نجد بينهم من يتأثر بعقيدته في سلوكه ومن ثم قل من يتمسك بالأخلاق الحسنة رغم أن الإسلام يعتبر العقيدة أساساً هاماً للسلوك الأخلاقى .

والواقع أن الدعوة شيء والإيمان الحقيقي شيء آخر ، إذ أن الإيمان حقيقة وكل حقيقة لها علامة ، وعلامة الإيمان العمل به ، وإذا دخل الإيمان القلوب واستقر فيها نبضت تلك القلوب بالحيوية ، ودفعت النفوس إلى العمل بموجها .. وهؤلاء من :

(١) صحيح ، عن المستدرك : للحاكم النيسابوري ٥٣/١ مكتبة مطبع النصر الخديثة في

الرياض .

﴿يَقُولُونَ كَيْفَ وَهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (آل عمران : ١٦٧) لأن معيار صدق الإيمان هو العمل الصالح « الإيمان ما وَقَرَ في القلب وَصَدَقَهُ العمل » وأن الاعتقاد الصحيح يدفع إلى السلوك الطيب^(١).

يقول الشيخ محمد الغزالى :^(٢)

« إن انهيار الأخلاق مردُه إلى ضعف الإيمان ، أو فقدانه ، فالرجل المُعَوِّجُ بالسلوك الذى يقترف الرذائل غير آبه لأحد » بعد عن مبادئ هذا الدين .

والرجل الذى يؤذى جيرانه يقول الرسول ﷺ فيه : « والله لا يؤمن والله لا يؤمن من يؤمن والله لا يؤمن . قيل : من يارسول الله ؟ قال : الذى لا يؤمن جاره بواقه » رواه البخارى .

ويقول ﷺ تقريراً لهذه المبادئ الواضحة في صلة الإيمان بالخلق القويم : « ثلاثَ مَنْ كُنَّ فِيهِ مُنَافِقٌ ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَحْجَ وَاعْتَمَرَ وَقَالَ : إِنِّي مُسْلِمٌ إِذَا حَدَثَ كَذْبٌ ، وَإِذَا وَعَدْ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْمِنَ خَانَ »^(٣) .

ولأن ما نراه اليوم من انهيار عام في الأخلاق ، وشكوى مريرة من سوء التعامل ، لأمر خطير يحيط العقول ، فالجار يشكو جاره ، والأمانة ضائعة بين الناس ، والراوغة لاقتناص الأموال هي السائدة ، والوفاء مفقود والصدق متذر .. وإن هذا الخطر لنذر بخلل في التصور وضعف في

(١) التربية الأخلاقية الإسلامية : (١٨٤، ١٨٥).

(٢) انظر خلق المسلم : محمد الغزالى ص ١٤-١٨ ، ط ١٤٠٠ هـ الأغادير الإسلامي العالمي للمنظمات الإسلامية .

(٣) رواه الإمام مسلم .

الإيمان ، أو سوء فهم عند البعض لمقتضيات هذا الإيمان ، فساد بسبب ذلك كله الانقسام النكد بين الإيمان ومقتضياته .

ومن هنا يستلزم على الدعاة والمربيين أن يتبعوا لهذا الخطر ، وأن يبينوا للناس حقيقة ما هُم فيه ، وأن الإيمان الحق كذلك لا يعني حفظ بعض متون في العقيدة أو تعلمها ، دون تمثيل أخلاقياتها في النفوس ، وخلال تربية الأجيال الناشئة .

لابد من تطبيق هذه المفاهيم في عالم السلوك والواقع ، تأسياً بأصحاب رسول الله ﷺ إذ مجرد أن لامس الإيمان قلوبهم تحولوا إلى خمادج فريدة في التاريخ سلوكاً وإخلاصاً وطهراً فهلاً أعددنا العدة مثل هذه التربية الإيمانية الأخلاقية؟!

٢ - الارتباط الوثيق بين العبادة والأخلاق

من أبرز السمات الأخلاقية للمجتمع المسلم ذلك الارتباط الوثيق بين العبادة والأخلاق ، إذ أن العبادة تزكي نفس صاحبها وتوجه سلوكه توجيهًا شفافًا متورعًا عن الحرمات ، وتهذب أخلاقه وتقومها باستمرار . فالصلوة مثلاً ، تهى عن الفحشاء والمنكر ، أو هكذا ينبغي أن تكون ، قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (العنكبوت : ٤٥) .

ويقول جل من قائل : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّيْنَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُوْنَ ۚ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُوْنَ ۚ وَيَمْنَعُوْنَ الْمَاعُوْنَ ۚ ۝﴾ (الماعون : ٤-٧) .

إن هؤلاء لو كانوا يقيّمون الصلاة حقاً لله تعالى ، ما منعوا العون عن عباده ، وهذا هو المحك الحقيقى للعبادة الصادقة المقبولة عند الله ، وهذا هو الرياء الذى يترك الأعمال خواص ويصيرها هباء^(١) .

والصيام جُنة يمتنع فيها المسلم عن الطعام والشراب إلى جانب تقوى المشاعر وانطلاق الروح .

(١) انظر رسالة في : الرياء ، ذمه وأثره المسيء : سليم اهلالي ص ٤٥ مكتبة ابن الجوزي

. - 12. A

قال عليه السلام : « الصوم جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يزف ولا يضجع ، فإن سأله أحد أو قاتله فليقل إني صائم إلى صائم » ^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » ^(٢).

فهذه النصوص توضح لنا مدى اهتمام الإسلام بتحذيب النفس المؤمنة وتخليلها من أدراجها ، خلال قيامها بالشعائر التعبدية ، ومن ثم توجيه السلوك ضمن هذه القيم .

والزكاة : ليست دفعاً للعمال فقط وإنما هي تطهير للعمال والنفس .

قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهيرهم ونذر لهم بها » (التوبه : ١٠٣)

ومن أجل ذلك وسع النبي عليه السلام دلالة كلمة « الصدقة » التي ينبغي أن يذلها المسلم فقال :

« تبسمك في وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وإماتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة .. » ^(٣).

وقل مثل هذا فيسائر الشعائر والعبادات ، إذ أن علاقة الأخلاق بالعبادة علاقة وطيدة ، فقد لا تنفع المرأة صلاة ولا زكاة أو صيام يوم القيمة ، إن كان من المفسدين المعتدلين على الناس .

سأل الرسول عليه السلام يوماً أصحابه فقال : « أتدرون المفلس ، قالوا : المفلسُ فيما مِنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعٌ . فقال : المفلسُ مِنْ أَمْتَى مِنْ

(١) أخرجه السنّة ، وهو في صحيح الجامع الصغير : م ٧٢٠ / ٢

(٢) رواه البخاري وأبو داود والترمذى / ينظر شرح السنّة ٢٧٣ / ٦

(٣) الحديث صحيح / ينظر صحيح الجامع الصغير ج ٥٦١ / ١

يأنى يوم القيمة بصلة وصلة وصلة ، ويأنى وقد شئت هذا وقدَّفَ هذا ، وأكل مال هذا وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيُعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإنْ فَيَتْ حسناًه قبل أن يُقضِيَ ما عليه ، أخذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه ، ثم طُرِحَ في النار »^(١).

ومن هنا جاء في الحديث الشريف : « المسلمُ مَنْ سَلَمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لسانه ويدِه ، والهاجر مَنْ هاجر ما حَرَمَ اللَّهُ » وفي رواية : « والهاجر مَنْ هاجر ما نهى الله عنه »^(٢).

فهذه العبادات تلتقي كلها عند الغاية التي رسماها رسول الله ﷺ في قوله : « إِنَّمَا يُعَثِّثُ لِأَنَّمَا مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ »^(٣).

إذا لم يستند المرء من عبادته ما يزكي قلبه وينقى لُبُّه ، ويذهب بالله وبالناس صلته فقد هو^(٤).

ويؤكِّد ما نقول حول الصلة الوثيقة بين العبادة والسلوك ما جاء في الحديث النبوى الشريف عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أنَّ رجلاً قال : يارسول الله : « إنَّ فلانةً تُكثُرُ من صلاتِها وصدقتها وصيامها ، غير أنها تؤذى جيرانها بـلسانها ، قال ﷺ : هي في النار . قالوا يارسول الله : إنَّ فلانةً تذكر من قِلة صيامها وصلاتها ، وأنها تتصدق بالأثوار من الأقطع ولا تؤذى جيرانها ، قال : هي في الجنة »^(٥).

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه ، وصحَّح مسلم : ١٠٠/٢

(٣) موطاً الإمام مالك : كتاب الجامع ومستند الإمام أحمد ٣٨١/٢

(٤) انظر : خلق المسلم للغزالى (ص ٩-١٢).

(٥) رواه أحمد والحاكم وقال : صحَّح إسناد الترغيب والترهيب ، كتاب البر والصلة

. ٤٣٥٢/٢

تؤكد هذه الأحاديث على عدم جدوى العبادة إذا فقدت روحها
وفاعليتها في تهذيب نفس صاحبها .

والأخلاق في الإسلام تكليف رباني قبل كل شيء ، قال تعالى :
﴿ قل إن صلاتي ونسكي وحياتي ومماليك الله رب العالمين لا شريك له ﴾ .

فإذا كان الصدق تكليفاً ربانياً ، والأمانة تكليفاً ربانياً ، والوفاء
بالوعيد تكليفاً ربانياً... فهل تدخل هذه التكاليف في العبادة ، أم تعتبر
خارجية عنها زائدة عليها ؟ !

وكيف تكون خارجة عنها أو زائدة عليها ، والله سبحانه وتعالى يقرر
أنه لم يكلف البشر إلا أن يعبدوه :
﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّا وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات : ٥٦) .

ويؤكد هذا الحديث النبوى الشريف :

« لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له »^(١) فإذا خرجت هذه
الأخلاقيات من دائرة العبادة لن تصبح في حس الناس لازمة ، وإنما تصبح شيئاً
جميلاً إن وجد ، فإن لم يوجد فلا بأس .

ومن هنا صار لدى الناس إسلام بلا أخلاق .. إسلام لم ينزله الله
تعالى ، ولم يأمر به ، وإنما هو أمر مضاد تماماً .. ومع ذلك يمارسه الناس
على أنه : « غاية المراد من رب العباد » .

إلا أن الفساد الذى طرأ على مفهوم العبادة وحصرها في الشعائر
التعبدية فحسب ، وأخرج منها ألواناً كثيرة من المعاملات ، كانت في حس
الأجيال الأولى داخلة في مفهوم العبادة الواسع الشامل ، باعتبارها سلوكاً
إسلامياً مرتبطة بلا إله إلا الله .

(١) صحيح الجامع الصغير : ١٢٠٥ / ٢

هذا المفهوم الشامل للعبادة انحرف عما كان عليه بسبب الفكر الإرجاني الذي أعطى لهذا الانحراف شرعنته ، حين أخرج العمل من مسمى الإيمان ومقتضياته .

وبسبب الفكر الصوف المنحرف عن التوازن الإسلامي مما زاد في فساد مفهوم العبادة .

كل هذا وذاك قد دمرا الجوهر الحضاري المتضمن في هذا الدين ، والذي كان قوامه السلوك الأخلاقي المرتبط بالعقيدة والترجم لها في دنيا الواقع .

وبعبارة أخرى ، حين صار المسلم لا يجد حرجاً في قلبه أن يكذب وأن يعيش أو أن يخون الأمانة ، وأن يتهاون في العمل ويختلف العهود .. يكون قد تجرد من أخلاقيات « لا إله إلا الله » ، وتجرد من قيمها الإسلامية والإنسانية

هذا التخلف في مفهوم العبادة والأخلاق نشأ عنه تخلف حضاري هائل ، أخرج هذه الأمة من زمرة المتحضرين ، كما أخرجها من ريادة العالم الذي أصبح نائهاً شارداً عن منهج الله^(١) .

وإن هذه الأمة لا تُمْكِن إلا بقدر التزامها بمقتضيات الإيمان والسلوك النظيف الظاهر ، والعبادة المؤثرة الحالصة في مجتمع الفضيلة والعفاف ، ذلك المجتمع المعافي من الجهر بالسوء والشروع والذنوب كما أشار إلى ذلك الحديث الصحيح ، قال عليه السلام : « كل أمتي معافي إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول : يا فلان عملت

(١) انظر : واقعنا المعاصر : (١٧٩-١٧٠) بتصرف واختصار

البارحةَ كذا وكذا ، وقد بات يسْتَرُّ ربه ، ويصبح يكشِفُ سِرَّ الله
عنه^(١) .

كم نحن بحاجة الآن إلى إعادة هذا المفهوم ، مفهوم الارتباط الوثيق بين
العبادة والأخلاق .. وأن بعد الازدواجية والانفصام بينهما عن أجيالنا
المعاصرة حتى تكون على مستوى التربية ، تربية جنود الصحوة المباركة .

وإنها لخدمة عظيمة نسديها للأمة ، بأن نزيل هذا الغبش عن أعينها ،
ونضع بين أيديها نماذج الصفاء الإيماني ، وتمثل مقتضياته في النفوس ، مع
تحوله إلى أخلاق قوية ، وسلوك أصيل .

(١) أخرجه البخاري : ٤٨٦/١٠ الفتح ، ومسلم : ١٨/١٩ بشرح الترمذ

٣ - من سمات المجتمع المسلم : أن أخلاقه واقعية

لم يأت الإسلام بمجرد أن يقدم الحقائق النظرية للحياة الإنسانية .. وإنما جاء أساساً لتنظيم هذه الحياة وفقاً للحقائق والغايات التي دعا إليها . إن إحسان العمل وإتقانه يمثل روح الأخلاق الإسلامية إذ جعل الإسلام الرقيب ذاتياً مستمراً يخضع لرقابة سماوية علياً .

قال ﷺ عندما سُئل عن الإحسان :

« أَن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(١) . رواه البخاري
ما يتضح لدينا أن هذا الدين يجسد العلاقة بين الجانبين النظري
والعملي على أفضل صورة .

وهذا يساعد في انسجام المؤمن مع نفسه ، فإذا تعارضت حياة الإنسان
العملية مع معتقداته تكون لديه صراع نفسي ، تشتت وانشقاق في ذاته
يسبيه الإحساس بالذنب^(٢) .

ونظرة بسيطة إلى ما كان عليه المؤمنون في فجر الدعوة لنلاحظ الدقة
في التنسيق بين المعتقد والعمل ، فيشعر أحدهم بالأمن والاطمئنان ، ومن
هنا وصفهم جل من فائق : ﴿ الَّذِينَ مَا مَأْتُوا وَلَمْ يَلِمُوْا إِيمَانَهُمْ يُظْلَمُونَ أُولَئِكَ لَهُمُ الْآمُنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام : ٨٢) .

(١) فتح الباري : ١٢٨ / ١ كتاب الإيمان »

(٢) انظر : التربية الأخلاقية الإسلامية د. مقداد بالحن . ص ٨٧

نَحْنُ هُنَا لَا نَكْلُمُ فِي النَّظَرِيَاتِ بَعِيدًا عَنِ الْوَاقِعِ ، لَقَدْ امْتَزَجَتِ
الْعِقِيدةُ فِي نُفُوسِ ذَلِكَ الْجَيلِ ، فَتَحُولَتِ إِلَى سُلُوكٍ وَتَضْحِيَاتٍ إِلَى إِثْبَارِ
اِرْتَفَاعٍ فَوْقَ تَقَالِيدِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ .

وفي المدينة المنورة حيث استقبل الأنصار المهاجرين وشاطر وهم الديار والأموال ، وبذلوا أمامهم النفس والنفيس ابتغاء رضوان الله .. تحول الإيمان لديهم إلى التطبيق الوذود ، والمحبة الصادقة .. فنشأ المجتمع الإسلامي قرباً يتحدى ضغوط الواقع الجاهلي ، حصيناً لا تضعضه جواذب الحياة الدنيا ومغرياتها^(١) .

کان مریبہم و قد و تھم رسول اللہ ﷺ۔

كان يريهم بالمعايشة المستمرة ، الهدائة التطبيقية .. وقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين أن يقتدوا بنبيهم في شمائله وعرينه صفاتـه . ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَآتَيْتُمُ الْأُخْرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب : ٢١) .

« والمجتمع المسلم لا ثؤسس أخلاقه بالتعاليم النظرية أو الأوامر والنواهي المجردة .

فالتأديب المستمر يحتاج إلى تربية طويلة ، ويطلب تعهداً مستمراً
ولن تصلح تربية إلا إذا كانت معتمدة على الأسوة الحسنة ، وقد عرفنا أن
رسول الله ﷺ كان بين أصحابه مثلاً أعلى للخلق الذي يدعو إليه ، فهو
يغرس بين أصحابه هذا الخلق السامي بسيرته العطرة قبل أن يغرسه بما يقول
من حكم وعظات «^(٢)» .

(١) انظر فصل : التربية العقدية ، الكتاب الأول من هذه السلسلة « احیاء السياسة عند العرب : دراسة مقارنة » .

(٢) خلق المسلم : الغزالى ، ص ٢٣-٢٤

عن أنس - رضي الله عنه - قال : « خدمت النبي ﷺ عشر سنين ، والله ما قال لي : أَفِ قَطُّ ، ولا قال لشيء : لَمْ فَعَلْتَ كَذَا وَهَلَا فَعَلْتَ كَذَا »^(١) .

وعن أنس أيضًا قال : « كنت أمشي مع رسول الله ﷺ ، وعليه تبرد غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابيٌّ فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفة عاتق رسول الله ، وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جذبته ، ثم قال : يا محمد : مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عَنْكَ . فالتفت إليه رسول الله ، وضحك ، وأمر له بعطاء »^(٢) .

ولا عجب فقد وصفه ربه بقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم : ٤١) .

وقد وصفته السيدة عائشة - رضي الله عنها - بقولها : « كان خلقه القرآن » .

وقد رأى الجيل الفريد : جيل القمة السامية على أن ينهل من كتاب الله العظيم ، وكريم صفات رسوله الكريم ، فكان خير القرون . قال رسول الله ﷺ : « إن خيركم قرني »^(٣) .

ذلك الجيل الذي استحق أن يصفه جل من قائل : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجْتُ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

لقد ضحى هذا الجيل في سبيل دعوته وإسلامه بالغالي والرخيص ، لأن حقيقة لا إله إلا الله استقرت في نفوسهم ، وتحولت إلى رصيد واقعى في حياتهم .

(١) رواه مسلم

(٢) رواه البخاري .

(٣) جزء من حديث رواه الإمام مسلم : ١٩٦٤/٤ .

فيبعى أن نعمل على تحويل حياتنا كلها إلى ذلك النهج الذى استقامت به حياة السلف الصالح ، حتى نتمكن من التخلص من رواسب التخلف والاخراف .

وكلما سارت أجيال هذه الأمة خلال تاريخها على صفاء النهج الأول ، وخطى السلف الصالح ، لاحت لها بوادر السمو والتقدم ، والأطمئنان والفضيلة . إذ أن شخصية المسلم شخصية فريدة ، لا تقاس بالشخصية الاجتماعية التى ربها النظم الوضعية المعاصرة ، ولا الشرائع التى تعب في صياغتها الفلاسفة والمفكرون .

وشخصية المسلم لها مقومات تمثل فى وقوفه عند حدود الله فى معاملته وسلوكه ، يمثل الأخوة والتكاتف فى قول الرسول ﷺ : « مثُل المؤمنين فى توادهم ونعاظفهم وتراحمهم ، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضُّوْ تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى »^(١) .

والجزاء الجميل لمن يفرج عن أخيه المسلم كُرْبَةً من كرب هذه الحياة فى قوله ﷺ :

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كُرْبَةً فرج الله عنه بها كُرْبَةً من كُرْب يوم القيمة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيمة »^(٢) .

هكذا كان مجتمع المسلمين ، يطبق تعاليم الإسلام ، فيفهم العبادة ويطبق تأثيرها فعلاً فى واقع حياته ، حسن خلق وطيب عشر

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البخارى ومسلم ينظر صحيح الجامع الصغير ج ٢/ ١٣٧ .

وإن تفصيل الحديث في الأخلاق الطيبة أمر يطول ، وقد يجده القارئ مفرقاً في كتب الحديث النبوى والسيرة والتراجم وكتب التاريخ . وقد تحدث عن بعض التماذج للأخلاق عند المسلمين مقارنة بأخلاق أهل الجاهلية ، وكيف سا بها الإسلام ، وصفى النية وجعلها خالصة لوجه الله .

إلا أننى سأوجز القول في الصفحات التالية عن بعض الصفات العامة ، والسمات المشتركة للأخلاق في المجتمعات الإسلامية ، وذلك في النقاط التالية :

- أ - الإخلاص والتجرد لله .
- ب - الحب في الله .
- ج - التناصح : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .
- د - لوم النفس ومقاومة الأهواء .

أ - الإخلاص والتجرد لله

الإخلاص من أهم ما يفرق عمل المسلم عن غيره ، إذ يتوجه الأول بعمله نحو مرضاه الله سبحانه وتعالى ، بينما يتوجه المغافل نحو غايات شخصية ومصالح دنيوية .

المسلم يتحدد عمله بالنية الصالحة : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » ^(١) .

الأعمال في الإسلام لا تقبل إلا بإخلاص النية لله تعالى ، وأن يكون العمل صواباً على سنة رسول الله ﷺ .

يقول رسول الله ﷺ : « إن الله يحب العبد التقي الحفيظ » ^(٢) .

فالمسلم يتوجه في عمله وعند معاملة الآخرين إلى الله دون أن يتضرر جزاء عمله من أحد إلا الله .

يقول ابن تيمية رحمه الله ^(٣) : « والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب ، فإن القلب ملك وأعضاء جنوده ، فإذا خبأ الملك خبأ جنوده ، وهذا قال النبي ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسّدَتْ فسدَ الجسد كله » رواه البخاري ومسلم .

(١) متفق على صحته : البخاري ٧/١، ١٥، ومسلم : ١٩٠٧

(٢) مسلم شرح الترمذ : ١٠٠/١٨ ، (والبغوي في شرح السنة : ٢١/١٥-٢٢) (والتفسير له) .

(٣) الفتاوى لابن تيمية : ١١/٣٨١

والرياء ينافي الإخلاص ويتحقق العمل . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا
لِيَعْبُدُوا إِلَهًا مُخْلِصِينَ لِهِ الَّذِينَ حَنَفَّاَهُ ﴾^(١) .

والرياء محبط للأجر مبطل للعمل ، فعن جندب بن عبد الله بن سفيان - رضي الله عنه - قال : قال النبي ﷺ : « مَنْ سَمِعَ سَمْعَ اللَّهِ بِهِ ، وَمَنْ يَرَى يَرَى اللَّهَ بِهِ »^(٢) .

وإن فضيلة الإخلاص تبعث في نفس الإنسان كريم البواعث ونبيل الحوافر ، فهو يتحرك طلباً لرضا الله سبحانه ، وحباً في عمل الخير والتعاون مع كرام الناس وتطلعاً إلى سيادة الحق والعدل والبر .

هذا وإن الإخلاص في العمل تتعدد فيه المظاهر والمقاصد في الحياة ، فإذا رأينا في القمة إخلاص العبد لربه ، وهو إفراده في العبادة والنية والقصد ، فإن في ظلال هذا الإخلاص تبدو ألوان كثيرة من الإخلاص للآخرين كإخلاص المرأة لأهله وأصدقائه ، وإخلاصه في عمله ووظيفته ، وفي تجارةه وسائر أمور حياته .

وما شاع الإخلاص في قوم في شؤون الدين والدنيا إلا عمهم الخير والحق ، وزهرت بينهم الشر والباطل ، وكانوا في الأولى والآخرة من السعادة^(٣) .

(١) سورة النبأ : آية (٥) .

(٢) متفق عليه . البخاري ٢٨٨/١١ ، مسلم : ٢٩٨٧ « سمع : أظهر عمله للناس رباء ، سمع الله به : أى فضحه يوم القيمة - رأى : أظهر عمله للناس » انظر باب خربة الرياء : رياض الصالحين

(٣) انظر موسوعة أخلاق القرآن : الشري باصي ١٩٣/٢

فِي الْخَلَصِ وَالْإِسْقَامَةِ مِنْ أَهْمَّ خَصَائِصِ الْمُسْلِمِ . يَقُولُ جَلُّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿فَأَسْتَقِيمُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ﴾ (فَصْلُتْ : ٦) .

وَلَقَدْ تَوَصَّلَ الْمُسْلِمُونَ بِسَبِّبِ هَذِهِ الْفَضْيْلَةِ إِلَى أَعْلَى درَجَاتِ السُّمْوَ وَالْزَّهْدِ ، فَسَطَرُوا عَجَائِبَ مِنَ الْخَيْرِ وَالْعَدْلِ وَالْعَطَاءِ ، وَأَسْسُوا مُجَمِّعًا مُتَمِيِّزًا لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ .

ب - الحُبُّ والتَّائِحِي

وهي ميزة أساسية من مزايا أخلاقيات المجتمع الإسلامي ، هذا المجتمع الذي أنشأه الإسلام بعد أن خلصه من الجاهلية وحررها وتزفتها ، هذا المجتمع الذي قامت الروابط فيه على الحب بين المؤمنين في الله ، ولا يكون الكره والبغض إلا من أجل مرضاه الله وتعاليم رسوله ﷺ .

قال تعالى : ﴿ لَا تَحْمِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُؤَدِّوْنَ مَنْ حَادَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴾ (المجادلة : ٢٢) .

فتشاً المجتمع الإسلامي متراصداً ، ترفرف عليه راية العدل والمساواة ، لا تمييز ولا طبقات ، يتتسابق فيه المؤمنون على حب الله ورسوله وتطبيق ما يتعلمونه من الكتاب والسنة .

قال رسول الله ﷺ : « ثلاثَ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوةَ الإِيمَانِ ، مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مَا سَاوَاهُمَا ، وَمَنْ أَحَبَ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفَّارِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَدَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْدَفَ فِي النَّارِ »^(١) .

كيف لا ينشأ الحب بين المؤمنين ، وقد جعل الله للمتحابين مقاماً رفيعاً ومتزلاً عالياً ، أُعدت لهم في جناب النعم ^(٢) ؟ وأن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : « رجلاً تحاباً في الله اجتمعوا على ذلك وتفرقوا عليه »^(٣) .

(١) متفق عليه . شرح السنة ٤٩/١ .

(٢) متفق عليه . ينظر شرح السنة ٣٥٤/٢

كان رسول الله ﷺ يؤسس هذا البناء الشامخ في مجتمع العقيدة على الحب والإخاء والتواجد قال عليه الصلاة والسلام : « إذا أحب الرجل أخيه فليُحِبْه أَنْه يَحِبْه »^(١) .

وقوله ﷺ : « ما تَحَابَ الرِّجَالُ إِلَّا كَانَ أَفْضَلُهُمَا أَشَدُهُمَا حَبًّا لِصَاحِبِهِ »^(٢) .

ويملأنا ﷺ كيف تكون الخبرة ؟ وأن الإيمان لا يكتمل إذا لم تتحاب .

« لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحابيتم ؟ أَفْشُوا السلام بينكم »^(٣) .

« بهذه الخبرة الناصعة بني رسول الله جيل الإسلام الأول الذي بلغ رسالة السماء إلى الأرض ، وكان القاعدة الصلبة التي حملت صرحاً الإسلام الشامخ »^(٤) .

ومن وسائل هذا الحب والتآخي ، التسامح والعفو عن المساء . قال تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْضَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٤) .

(١) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث صحيح .

(٢) البخارى في الأدب المفرد . وصححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي شرح

السنة ٥٢/١٣ .

(٣) رواه مسلم . ينظر مشكاة المصايح م ١٣١٦/٣

(٤) انظر شخصية المسلم : الماشمى (١٨٩٢-١٩٢) .

وكذلك تُبَذِّلُ الفرقة والمقاطعة بين المسلمين :

« لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام ، يتلقيان فيعرض هذا ويعرض
هذا ، وخيرها الذي يبدأ بالسلام »^(١) والقاعدة الأساسية في كل هذا أن
يعامل المسلم أخاه بما يحب أن يعامله به « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه
ما يُحب لنفسه »^(٢)

(١) رواه الشیخان .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، « كتاب الإيمان » .

ج - التناصح: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»

وصف الله سبحانه وتعالى هذه الأمة بالخيرية بسبب هذا الخلق القوي

إذ يقول جل من قائل :

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرِجْتَ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَاكُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران : ١١٠)

وهذا قال أبو هريرة - رضي الله عنه - :

«كنته خير الناس للناس ، تأتون بهم في القيد والسلسل حتى تدخلوهم في الجنة»^(١).

فالتناصح من أبرز صفات هذه الأمة ، إذ لا يُقر فيها منكر ، بل يشيع الخير ، ويتم تعليمه وتعلمه ، ويصبح وسيلة مهمة في تكوين الوعي الأخلاقى .

قال ﷺ : «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»^(٢) «فدعوة الآخرين إلى الخير ، ومحاربة الشر أنها وُجد ، هدف شرعى نبيل ، يمكن التعبير عنه بتكونين روح الخير أو تكوين الإنسان تكوينًا حيًّا ، وقد عبر سبحانه وتعالى عن نمط الشخصيات الحية ، أو الصالحة فقال جل من قائل:

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَاكُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَرِّعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران : ١١٤)

(١) أورده البخاري موقوفاً على أبي هريرة بلفظ قريب ٢٢٤/٨

(٢) الناجي الجامع للأصول في أحاديث الرسول : الشيخ منصور على ناصف - مطبعة

البابى الحلبي ١

وأكمل صورة للإنسان هو ذلك المستوى الذي يصبح فيه مفتاحاً
للخير ، مِثْلَاقاً للشر في نفسه ، وفي مجتمعه^(١)

هذا وإن التناصح أمانة في عنق المسلم وذلك على كل مستوى . قال
الرسول ﷺ : « الدین النصيحة » قلنا : مَن ؟ قال : الله ولرسوله ولأنتم
المسلمين وعامتهم »^(٢)

ويؤكد هذا حديث جرير - رضي الله عنه - إذ يقول : « بایعُ
الرسول عَلَيْهِ السَّلَامَ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ »^(٣) .

فقد قُرِن النصح في هذا الحديث بالصلوة والزكاة ، فهو فرض لازم
في أي صورة من صور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا ما يوضحه
الحديث الصحيح : « مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكِرًا فَلْيَعْتِرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يُسْتَطِعْ
فَلْيَسْأَلْهُ ، فَإِنْ لَمْ يُسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَافُ الْإِيمَانِ »^(٤) .

لابد من الصدح بالحق لإزالة المنكرات ، وإماتة المعاishi ، وردع
الظالم عن ظلمه وإلا فسوف يعم الله الناس بعacam .

وهذا ما أشار إليه خليفة رسول الله في خطبته . روى قيس بن أبي
حازم - رضي الله عنه - ، قال : قام أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - ،
فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يا أهلاً الناس : إنكم تقرؤون هذه الآية ،

(١) انظر : التربية الأخلاقية الإسلامية : د. مقداد بالحن ص ١٠٢ .

(٢) صحيح مسلم : ١٩٩٩/٤ ، كتاب البر والأداب .

(٣) صحيح مسلم : ٥/١ ، كتاب الإيمان .

(٤) صحيح مسلم مع الشرح للتروى : ٢٢/٢ ، كتاب الإيمان .

وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا » : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ ﴾ (المائدة : ١٠٥) .

ولما سمعنا رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ أُوْشِكُ أَنْ يَعْمَمُهُ اللَّهُ بِعَقَابٍ . وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ : « مَا مِنْ قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمُعَاصِي ، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَغْيِرُوا وَلَا يَغْيِرُونَ ، إِلَّا يُوْشِكُ أَنْ يَعْمَمُهُ اللَّهُ بِعَقَابٍ »^(١) .

فالسكتوت على المنكر خيانة لا يقرها الإسلام ، بل إن غضب الله سيعم القوم الذين لا يأخذون على يد المعاصي ببنهم .

عن جرير بن عبد الله - رضي الله عنه - قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمُعَاصِي ، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَغْيِرُوا عَلَيْهِمْ فَلَا يَغْيِرُوا إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتُوا »^(٢) .

« أَمَا إِذَا قَامَ الْمُسْلِمُ بِمَا يَحْبُبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ - كَمَا قَامَ بِغَيْرِهِ مِنِ الْوَاجِبَاتِ - لَمْ يَضُرْهُ ضَلَالُ الْفَضَالِ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِالْقُلْبِ تَارَةً ، وَبِاللِّسَانِ تَارَةً ، وَبِالْيَدِ تَارَةً »^(٣) .

على أَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا قَدْ ضَلُّوا بَعْدَ أَنْ تَرَكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ ، يَخْبُرُنَا الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - عَنْ أَحْوَالِهِمْ بِقَوْلِهِ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّفْسَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ : أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ لَهُ : يَا هَذَا أَئُّكَ اللَّهُ ، وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَخْلُ لَكَ ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكْيَلَهُ » .

(١) جامع الأصول : ٣٣٠/١ .

(٢) سنن أبي داود : (الملاحم) ٤٣٧/٢ .

(٣) انظر : كتاب الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ : ابن تيمية ، تحقيق محمد السيد الجليل ، دار المجتمع للنشر والتوزيع جدة ١٤٠٤ هـ .

ثم قال عليه السلام : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهن عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطّرنه على الحق أطراً ، ولتفصّرّه على الحق قصراً »^(٢) .

و كذلك كان شأن أهل الجاهلية ، كانوا لا يأمرون صاحبهم بمعرفة
ولا يتناهون عن منكر فعلوه ، يقول حرث بن محفوظ المازني :^(٣)
ألم نر قومي إن دعاهم أخوهم أجابوا وإن يغضب على الناس يغضبوا

وفي الجاهلية المعاصرة نجد أن الناس لا يتناهون عن المنكرات عصبية للقبيلة أو الحزب أو الإقليم ، بحيث تقلب الموازين ، وتحتل القيم بعيداً عن شرع الله .

على أن الذى يتصدى لهذه المهمة السامية ، مهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهى مهمة الأنبياء والعلماء الصالحين ، ومن سار على منهاجهم ، لابد أن يتتوفر لديه بعض الشروط والصفات .

١) سورة المائدة : (الآيات ٧٨-٨١) .

. ٢٢٣/١) جامع الأصول :

(٣) طبقات فحول الشعراء : ابن سلام ١٩٤١

« ومن هذه الشروط : الصلاح والرفق والحلم والصبر على الأذى .
ومنها العلم والفقه ، فإن لم يكن الأمر بالمعروف عن علم كان جهلاً
وضلالاً وابداعاً للهوى ، وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية وأهل الإسلام ،
فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر ولا بد من التبييز بينهما ، ولا بد من العلم
بحال المأمور وحال المنهى .

ذكر القاضي أبو يعلى في المعتمد : « لا يأمر بالمعروف وينهى عن
المنكر ، إلا من كان فقيها فيما يأمر به ، فقيها فيما ينهى عنه ، رقيقاً فيما
يأمر به ، رقيقاً فيما ينهى عنه ، حليماً فيما يأمر به ، حليماً فيما ينهى
عنه » ^(١) .

« وحيثما كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم يكن مما أمر
الله به ، وإن كان ترك واجب و فعل حرام إذ المؤمن عليه أن يتقوى الله في عباد
الله وليس عليه هداهم » ^(٢) .

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ابن تيمية ص ٣٩-٤٠ .

(٢) المصدر السابق : ص ٣٠ .

د - لوم النفس ومقاومة الأهواء

من صفات المؤمن أنه يتلزم بهذه نبيه ، يتبع الدليل الشرعي ، فيكبح أهواء نفسه ونزاواتها ، أواب إلى الحق ، يحاسب النفس عند الخطأ مستغفراً ربه تائباً إليه جل جلاله .

يراجع نفسه وهي تسعى وانية في مجال الخير ليفجر فيها ينابيع النشاط والقدرة ، حتى تزداد من الخير وتجتهد في ميدان البر .

فالإنسان - بهذه الفضيلة - يقيم من نفسه على نفسه حارساً يقظاً يمنعها من السوء ويدفعها إلى الطيب من القول والعمل والتفكير ، وهذا ما يسميه أهل عصرنا « سلطة الضمير » .

ومن هنا أقسام جل جلاله في كتابه الكريم بالنفس اللوامة ﴿ لا أقسم بيوم القيمة ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ . إذ جمع في القسم بين هذه النفس اللوامة ويوم المول العظيم ، يوم القيمة .

لقد ترفع المسلمون فوق أهواء النفس ، وقاوموا شهواتها ، اتباعاً لوحى السماء وأخلاق القرآن وهدى الرسول ﷺ .

فكثير من الآيات الكريمة تنوه بشأن من يفلج في مقاومة اهوى ، قال تعالى :

﴿ وَمَآمِنَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسُ عَنِ الْهَوَى ۚ إِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ۝ (النازعات : ٤٠-٤١) ﴾

وتحذر من اتباع الهوى لأنه يقع في الظلم :

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ (النساء : ١٣٥)

وفي قوله : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهًا هُوَنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَلِيٍّ وَحَمَّ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غَشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(١)

(الجاثية : ٢٣) .

وتاريخنا الإسلامي مليء بښير الأخيار الأطهار والزهد العباد ، الذين ضربوا نماذج رائعة في لوم النفس ، فركت وارتقت فوق جواذب الحياة الدنيا وغمرياتها .. أولئك الذين كانوا يشعرون بأنهم مفارقون لها صباح مساء ، كعابرى سبيل يرجون من الله أن يوصلهم لمقرهم الدائم في جنات النعيم ، وأن يقيهم لفحات الجحيم .

ومن هنا استقاموا وعمروا الدنيا بالخير والعدل والصلاح .

رسم بعض الشعراء صورة لواحد من هؤلاء الائمين فقال عنه :^(٢)

نخيل الجسم مكتب الفؤاد تراه بقمة أو بطن وادي
ينوح على معاصر سابت يكدر ثقلها صفو الرقاد
فإن هاجت مخاوفه وزالت فدعوه : أغثني يا عمادى
فأنت بما ألاقيـه علم كثير الصفح عن زلل العباد

فالتبليـل إليه تعالى ، ومحاسبة النفس ، والشعور بمخاوف الوقوف بين يدي رب العباد ، من خصائص المجتمع الإسلامي ، الذي يتزمـم المؤمنون فيه بالتشريع السماوي خلافاً للمجتمعـات الجاهلية التي لا تتبع إلا الهوى والعادة وما كان عليه الآباء والأجداد^(٢) .

(١) انظر أخلاق القرآن : الشريachi ، لوم النفس ١٣٨/٢ ومقاومة الهوى : ١٧٧/٦ .

(٢) انظر المبحث الرابع « سطـرة العادات وتحكمـ الهوى من مقومات الجاهلية » .
الفصل الثاني من الكتاب الأول في هذه السلسلـة .

ولقد عُنى علماؤنا بال الحديث عن مقومات الهوى ، واعتبروا أن النجاة الحقيقية لا تكون إلا باتباع نهج السلف ، والتمسك بالسنة المطهرة .

روى عن الأوزاعي رحمه الله أنه قال :
« اصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكف عنما كفوا عنه ، واستلئ سبيل سلفك الصالح ، فإنه يسعك ما وسعهم »^(٢) .

وقد خصص الإمام ابن الجوزي رحمه الله كتاباً لهذا الموضوع سماه :
« ذم الهوى » .

ويعتبر أبو بكر الوراق أن : أصل غلبة الهوى مغالبة الشهوات ، فإذا غلب الهوى أظلم القلب وإذا أظلم القلب ضاق الصدر ، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق » .

بالتجدد والإخلاص ، بالإيمان الصادق والعمل الوعي ، بالعبادة والورع ، سادت العفة والأمانة وشاع الإخاء والتعاون والتناصح في المجتمعات الإسلامية بعد أن صفت نفوس المؤمنين وسمت أخلاقهم وأسسوا مجتمع الطهر والفضيلة .

وهكذا كانت المجتمعات الرعيل الأول ، وهكذا سارت المجتمعات اللاحقة بهم كلما تمسكت بهذه المقومات الأساسية لأخلاق المسلمين .

ومن هنا تختلف المجتمعات الإسلامية بسماتها الأخلاقية ، عن المجتمعات الجاهلية في القديم والحديث .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١٥٤/١ اللالكاني - تحقيق أحمد سعد الحمدان .

ومن هنا تبرز السمات الأخلاقية للمجتمعات الإسلامية مناقضة
للسمات الأخلاقية في المجتمعات الجاهلية .

ومن هنا يبرز العبء الضخم والواجب الثقيل على عاتق أبناء هذا الدين ودعاته ، ليعيدوا للبشرية التائهة رشدها وصوابها ، وتبني أخلاقيات « لا إله إلا الله » فهي المنفذ والخلص لما يعانيه الناس من تمزق وانحراف في أيامنا النكدة .

وإذ الله لا يضيع جزاء من أحسن عملاً .

الفصل الثالث : المبحث الثاني

أبرز السمات الأخلاقية في المجتمعات الجاهلية

- ١ - فساد في التصور وانهيار في الأخلاق .
- ٢ - سيادة الأخلاق النفعية .
- ٣ - القلق والخيرة والاضطراب .
- ٤ - سعhaar في الجنس وتهتك في الأخلاق .

عند استعراضنا نماذج من الأخلاق الديمية في العصر الجاهلي ، وخلال مقارتها بما انحدرت إليه في العصر الحديث ، نبين أن التشابه قوى في مظاهر الانحراف في القديم والحديث .

ولا غرابة فالجاهلية هي الجاهلية في كل عصر وفي أي مكان ، وإن ثلثة مظاهرها حسب متطلبات وظروف كل عصر وكل أمة .

ونستطيع هنا في هذا البحث إيجاز سمات عامة مشتركة لأخلاقيات المجتمعات الجاهلية ، وهي خصوط عريضة لا تعنى التفصيل والاستقصاء .

وسوف يلاحظ أنها تشتراك في إلغاء عنصر الإيمان بالله جل وعلا ثم الاعتداد على تقاليد البشر واجتهدهم وعلى أهوائهم ونزواتهم .

وسوف يكثر الحديث في هذا البحث عن أثر الغزو الفكري والأخلاق والعقدى لأمتنا ، ذلك الغزو الذى داهمها من حضارة الغرب « أمريكا وأوروبا » أو الشرق المتمثل في الكتلة الشيوعية .

إن الجahلية الغربية كادت أن تطغى على المجتمعات البشرية في القرن العشرين ، معتمدة على تقدمها التكنولوجى الذى يخفى وراءه كل عوامل الانهيار الأخلاقى ، والخراب العقائدى ، وهو مجال حديثنا في الصفحات القادمة .

١ - فساد في التصور وانهيار في الأخلاق

الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، بعض تصوراً سليماً في هذه الحياة ، وهو الركيزة الأولى التي صفت الحياة الإسلامية بطابعها المتميز .

إلا أن طبيعة المجتمعات الجاهلية تفتقد هذا الإيمان ولو لا محادتها الله ورسوله لما أصبحت جاهلية ..

ومن ثم تنحرف في أخلاقها ، لأنها تفتقر إلى ميزان دقيق يستمد من روح السماء ، فتحتلط بعض الفضائل لديها « تلك التي ورثتها من بقایا أديانها » بالاجتهاد البشري أو بالعادات والتقاليد

وهذا ما بدا لنا واضحًا في جاهلية العرب قبل الإسلام وهو ما يلاحظ في كثير من المجتمعات المعاصرة بعد أن تمردت على الله ورسله .. سواء في الشرق أم في الغرب .

« تمرد الملحدون في الجاهلية الحديثة في الغرب على الله لأسباب محلية في الكنيسة الأوروبية نفرت الناس من الدين .

وبسبب من ذلك التاريخ الفاسد المنحرف ، قامت الحضارة الغربية الحديثة على أساس معاد للدين ، نافر منه ، منسلخ من كل ما يتصل به من عقيدة أو تصور أو سلوك وانتشرت العدوى مع الحضارة الغالية حيثما وطئت قدماها ، فأصبح النفور من الدين في هذا العصر كأنه ظاهرة بشرية ، وهو لا يزيد على أن يكون مرضًا أصاب جيلاً من البشرية أو عدة أجيال »^(١) .

(١) دراسات في النفس الإنسانية : محمد قطب ص ٢٢٩

التناقض بين التصور والسلوك :

كانت الكنيسة في القرون الوسطى أحد أسباب الاحراق في السلوك ، لأنها اشترطت في تصورها للفضيلة ، ووضعت للأخلاق من الشروط والمواصفات ، مما ينوه بالجهد البشري ولا يستطيع استكمالها إلا حفنة ضئيلة من البشر ، تتمتع بمزايا عالية .. بينما تلخصت سيرة رجال الكنيسة وأعضاء الأديرة برذائل وأرجاس يترفع عنها الفرد العادى ويتساءر عليها الفاجر البذىء .

لقد كانت الأديرة مباءات للفحور ومواخير للدعارة ، وكان المبابوات والقساؤسة من العشيقات والخطايا مala يكون لدى الملوك الدنيويين ، وتولى منصب البابوية عدد من الأبناء غير الشرعيين لبعض الآباء والكرادلة .

فالغلو أدى إلى انحراف رجال الدين من جهة ، وإلى انحراف في النظرة إلى بعض القيم الأخلاقية الأخرى لدى الناس من جهة أخرى .

فالعفة مثلاً خلق إنسانى نبيل ، دعت إليه الأديان كافة لكن الكنيسة بالغت في تصورها لهذا الخلق حتى حرمت ما أحل الله .. وابتعدت الرهابانية ، فنفرت من المرأة لذاته إذ تقول عن النظر المجرد : « إذا نظرت عينك إلى معصية فاقلعها ، فإنه خير لك أن تفقد عضواً من أعضائك ، من أن يلقى جسده كله في النار ، ولذلك حرمت الزواج على رجال الدين ..

والجشع على المال والملذات خلق ذميم ، لكن الكنيسة غالست في ذمه وتحريمه .. وقالت أناجيلها : « مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملوكوت الله » . وفي الوقت نفسه كان رجالها أجشع الناس وأغنى الملائكة .

والتسامع خلق رفيع ، غير أن الكنيسة بالغت في فرضه حتى أوجبت على أتباعها قبول الذل وتحمل الظلم فقالت : « مَنْ لطْمَكَ عَلَىْ خَدْكَ الْأَيْمَنِ فَأَدْرَكَ لَهُ الْأَيْسَرِ ، وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلًا فَامْشِ مَعَهُ مِيلَيْنِ ، وَمَنْ نَازَعَكَ رِدَاءَكَ فَأَعْطِهِ الْآخَرِ »^(١) .

فالمتالية في التصور ، أدت إلى انحراف أخلاقي شديد إذ لم يستطع الناس في أوربا أن يتحملوا مثل هذه التعاليم المستحبة والمناقضة للفطرة البشرية ، فانتقلوا إلى النقيض تماماً ، ورجعت أوربا في العصور الوسطى إلى ميراث الرومان واليونان .

« حيث أصبحت تعيش بشخصيتين منفصلتين :

إحداهما : الشخصية المسيحية المتعبدة المتصوفة الزاهدة في داخل الكنيسة ، تسمو أرواحها على التراتيل الشجية ، والأنعام الرائعة .

والآخرى : هي الشخصية الرومانية الإغريقية التي تعيش في حدود ما تدركه من الحواس فحسب .

ومن ثم تظل الحياة الواقعية غير محكومة بمبادئ المسيحية ومثلها المترفة ، وتظل المسيحية قابعة في داخل المعبد لا تنشر لواءها - رغم ما فيها من غلو - على واقع الحياة .

وظلت أوربا بذلك مفككة مجرأة الشخصية حتى جنحت في عصرها الحديث نحو عالم الجسد ، فاستبدلت انحرافاً بانحراف ، وشندواً بشندواً . والإنسان في فطرته السوية لا يعرف هذا الانفصال الدائم أو المؤقت .

(١) العلمانية : د. سفر الحوالى ، طبعة جامعة أم القرى ١٤٠٢ هـ بتصريف وإنجاز

والقيم هي التي تحكم السلوك ، فإذا انفصل السلوك عن القيم ، كما هو منفصل في حياة البشرية اليوم ، صار لها سلوك واقعى تحكمه الضرورة القاهرة ، ودفعه الغريرة ، وقيم معلقة في الفضاء تبحث وتألفس بمعزل عن الحياة الواقعية .

وهذا انحراف خطير على كيان البشرية لأنه غير أصيل ولا يتمشى مع فطرتها ، إنه تمزيق للشخصية وتفتت لها ، لا يتع吉 عنه إلا الضعف والتفكك والانحلال ، وفي نهاية الأمر يصل إلى البوار والهلاك «^(١)»

دور علم الاجتماع والدراسات النفسية :

وقد ساهمت نظريات علم الاجتماع في هدم الدين والأخلاق ثأراً من ترمُّث الكنيسة ، وثأراً بأحقاد اليهود على البشرية .

« فقد نفى جان جاك روسو عنصر الإيمان من الأخلاق ، وجعل مدارها الرئيسي يعتمد على المصلحة الدنيوية المجردة ، ولغرض المنفعة الخاصة وال العامة »^(٢) .

« أما دور كايم فقد وصل إلى نتيجة خطيرة ، وهي أن الدين ليس فطرياً ، وكذلك الأخلاق والأسرة ، وذلك رأى اقتبسه منه علماء الاجتماع التالون له ، وعممته في أبحاثهم دون أن يدرك هؤلاء الدافع التلمودي المدمر لدى هذا الكاتب الحاقد »^(٣) .

(١) دراسات في النفس الإنسانية : محمد قصب (ص ٢٨٣-٢٨٤) .

(٢) العلمانية . سفر الحوالي ص ٣٨٠ .

(٣) العلمانية : سفر الحوالي (ص ٣٨٥-٣٨٦) .

« هو يهودي فرنسي وجه حملته مع زملائه الآخرين من كبار المفكريين اليهود إلى تحطيم الدين والأخلاق والتقاليد ؛ أخذ عن دارون التفسير الحيواني للإنسان ومدّه ليغطي العلاقات الاجتماعية .

يقول دوركايم : « إنه لا يمكن من ثم إثبات شيء من القيم على الإطلاق ، لا الدين ولا الأخلاق ولا التقاليد »^(١) .

ومن تأثير بدوركايم من كتاب العرب الدكتور طه حسين إذ أشرف على رسالته « ابن خلدون » ، ومن ثم خضع إلى نظريته فولائه للفكر الغربي الجائع إلى احتقار الفكر العربي والإسلامي^(٢) .

إن نظرية دارون كانت قد أثرت في العلوم الإنسانية وأدت إلى إيهامين خطيرين هما : حيوانية الإنسان مع نفي الغاية من وجوده ، ثم التصور المطلق .

أما الشيوعية : فليست أحسن حالاً في هذا المجال فماركس يرى أن لا شيء من القيم أو المثل ثابت إطلاقاً .

ويرى برند راند رسل : أن الدين ليس مصدراً للأأخلاق بل إن الأخلاق قد مررت بثلاث مراحل من التطور :

- ١ - أخلاق المحظوظ ، أي المحرّم .
- ٢ - أخلاق الطاعة الإلهية .
- ٣ - الأخلاق الحديثة ، وهي أخلاق نفعية عقلية^(٣) .

(١) مذاهب فكرية : محمد قصب ، (١١٥، ١١٧).

(٢) الشبهات والأخطاء : أنور الجندي ، (٤٦٩).

(٣) انظر العلمانية : حوالي ص (٣٩١-٣٨٠).

أما الدراسات النفسية فقد استغلها فرويد مستوحياً معظم أفكاره من التوراة المحرفة ، مثل تفسير الأحلام وعرض المسألة الجنسية ، وعشق المحارم ، وهذه من الأمور التي حفلت بها التوراة المحرفة وقصت علينا من الانحرافات الجنسية مala يصدقه أحد إلا اليهود الذين استباحوا كل محرم^(١) .

وُيُرجح كثير من الباحثين هدف فرويد إلى تحطيم القيم الأساسية التي جاءت بها الأديان ، إلى تأثيره بأهداف الصهيونية التي تعمل على هدم النظم الدينية والأخلاقية ، من أجل السيطرة على العالم ، ومن ثم تسخيره على النحو الذي أورده بروتوكولات حكماء صهيون^(٢) .

وباختصار : لقد كانت مهمة فرويد هي تغطية الفساد الضخم الذي ندبها العصابة الشريرة في الأرض بإعطائه التبرير العلمي الذي يجعله أمراً طبيعياً لا يستنكر ، ويصبح المُنْكِر هو الرجعى المتأخر الذى يصدر عن الجهل بحقائق العلم^(٣) .

إن هؤلاء اليهود : ماركس ودارون ودوركايم وفرويد ، كانوا قد دمروا بنظرياتهم ما تبقى لدى أوربا من قيم وأخلاق ، بعد أن فصلوا بين الأخلاق والدين . وإن البروتوكولات طافحة بهذا الخراب المدروس^(٤) .

يقول البروتوكول الرابع عشر :

« حينما نمكّن لأنفسنا ، فنكون سادة الأرض ، لن نبيع قيام أي دين غير ديننا .

(١) التراث اليهودي الصهيوني : د. صبرى جريش ص ٣٢٢ وما بعدها

(٢) أحطاء المنجى العرى الواحد : أنور الجندي ص ٣٩٨ دار الكتاب اللبناني بيروت الطبعة الأولى

(٣) مذاهب فكرية معاصرة : محمد قطب ص ١١٤

(٤) بروتوكولات حكماء صهيون : ترجمة محمد خليفة التونسي البروتوكول الرابع عشر ، والسابع عشر ص ١٩٨ ، ٢٢٠ الطبعة الثانية

ولهذا السبب يجب علينا أن نخطم كل عقائد الإيمان ، وإذا تكون النتيجة المؤقتة لهذا هي إثمار ملحدين » .

وتقول : « اليوم تسود حرية العقيدة في كل مكان ، ولن يطول الوقت إلا سنوات قليلة حتى تنهار المسيحية بدأً انتصاراً تاماً .

وسيقي ما هو أيسر علينا للتصرف مع الديانات الأخرى » .

هذه بعض إفرازات الدراسات اليهودية ومن تأثيرها علمًا بأن بحوث علم النفس والمجتمع ليست علمًا بالمعنى الدقيق كما يتواهم كثير من المخدوعين بها ، وجل ما توصى به أنها فروض علمية بمحاذير مفترضوها أن يعلموا بها بعض الظواهر النفسية والاجتماعية ، ولو عرف هؤلاء المخدوعون ما تتعرض له من تغير دائم لعلموا أن من المحاذفة الخطرة الهدامة أن ترك نصوص الدين الثابتة المسلمة إلى هذه الفروض المتغيرة التي ينقض بعضها بعضاً وكل سند لهؤلاء هو الغنون ، الذي لا يعني من الحق شيئاً »^(١) .

ولا يعني هذا أن ندير ظهرنا لما ثبت من حقائق علمية في هذه الحالات شريطة أن توجه ضمن قيمتنا ومثلنا الشرعية الإسلامية .

وقد تأثر الشرق العربي والإسلامي بعوامل المدح والانهيار .. واهتزت القيم العليا بعد الغزو الفكري والعقدي المركّز .. وما وجدنا عصرًا تبعجه فيه الناس باللحاد الصريح كهذا العصر .

فقد تأسست أحزاب علمانية تجافي الدين ، وأخرى يسارية تحارب المعتقدات الدينية . أو قومية وثنية . ومعظمها يجمع على عدم تطبيق شرع الله في السياسة أو الأخلاق والاقتصاد ، بل وسائر شؤون الأسرة والمجتمع .

(١) حصوننا مهددة من داخلها : د. محمد محمد حسين رحمه الله ص ٤٨ ، الطبعة الخامسة ، المكتب الإسلامي ١٣٩٨ هـ

حتى أن حرية الإلحاد أصبحت مكفولة في معظم قوانين العالم الجديد.

ومن هنا يتجرأ كاتب ملحد ليقول في مجلة رسمية في قطر عربى : « إن الله والأديان والأنبياء ، ما هي إلا دمى محنطة في متحف التاريخ » .

وينعى شاعر الكفر قائلاً: ^(١)

سلام على كفر يُوحَّد بيتنا وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

هذه السمة ، سمة العَبَث بالمفهومات الدينية العليا والاستخفاف بمقام الألوهية ، ونشر الصور والعبارات التي تُهُوّن من شأنها ، وتطاول في وقاحة كبيرة عليها من أبرز سمات الجاهلية المعاصرة

وقد ظهرت أعمال أدبية كثيرة تعبّث بالقيم الخلائقية الإسلامية عبّثًا شديداً، وتصور العفن والهبوط والنزوات الجنسية الخرمة ، على أنها عواطف إنسانية رقيقة جديرة بالاهتمام .

انظر إلى سوء الأدب في تصوير مقام الألوهية :
لو مرة عرفت يا إلهي الكسيع « كيف الزنا يصير
« بلند الحيدري الطلاق »

« أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مَا يَقُولُونَ »

وإلى قول الآخر :

فتحن جميعاً أموات أنا محمد والله
هذا قبرنا أنقاوص مئذنة معفرة عليها يكتب اسم محمد والله
على كسر مبعة من الأجر والفارخار
«بدر شاكر السياب : في المغرب العربي»

(١) الشاعر القرى « عبد الواحدة »

هذا كفر صريح ، ووقاحة عجيبة ، ما وصلت إليها جاهلية قط .. وينشر ذلك في دواوين توزع في ديار المسلمين !!
وفي رفض مفهوم الشريعة الإسلامية يقول زنديقهم :

إن الخلود وما تروى مزاعمهم عن السعادة في الأخرى نقىضان
لا يخدع الله قوماً يؤمنون به فتلك خدعة إنسان لإنسان
« بدوى الجبل : أطل من حرم الرؤيا »

حتى أن الرموز النصرانية غزت الشعر في بلادنا المسلمة يقول صلاح عبد الصبور في قصيده : « الظل والصلب »
أنا الذي أحيا بلا ظل بلا صليب
الظل يسرق السعادة
ومن يعش بظله يمشي إلى الصليب في نهاية الطريق
ويقول آخر :

أقسمت يا جائزى الجديدة
أن أحمل الصليب
أن أطأ اللھیب

لقد أفسد هذا الشعر بيوتاً كثيرة من المجتمعات بلاد المسلمين ، وغزا العقائد والأخلاق ، وقد لقى هذا الأدب الرخيص التحريف تشجيعاً من بعض أجهزة الإعلام في عدد من البلاد العربية^(١) .

(١) انظر مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي : د. عبد الباسط بدر دار المنارة للنشر - جدة

ألم تر أخي القارئ :
كيف ذر الإلحاد بقرنه ، وفسدت التصورات وغاب الحياء ،
وأعلنت الرذيلة ، وأين ١٩ في البلاد التي نشرت الفضيلة بعد التوحيد في
أرجاء المعمورة .

ولا غرابة فهذه هي مقومات الجاهلية في كل عصر وفي أي مكان !
إلا أن الأمل كبير في دعاه هذا الدين ، ومن خلال شباب الصحوة
الإسلامية المباركة .. مما يستدعي مضاعفة الجهود ، ومحاربة الغزو
الفكري ، ب التربية عقدية أخلاقية تعيد إلى المعمورة أخلاقها ودينها وليس ذلك
على الله يبعيد .

٢ - سيادة الأخلاق النفعية

بعد أن اضمر محل أثر الإيمان في النفوس ، استمد الناس قيمهم في التعامل من الهوى والمصلحة الشخصية .

« أصبحت الأخلاق الحديثة تستمد من القيم المادية النفعية تجذبها ميكافيلية صريحة ، وأضحى التعامل الاجتماعي قائماً على رابطة المصلحة وحدها ، على الأخلاق التجارية . لقد كفرت أوروبا بالدين والأخلاق ، ونبذ المجتمع كل مقوماته المستمدة من هذين الاتجاهين^(١) .

ولأنه لأمر مؤلم أن تسود النفعية كثيراً من مجتمعاتنا المسلمة في العصر الحاضر ، فبعد أن كان الإخلاص والأمانة والصدق والإيثار ، من أهم خصائص أخلاق المسلمين إذا بالغش والكذب ، والأنانية والخيانة تحل محل تلك الفضائل عند كثير من الناس ، ومن هنا باتت الشكوى مريرة والانهيار خطيراً .

لقد غزت فلسفة الغربين مجتمعاتنا الشرقية ، ويرى أصحاب هذه الفلسفة النفعية أن السعادة الحقة هي التي يشعر بها الإنسان نتيجة لإشباع دوافعه الطبيعية وغرائزه الحسية .. دون التقيد بدين أو خلق قويم .

وقد تطور هذا الاتجاه النفعي لدى القوم ، وأخذ صوراً مختلفة يمكن إيجازها في ثلاثة مذاهب^(٢) :

(١) العلمانية : د. سفر الحوالى ص ٤١٠ .

(٢) انظر الاتجاه النفعي : من كتاب الاتجاه الأخلاق في الإسلام ، د. مقداد بالحن (ص

. ٣٩-٣٧

الأول : مذهب المنفعة الشخصية وله صورتان :

صورة دعا إليها أحد تلامذة سقراط « أرسبيوس » وقد فسر السعادة عند سقراط باللذات العاجلة بدلاً من الآجلة ، ونشدوا إشباع الدوافع في حينها ، وأوصوا بعدم تأخيرها ، لأن ذلك يؤدي إلى الشعور بالحرمان والكآبة ، فلا حياء ولا خجل (عندهم) في طلب اللذات في أية صورة كانت ، وبأية طريقة تيسر .

ويعتبرون أن السلوك الذي يحقق هذه السعادة سلوك أخلاق .

وصورة أخرى لهذا المذهب : هي الفردية التي دعا إليها « هوبرز » ، ومن سلك مسلكه .

فقد ادعى أن الطبيعة الإنسانية طبيعة أنانية تعمل لمصلحة الذات ، وقد اخترع الإنسان المبادئ الأخلاقية ليتخدّها وسيلة يحقق فيها منفعته الشخصية .

ومن هنا يرى أن الأخلاق ما هي إلا وسيلة لتحقيق المنفعة وليس طبيعة في الإنسان .

المذهب الثاني : مذهب المنفعة العامة

قال أصحابه : على الإنسان أن ينشد منفعة البشر عامة حتى الحيوانات ، واعتبروا أن إقرار المنفعة غاية للأفعال الإنسانية ، ومعيار للأخلاق ، وتقاس أخلاقية الفعل بنتائجها لا ببوعتها .

المذهب الثالث : مذهب المنفعة العملية « المذهب البراغماتي » ويتمثل جون ديوي ، ويتم البراغماتي عادة بالنجاح العملي ، بما له من قيمة معنوية .

وأرجع ديوى المثل الأخلاقية إلى نتائج الظروف الواقعية للإنسان ، فهى ليست مبادىء مطلقة ثابتة يضعها الفلاسفة كأنها ليست من وضع المجتمع ، ولا من وضع السماء .

ثم أنكر أن تكون للأخلاق غاية عليا سامية وثابتة ، وأن لها مبادىء مطلقة لا تقبل التغير ، ذلك لأن الحياة متغيرة^(١) .

لقد سيطرت هذه الفلسفة بذاتها المختلفة على أخلاق أوروبا بقسمها الغربى والشرقى ، فاهترت الأخلاق لديهم بعد أن أبعدوا عنصر الإيمان بالله ، والقيم العليا المستمدة من الدين ، وسيطرت المنفعة والأمانة ، وتحول الناس إلى ذئاب بشرية .. ومن ثم طفت الروح الرومانية والفلسفة الإغريقية على أوروبا من جديد .

« لقد سيطرت الروح الرومانية ، وكانت نفعية من ناحية وأمانة من ناحية ، ومن هذين الانحرافين في الجاهلية الرومانية القديمة ، حدث الانحراف في الرصيد الذى تبقى من الأخلاق في الجاهلية الحديثة « في أوروبا » فصارت نفعية وصارت أمانة .

إن الصدق والأمانة والإخلاص والاستقامة .. الخ فضائل ولكنها يمكن أن تتم على مستويات مختلفة عند القوم وليس صورة واحدة مفردة .

كان يمكن أن تتم على مستوى إنساني ، وهذا هو الخلائق بها .. ويمكن أن تتم على مستوى قومى ، أى لا تطبق إلا في حدود هذه القومية .. بعد أن فقدت هذه الفضائل رصيدها ودوافعها .. وانقلبت أمانة تسرق وتنهب وتغش وتخادع ، ولا تبالي أن تصنع ذلك كله ، ولا تتأثم ولا تتحرج ، لأنها لا تقوم على ركيزة إنسانية حقيقة .

(١) تجديد الفلسفة : جون ديوى ص ٢٧٣

وهي تطبق داخل حدود القومية على أساس ما تحمله من النفع لحامليها ،
وبطل إذا بطلت المنفعة القرية أو البعيدة ، والتي هي - في هذه الحالة -
تمثل الرصيد الوحيد المتبقى لهذه الأخلاق «^(١)».

لقد جرئت هذه الفلسفة الأهوال على بلاد المسلمين في عالم السياسة
خاصة .

«إذ ماتزال الروح الرومانية القديمة ، والتي تمثل في القانون
الروماني الشهير الذي يمنع العدالة للروماني فقط ، ويحرم منها الآخرين .
إنها ذات الروح الأنانية التي سبّطرت على أخلاق أوربا في جاهليتها
الحديثة .. فالموايثيق تعقد وتوثق وفي لحظة غادرة تنقض وتتصبح حبراً على
ورق ، مجرد أن تلوح المصلحة القومية في نقض الميثاق .

ويمر الناس بهذا الأمر مستخفين غير مبالين ، لأن النظرية الجميلة
شيء ، والتطبيق شيء آخر بموجب فلسفة الجاهلية اليونانية .

وحين تتعامل التجارة الدولية بأمانة فائقة نادرة المثال خارج حدود
القومية فهي ليست الأخلاق ، وإنما بسبب ما تحنيه من منفعة »^(٢).

ورغم ذلك كله فقد فتن بعض المسلمين في القرن الحالي بمحضارة
أوربا ، وظنوا أنها ذات ركيائز تصلح لأن يقتدى بها ، ولم يميز كثير منهم بين
التقدم المادي والخلف العقدي والأخلاق .. فتناوا ببعض ما يبدو من صدق
وأمانة حيناً ، لأنها عند القوم تؤمن لهم ثقة وتوفر بعض الوقت ، إلا أن
أخلاقيهم هذه ستتغير إذا لاحت منفعة أشد ، وأنانية أقوى .

(٢-١) جامالية القرن العشرين : الأستاذ محمد قطب « يتصرف بغير » الصفحات :

. ١٥٩-١٦٠، ١٦١-١٦٢ (١٩٦٠-١٩٦١).

« فُنَّ النَّاسُ بِقَضِيَّةِ الْأَخْلَاقِ فِي الْغَرْبِ حِينَ رَأَوُا أَنَّ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ صَامِدَةٌ رَّاسِخَةٌ لَا تَتَأْثِيرُ بِفَسَادِ السِّيَاسَةِ وَالْإِقْتَصَادِ وَالجِنْسِ ، وَغَابَتْ عَنْهُمْ فِي الْوَقْتِ ذَاهِهٌ دَلَالَةُ الْأَنَانِيَّةِ وَالنُّفُعَيَّةِ فِي هَذِهِ الْأَخْلَاقِ ، فَحَسِبُوا أَنَّ الْأَخْلَاقِ يُكَنُّ أَنْ تَنْفَصُلُ عَنْ مَعْنَى الدِّينِ ، وَتَظَلُّ حَيَّةً فَاعِلَّةً فِي وَاقِعِ الْأَرْضِ »^(١) .

فِي الْأَخْلَاقِ النُّفُعَيَّةِ سِمَّةٌ بَارِزَةٌ مِّنْ سَماتِ الْجَاهْلِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ ، بَيْنَ كَانَ لِلْعَرَبِ فِي جَاهْلِيَّتِهِمْ بَعْضُ التَّرْفَعِ وَالْإِيْثَارِ وَالْغَيْرِيَّةِ .. كَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ وَنَجْدَةِ الْصَّرْبَعِ وَالْدَّبَّ عَنْ حَرَمَاتِ الْجَيْرَانِ .

وَفِي إِسْلَامِ « الْغَايَةِ لَا تَبْرُرُ الْوَسِيلَةَ » : لَأَنَّهُ يُشْتَرِطُ أَنْ تَكُونَ الْوَسِيلَاتُ الْأَخْلَاقِيَّةُ سَامِيَّةً كَالْغَایَاتِ تَمَامًا .

وَهَذَا قَالَ الْأَصْوَلِيُّونَ : الْغَايَةُ لَا تَبْرُرُ الْوَسِيلَةَ ، وَاخْتَدُوا ذَلِكَ قَاعِدَةً تَشْرِيعِيَّةً مُسْتَدِلِّينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَعَاهِدُهَا الَّذِينَ آمَنُوا آتَقُوا اللَّهَ وَآتَبَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾^(٢) .

فَالْآيَةُ تَرْسِمُ طَرَيقَيِّنَ لِلْفَلَاحِ ، أَوْ طَرَيقَيِّنَ وَاحِدَّاً لِهِ جَانِبَيِّنَ الْأُولَى : اتِّقاءُ اللَّهِ بِتَرْكِ الْحَرَمَاتِ .

وَالثَّانِي : التَّقْرِبُ إِلَيْهِ بِالْوَسِيلَاتِ ، وَهِيَ أَدَاءُ الْوَاجِبَاتِ ، وَالْتِمْسِكُ بِالْقِيمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ ، وَلَا يَكُنُ التَّقْرِبُ إِلَيْهِ بِالْحَرَمَاتِ^(٣) .

« بَيْنَا كَانَ الْإِسْتِعْمَارُ يَتَوَسَّلُ بِكُلِّ سَفَلَاتِ الْأَرْضِ وَدُنَيَاَتِهَا لِيُوْطِدَ سُلْطَانَهُ ، وَيَمْتَصُّ دَمَاءَ النَّاسِ ، وَلَا يَرَى فِي ذَلِكَ أَخْرَافًا ! فَالْغَايَةُ تَبْرُرُ الْوَسِيلَةَ ، وَلَا يَبْهُمُ عَنْهُمْ أَنْ تَكُونَ الْغَايَةُ ذَاتَهَا نَظِيفَةً »^(٤) .

(١) جاهليّة القرن العشرين : ص ١٦٣ .

(٢) المائدة : ٣٥ .

(٣) الاتجاه الأخلاقي في الإسلام : مقداد بالجن ص ٢٩٦-٢٩٧ .

(٤) جاهليّة القرن العشرين : ص ١٥٣ .

وهذا ما يشير إليه الشاعر العربي إذ يقول :

قتل امرٍءٍ في غابة جريمة لا تُغافل
قتل شفيف آمن مسألة فيها نظر

قتل فرد مستعمر ولو اعتدى وظلّم جريمة تقوم لها دنيا الظالمين ولا
تُنْقَد ، وسخّنَّ شعب مظلوم آمن بِكامله مسألة قابلة للنقاش ، حتى في
أكبر المؤسسات الدولية من مجلس الأمن إلى هيئة الأمم .

وَمَا يُؤكِّد هذه السياسة النفعية لدى الدول الحديثة ما جاء في
البروتوكولات : « إن السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شيء ، والحاكم المقيد
بِالأخلاقي ليس بسياسي بارع ، وهو لذلك غير راسخ على عرشه »^(١) .

هذه الأخلاق هي السائدة دولياً مع الأسف ، وفي القوانين المرعية
لدى أكثر الأمم .

إن النفعيين والاتهاريين ، من أهم أسباب خراب المؤسسات التجارية
والتربيوية والدعوية . بل إنّ منهم من كان من أهم عوامل سقوط بعض
الدول ... والعاقل من انعظ بغيره ، وإلا فإن التاريخ يهدى الغافلين بكثير من
شواهده وعبره .

خاصة وإن ظاهرة التسلل النفعي باتت في هذا العصر شديدة جشعة
وفتاكة .

(١) البرونو كول الأول : ص ٣٢ (الطبعة الثانية) .

٣ - القلق والمحيرة والاضطراب

عرفنا أن شيوخ الحجارة والتآلف ، واستتباب الأمان والاطمئنان من أبرز سمات المجتمعات الإسلامية .

أما المجتمعات الجاهلية فإن القلق والمحيرة بل وشيوخ الخوف والفرز تعتبر من أهم مميزاتها ، بعد أن فقدت عنصر الإيمان بالله من التفوس ، وأخضعت القيم الأخلاقية إلى مقاييس البشر ، رغم التقدم التكنولوجي وانتشار الرفاهية بين الناس .

« ذلك أن المسلم الخلق قوى الإرادة متوحد الذات يسير في طريق واحد ويسعى لتحقيق غاية واحدة .

أما الشخص غير الأخلاق ، فتتباه نوازع متابينة ، وتنزق ذاته بين الاتجاهات المختلفة ، ويصبح أخيراً صحيحة الصراع النفسي . وشتان بين هذا وذلك ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿أَفَنَيَّتَشِيَّ مُكْبَأَ عَلَيْهِ وَجْهُهُ بِآهَدَى أَمَّنْ يَّمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾^(١) (سورة الملك : ٢٢) .

لقد أهلت المجتمعات الحديثة قضية التوجيه الأخلاق في التربية بالغ علم النفس الغربي في تصوير الانحرافات التي تنشأ عن شدة الضبط ، حتى كاد يوحى بأن الضبط ذاته عملية ضارة لا ينبغي القيام بها ، وأن الأطفال لا ينبغي أن يُوجهُوا خوفاً من العقد النفسية التي يمكن أن تصيبهم ، وإنما

(١) الاتجاه الأخلاق في الإسلام : مقداد بالحن ص ٣٢٤ .

يقتصر التوجيه إذا لزم الأمر من بعيد جدًا وعلى حذر .. فخروج على ضوء هذا العلم جيل مائع رخو متخلل هو ما نشاهد الآن^(١).

ومن الواضح أن انتشار الانحلال الأخلاقي في المجتمع مثل : الكذب والبغض والمحاباة والرشوة والأنانية والرذيلة .. يجعل الحياة الاجتماعية عادة جحيمًا لا يطاق ، إذ تزول منها كل بهجة ، وتض محل المودة والأمن والاطمئنان ، ويسود بدها البغض والكراءة وتكثر حوادث السطو والاختطاف والجريمة وهو ما تشير إلى زيادتها الاحصائيات في ديار الغرب .

وفي مثل هذه الأجواء يكره الفرد الناس من حوله ولا يجد لذة في الحياة ، بل يرى أنها تحولت إلى جحيم لا يطاق . وإن مثل هذه البيئة الفاسدة إضافة لما تنشره من آلام وقلق ستجعل التربية الأخلاقية أمرًا بالغ الصعوبة ، بسبب كثرة المغريات الفاسدة ، ولا يمكن أن تؤدي في نهاية المطاف إلى الغاية المرجوة من تربية أخلاقية بناءة^(٢) .

وقد ساهمت مخططات حكماء صهيون في إشاعة الفوضى والآلام لدى البشرية المنكحة ، ليسهل على اليهود قيادها في نهاية المطاف .

زيروا لها شعارات خادعة « وزينوا للجمعـوعـ الهائـجهـ التـىـ وـعـدتـ بالـحرـيةـ ، وـدخلـتـ فـىـ القـيدـ اليـهـودـىـ ، أـنـ تـطلـبـ بـعـرـيةـ المـمارـسـاتـ الشـاذـةـ وـالـإـدـمانـ عـلـىـ الـخـمـورـ ، وـشـكـلـتـ لـهـ جـمـعـيـاتـ تـنـظـمـ أـمـورـهـمـ وـتـرـعـىـ شـؤـونـهـمـ »^(٣) .

اهتمت مخططات الصهاينة بتدمير الأخلاق لإشاعة الفوضى والذهول في مجتمعات محطمة ، معتمدين على دراسات علمية خبيثة .

(١) دراسات في النفس الإنسانية : محمد قصب ص ٣٢٤ .

(٢) التربية الأخلاقية الإسلامية : بالحن ص ٥٠٤ .

(٣) بروتوكولات حكماء صهيون : ترجمة محمد خليفة التونسي - الطبعة الثانية .

جاء في البروتوكول الثاني : « لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء ، ولاحظوا هنا أن نجاح دارون وماركس ونيتشة ، قد رتبناه من قبل ، وإن الأثر غير الأخلاق لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأنمي « غير اليهودي » ، سيكون واضحًا لنا على التأكيد .

وعلينا أن ندرس أخلاق الأمة وميوها !! وسيكون نجاح نظرتنا في موافقها لأمزجة الأمم التي تتصل بها »^(١) .

و حول تحطيم أخلاق الأمم وتغييرها كليًا تقول البروتوكولات : « عليكم أن توجهوا التفاتًا خاصًا في استعمال مبادئنا إلى الأخلاق الخاصة بالأمة التي أنت بها محاطون وفيها تعملون .

ولكنكم إذا تصرفتم بسذاجة في استعمال مبادئنا فستكتشفون أنه قبل مضى عشر سنوات سيتغير أشد الأخلاق تماسكًا وسنضيف كذلك أمة أخرى إلى مراتب تلك الأمم التي خضعت لنا من قبل »^(٢) .

أما الأسرة فقد دمروا روابطها : « فإذا أوحينا إلى عقل كل فرد فكرة أهميته الذاتية ، فسوف ندمر الحياة الأسرية بين الأنبياء ، وتفسد أهميتها ، وسننزع الرجال ذوى العقول الحصيفة عن الوصول إلى الصدارة »^(٣) .

كيف يكون الاستقرار وقد تزرت أواصر الأسرة ، وتحطمت القيم والمثل العليا ، وبرزت المصالح الفعية والأنانية القاتلة ؟! كيف لا يكون القلق النفسي وتأنيب الضمير ووسائل الإعلام تطفع بنشر القيم الهابغة وتشجع الرذيلة والتهتك والجريمة بشكل أو باخر ؟!

(١) بروتوكولات حكماء صهيون : الثاني ص ١١٣-١١٤ .

(٢) البروتوكول التاسع : ص ١٦٧ .

(٣) البروتوكولات ص ١٣٦ .

يقول سير رتشرد لفنجستون : « إن كل شريط سينمائي وكل دورية وكل صحيفة وكل صفحة إعلانات ، وكل رصيف من أرصفة السكك الحديدية معلمٌ يخوّي درساً فاسداً » .

ويقول : « وفي هذا العجیب الصاحب تختنق الأصوات الحافحة التي تهمس بتحکیم العقل ووزن القيم بمیزانها الصحيح ، بل ويصم الإنسان أذنيه عن سماع نداء الذوق الفطن »^(۱) .

الواقع المريء لعالمنا المعاصر :

إن انتشار أسلحة الحراب والدمار وقيام حربين عالميتين ، وتسابق العالم لدمار حرب ثالثة ، وما يجري الآن من حروب مدمرة هنا وهناك .. لأدلة على زيادة الهم و الخوف ، وسيادة شریعة الغاب ، مع اضطراب القيم والموازين .

لقد انهارت فرنسا في الحرب العامة بعد أن خشيّت على مراقص باريس ومواخيرها من قنابل الألغام فسلمت في أسبوعين .

وقرر كندي في تصريحه الخطير ۱۹۶۲ م ، أن مستقبل أمريكا في خطر لأن شبابها مائع منحل غارق في الشهوات لا يقدر المسؤولية الملقاة على عاته .

وصرح خروشوف ۱۹۶۲ م كذلك أن مستقبل روسيا في خطر وأن شبابها لا يؤمن على مستقبلها لأنه مائع منحل غارق في الشهوات .

وفي دول شمال أوروبا ، أرق بلاد العالم لديهم !! الشباب فيها تائه يدخن الحشيش والأفيون ، وينفق طاقته الحية في هذا الخبل الجنون ..

(۱) التربية لعالم حائز : ص ۱۴۰-۱۴۱ ، نقلًا عن التربية الأخلاقية الإسلامية . مقداد بالجن .

والعصابات التي تتألف للخطف والاغتصاب الجنسي تقلق أمن الدولة وأمن علماء الاجتماع ، وذلك كله في مجال واحد هو مجال الجنس^(١) .

هذا هو التيه والضياع الذي تعانيه بشرية القرن العشرين .. وهذه هي المعيشة الضئيلة لدى المجتمع الغربي المعاصر .

أما المجتمع الشيوعي : فالأمر فيه أذهبى وأمّر ، نقل إلينا سائحة سويسرى ما شهدته في بلاد العالم الشيوعى من فقر وآلام وفساد يقول : « لقد تحطمت القيم الأخلاقية في أكثر بلاد العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكن الفرق بين حالة البلاد الشيوعية والبلاد الأخرى أن الحكومات الشيوعية هي التي تسعى إلى إفساد الأخلاق ، وتحث عليه ، كما أن أوضاع الناس وفقرهم ، ونظام حياتهم الذي فرضته عليهم الشيوعية . كل ذلك يدعوا إلى إفساد الأخلاق وتشجيعه فماذا يتضرر المجتمع من أناس تخسر الأسرة كلها : الأب والأم والفتيات والفتىان ، الكبار والصغار في غرفة واحدة هي غرفة نومهم وجلوسهم ومطبخهم . »

وقد أوجد الشيوعيون في أمميات المدن أماكن خاصة للفساد ، ولست أقصد بيوت الدعارة بل أقصد بذلك تلك الحدائق الواسعة ذات الخمائل الوارفة التي يتوارى فيها الفجار عن أعين الناس ، أو يرتكبون الفاحشة على أعين الناس بلا حرج ولا مبالغة .. أو هي شوارع ترك بلا نور ليلاً تسهيل الدعارة »^(٢) .

(١) جاهلية القرن العشرين : (ص ١٦٤-١٦٥) بتصرف بسير .

(٢) عائد من الجحيم : أنظران دومازة ، ١٩٧٢ م ص ٥٦ وما بعدها .

« هذا التفسخ الفظيع والشقاء المريع الذى تعانى منه أوروبا اللادينية بشقيها الرأسمالى والشىوعى هو النتيجة الطبيعية ، والعقوبة العاجلة لکفرها بالله وتنكرها لدینه ، والاحتکام إلى أهواء البشر ، وتحزّصات المضللين . وإنه لمن سنن الله في خلقه أنه إن لم تعد إلى الله ، وتتمسک بهداه ، فإن المستقبل سيكون أمراً وائناً »^(١) .

هذا ما توصل إليه العالم المتحضر كما يزعمون ، ليتشر الشاؤم والأسى ، وتكبر حالات الاتھار أو التردد على العيادات النفسية ، ومستشفيات الأمراض العقلية .. وما يرافق ذلك من هلع وفزع ونبرم ، أصبح سمة هذا العصر ، ولا ينجو من هذا الوباء إلا منْ أَنْعَمَ الله عليه بنعمة الإيمان والاطمئنان .

خداع وإيهام : ورغم كل الدلائل على شقاء الناس في المجتمعات الجاهلية ما يزال بريق هذا العالم الغری يسيطر على بعض الناس في بلادنا ، ولعل ما يخدعهم هو وجود بعض الخير هنا وهناك .

ولكن وجود هذا الخير المتناثر لا ينفي عن الجاهلية اخراجها .. وقد كانت الجاهلية العربية حافلة بألوان من الفضائل كالشجاعة والعنفة وإباء الضيّم ، ولكن هذه الفضائل ذاتها كانت تُحرِف عن طرقها القوم لأن القصد منها كان غالباً ليتحدث بها الركبان .

والجاهلية الأوربية حافلة بألوان من الفضائل في مجال التعامل الفردى كالصدق والإخلاص في العمل ، أو الأمانة ونظافة التعامل ، ولكن بعدها عن منهج الله تُحرِف عن طرقها القوم فتحول إلى فضائل نفعية لأنها في

(١) العلمانية : سفر الحوالى ص ٤٤٩ .

مجموعتها نافعة في التعامل ، أما حين تفقد نفعها تصبح في نظره حماقة « مثالية ، لا تستحق الاتباع »^(١) .

« وهكذا يحيط الناس في أحاسيسهم وأفكارهم ، يحيطون إلى عالم الصراع البغيض .. إلى نزوات الجسد ، وضرورات الغريرة »^(٢) .

وتأنق الضرورة الختامية لعودة الناس إلى العقيدة ، ففيها تؤدي الفسحة الندية في حياة البشرية ، ويشرق الأمل في حياة هائمة يحققون فيه آمالهم ، بعد إتاحة الفرصة لشاعر الحب والمودة ، والتزود من تعاليم الشريعة الإسلامية بغير زاد .

(١) انظر جاهلية القرن العشرين : (ص ١٤٩-١٥٠) .

(٢) شهادات حول الإسلام : محمد قطب ص ١٢-١٣ .

٤ - السُّعَادُ الْجِنْسِيُّ وَالتَّهْكُمُ الْأَخْلَاقِيُّ

حاول الناس أن يُنقُسُوا عن مأساتهم النفسية بالهروب إلى الجنس والخمور والموبقات .. ولكن دون جدوى .

لقد تميز هذا القرن بالفوضى الجنسية بشكل لم يسبق إليه خلل المماهيليات القديمة .

وَمَا هِيَ أَجْهَزَةُ الْإِعْلَامِ تَعَاونُ عَلَى تَحْطِيمِ الْحَوَاجِزِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَعَلَى إِفْسَادِ الضَّوَابِطِ الْفَطَرِيَّةِ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، بَلْ عَلَى تَزْينِ الشَّهَوَاتِ الْبَهِيمِيَّةِ ، وَتَوْهِينِ ضَوَابِطِ الْأُسْرَةِ ، وَضَوَابِطِ الْمُجَمْعِ وَرِقَابَتِهِ ، وَعَلَى تَمجِيدِ الْغُرْيِ الْعَاطِفِيِّ وَالْجَسَدِيِّ وَالْتَّعبِيرِيِّ .

وَمِنْ ثُمَّ ساهمَتِ الْأَفْلَامُ الْهَابِطَةُ فِي تَلْوِيَثِ شَرْقَنَا الْمَحَافِظَ ، لَتَنْتَزَعَ مِنْ الْفَتَاهِ الْمُسْلِمَةِ أَخْلَاقَهَا وَحِيَاهَا الْفَطَرِيِّ .

ثُمَّ شَارَكَتِ الْأَفْلَامُ الْخَلِيلِيَّةُ وَالْمُسْلِسَلَاتُ الْخَبِيثَةُ فِي إِشَاعَةِ الرَّذِيلَةِ وَإِثَارَةِ مُشَاعِرِ الْجِنْسِ^(١) .

وَمِمَّا ذَكَرْنَا عَنْ رِذَائِلِ الْجَاهِلِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ قَبْلِ الْإِسْلَامِ فَلَنْ تَصُلَّ إِلَى هَذَا التَّنْحِيرِ الْهَابِطِ وَالْمُسْتَقْعِدِ الْآسِنِ فَالْخَلَاعَةُ وَالْمَحَانَةُ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ لَمْ تَكُنْ مَحْلًا اِتْفَاقَ عَنْدَ أُولَئِكَ النَّاسِ ، فَقَدْ كَانَتْ مُسْتَهْجِنَةً عَنْدَ بَعْضِهِمْ عَلَى الْأَقْلَمِ .

(١) انظر : المخون والاستهثار في حضارة القرن العشرين في « الفصل الثاني » ص ٢١٣ من مذا الكتاب .

فالزنا في الجاهلية كان يُرتكب سراً ، إلا أنهم يكرهون علانية . ومن هنا جاء في الآية الكريمة :

﴿ وَلَا تَنْقِرُ بُوَالْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ (الأنعام : ١٥١) .

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : كانوا يكرهون الزنا علانية وي فعلون ذلك سراً ، فنهى الله عن الزنا علانية وسراً^(١) .

أما الآن فربى الناس في الجاهلية الغربية خاصة قد تجاوزوا كل فضيلة سراً وإعلاناً ، بل لم تعد حاجة إلى السر وفاسقهم رسول يقول : « إن الفضيلة التي تستند إلى الجهل لا قيمة لها ، وأن الفتيات هن نفس الحق في المعرفة الجنسية كالفتيا »^(٢) .

« وظل سعار الجنس هذا يزداد حتى وصل انبعاث الأخلاق والاستهانة بالعنفة إلى حد أن أصبح الأميركيون يعتقدون أن بقاء البنت عذراء قد يسبب لها الإصابة بمرض السرطان ، لذلك فهم يتخلصون من العذرية بسرعة »^(٣) .

لقد تحررت المرأة وتعرت في ذات الوقت ، وفقدت في الغرب المتحضر حياءها الجنسي ، وصارت تعمل علانية على إغراء الرجل ودعوته بشتى الوسائل ليقضي معها دافع الجنس ... إلا أن الرجل في أمريكا المتحررة أو أوروبا المفسحة ، صار هو الذي يتذلل ، والأنتى هي التي تجري وراءه وترتمي في أحضانه لأنه انصرف عنها حين ابتذلت نفسها له وخلعت حياءها الفطري ..

(١) التفسير الكبير للفارخر الرازي : ١٤ / ٢٣٣ ، الطبعة الهيئة المصرية - القاهرة .

(٢) العلمانية : سفر الحوال ص ٤٢٢ .

(٣) مجلة الدعوة المصرية العدد : ٢٦ - عام ١٣٩٨ هـ نقلأً عن كتاب العلمانية .

صارت الفتاة في حلبات الرقص هناك تنوّد وتتظرف لتحصل على رقصة مع شاب ، فإذا أخفقت كل محاولات الإثارة والإغراء ، انكفت تبكي في مرارة علناً في الموقف لأنها لم تnel أحد الشبان !^(١)

وبينما كانت تلك المجتمعات تنحدر نحو الغواية والأحوال إذا برض الأيديز ، ذلك الشبح الخيف ، يفتّك بأصحاب الممارسات الجنسية المنحرفة ، أو الشذوذ الجنسي المقيت .

الشذوذ الجنسي :

ذكرت بعض الإحصائيات أن عشرين مليوناً من المجتمع الأمريكي يمارسون الشذوذ بصفة تنظيمية علنية .

ونشرت بعض الصحف « أن وفداً يبلغ تعداده عشرين شخصاً يمثلون منظمات اللواطنة والسحاقي في الولايات المتحدة قاموا بمقابلة مساعدة الرئيس كارتر للمطالبة بحق حرية العمل في المؤسسات العسكرية ، وللسماح بمزيد من اللواطنة في مكتب التحقيقات الفدرالي ووكانة الاستخبارات ووزارة الخارجية ، ومنع صفة معفى من الضرائب لمنظمائهم .. »^(٢) .

وأسرأً من هذا أن طالب البرلمانات دول الشمال « اسكندنافية » باعتبار عقد الرجل على الرجل عقداً قانونياً مشروعاً يقام في الكنيسة ، بل لقد تم عقد فعلى في إحدى الكنائس بولاية كاليفورنيا «^(٣) .

(١) دراسات في النفس الإنسانية : محمد قطب ص ٣٥٠ .

(٢) مجلة المجتمع : العدد ٣٥٠ ، نقلأً عن العلمانية .

(٣) مجلة الدعوة المصرية : العدد ٢٦ سنة ١٣٩٨ هـ نقلأً عن كتاب العلمانية : سفر

دور اليهود :

بعد أن أفسد اليهود أوربا هاهم الآن يحاولون أن يفسدوا بقية العالم .

نشروا الرذيلة وسلكوا في سبيل نشرها كل مسلك . تقول بروتوكولات حكماء صهيون : « يجب أن نعمل لتهار الأخلاق في كل مكان .. إن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس كى لا يقى في نظر الشباب شيء مقدس .. » .

« ماركس منا ويقول : إن العفة الجنسية من فضائل المجتمع الإقطاعى البائد .

ومن هنا فقد تحول وجه الأرض إلى ماخور يغفر فاه لكل فتى وفتاة »^(١) .

لقد سابق اليهود الشيطان في نشر الفاحشة : « وإن زنا اليهودية مع أمى مباح ، وكذلك زنا اليهودي بالأمية ، أما زنا اليهودي باليهودية حرام . كما يقول فيلسوفهم وربانيهم الكبير موسى بن ميمون لأن الأمية كالبيمة »^(٢) .

حتى أن كتبهم الدينية المحرفة تمتليء بالافتراءات القبيحة : « كيف أصفح لك .. بنوك تركوني .. ولما أشبعتهم صنهلوا كل واحد على امرأة صاحبه » سفر أرميا : ٧-٥ .

ويعتبر اليهود أن المرأة من الأسلحة الفتاكـة لتطبيق سياسـتهم الصهـونـية : « فـفى دـوـاـئـر وزـارـة الـخـارـجـية الـأـمـرـيـكـية مـلـف سـرـى يـحـتـوى عـلـى

(١) جامـلة القرـن العـشـرين : (١٥٦-١٥٧) .

(٢) محمد خليفة التونسي : مقدمة الطبعة الأولى من البروتوكولات .

أسماء وعنوانين أكثر من عشرين فتاة رائعة الجمال جرى اختيارهن بدقة وعناية للقيام بالترفيه عن كبار الزائرين السياسيين كل حسب حاجته وذوقه ، وشذوذه الجنسي ، ويطلق عليهم في دوائر الخارجية : « فريق الحب » .

وفي روسيا نجد أن اليهود منذ أيام القيسar هم أصحاب الحانات وأماكن الدعارة والانحلال .

وفي فلسطين المحتلة أسسوا نادياً للشواد سمي نادي « الجميلون والجميلات »^(١) .

مكذا يجب أن يفهم ذلك الترابط العميق بين النظريات اليهودية المنحرفة والأهداف الصهيونية التي تعمل على كل الجهات ، ليسهل على اليهود استلام هذه القطعان البشرية بعد أن تنهار أخلاقها وتستسلم لشهواتها^(٢) .

لقد دمرت أخلاق أوربا وها هو العالم يسير نحو الهاوية كذلك .. وبخاول بعض العقلاء عبثاً أن يعيدوا الأمور إلى نصابها بعد أن عظم الخطأ .

وشعرت بعض النساء في ديار الغرب بأنَّ ما وصلن إليه من ابتذال ما هو إلا إهانة وتختلف لبيات جنسهنَ .

(١) انظر : أثر الانحراف العقدي والفكري عند اليهود على الفكر الصهيوني المعاصر ، فصل : أثر الفكر الصهيوني في الأخلاق الحلقى - رسالة ماجستير للأستاذ عطاء الله بخيت المعايعة ص ٤٣٤-٤٥٧

(٢) خطر اليهودية العالمية على الإسلام وانسحابة ص ١٥٠ عبد الله التليل المكتب الإسلامي بيروت ط ٣ سنة ١٣٩٩ هـ .

تقول الكاتبة الإنجليزية « أني رود » :
« أيا ليت بلادنا كبلاد المسلمين حيث أن العحشمة والعفاف، والطهارة رداء
الخادمة والرقيق اللذين ينعمان بأرغد عيش ، ويعاملان معاملة أولاد البيت
ولا يمسُّ عرضهما بسوء .

نعم إنه عار على بلاد الإنجليز أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكلة
مخالطهن للرجال .. ^(١)

وسعار الجنس هذا كان مقتننا لدى القوم بشتى أنواع الموبقات وما
يزال .

فالمسكرات : لم تنتشر في عصر من عصور التاريخ كما انتشرت في
هذا العصر ، ولم تصب المجتمعات بحمى السكر علينا كما أصيّبت به في هذه
الباهلية .

لقد تفتن الناس في أشكال الخمور والمشروبات وسائر المسكرات ..
فعرفوا الأفيون والهيروبين ، والحسيش والقات وسائر أنواع المخدرات .
وكفرت الحبوب المصنعة منها ، ومن يطلع على ما تنشره الصحف
والمجلات عن كثرة ضحايا الخمور وحبوب المخدرات سهولة الأمر ولا
شك ^(٢) .

ثم تفتن الناس في إقامة المسارح الخلطلة والليالي الحمراء في الشرق
والغرب .. وهاجمت الأغنية الخليعة المتكسرة والرقصات الساقطة البيوت
والأسواق وكل مكان ، عن طريق وسائل الإعلام وأشرطة الفيديو .

(١) الإسلام روح المدينة : مصطفى الغلايني ج ٢١١ « المكتبة الأهلية » .

(٢) انظر : أحمر وانسركرات في حضارة القرن العشرين « الفصل الثاني » . ص ٢٣٧ .

ومع الأسف يسمى الساقطون والساقطات : « نجوم السينما » . أو « نجوم الفن »^(١) في لغة الحضارة الحديثة . وإن أكبر عملية تمويه قامت بها الحضارة الغربية هي محاولة تصوير الإضحاك والرقص وفنون الغُرْبِي والكشف والإباحية المتمثلة في المسرح والسينما على أنها فن رفيع وصار للفن أصوله العلمية وضوابطه الدقيقة ، فيتخرج الممثلون من جامعة متخصصة ويتقدم البعض فيها بأطروحتات دكتوراة .. كأنما هذا الفساد والتهاجم يرتفع ويرتفع حتى يصبح فتاً عالمياً على أيدي دعاته من الماسونيين والصهاينة والإباحيين فيما وراء البحر الذين يتلقفون أبناءنا ويصهرونهم في هذه البوتفقة »^(٢) .

والآن وبعد هذه الجولة في شباب الماجاهيلية التائهة وسماتها المنحرفة .. بعد القلق والمعاناة بعد الحرمان من الأمن والاستقرار .. نجد أن الشقاء النفسي والفكري والاجتماعي ، والانحلال والتنهك لم يسبق للبشرية له مثيل .. ومن هنا لابد لهذه البشرية أن تعود إلى فطرتها السوية .. لابد أن تعود إلى الله طائعة مستسلمة مُخْكَمَة شرّعه الحبيب .. وليس لها من طريق إلا ذلك الطريق .

ولابد لدعابة هذا الدين أن يتبيّأوا بهذه المخاطر وأن يشدو العزم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، فهم أمل المسلمين المنتظر ، بل أمل عالم حائر ممزق .

(١) انظر : الغباء والمعاذف في العصر الحاضر « الفصل الثاني » . ص ٢٦٢

(٢) إعادة النظر في كتابات العصر في ضوء الإسلام : أنور الجندي (ص ٦٣ - ٦٤) .

الخاتمة

الحمد لله الذي بفضله تم الصالحات ...
وحمدًا لك اللهم على نعمة الإسلام الذي خلص البشرية من أدرانها
وما يزال .

فبعد أن كان الناس في الجاهنية منازل وطبقات ، يأكل القوى فيها
الضعيف ، إذا برأية العدل والمساوة ترفرف على بنى البشر ، ليعشوا إخوة
متكاففين بالإسلام فلا ظلم ولا اضطهاد ، ولا جبروت ولا تفاوت في
الدرجات . فانناس سواسية كأسنان المشط ، لا تفاضل إلا بالتقى
والأعمال الصالحة .

وكان للعرب فضائل شتى ، ومكارم أخلاق .. من كرم وشجاعة أو
نحوه وحسن جوار ، إلى غيرة وإباء ضيئم يتصرف بها ويطبقها أفراد خيار من
أهل الجahلية .. لكن ذلك كله ذهب بذاته ، بسبب جوانب المسوء التي
أبرزها القرآن ، وهي شرك العبادة وشرك الاتباع
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِنَائِنَتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ، فَعَيْطَتْ أَغْنَانَهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ وَنَنْهَا﴾ (سورة الكهف الآية : ١٠٥)

فاستحقوا وصف الجahلية بجداره رغم وجود بعض الفضائل .

وجاء الإسلام ، فارتفع بمكارم الأخلاق تلك بعد أن جعلها خالصة
للله وحده ، وخلصها من كل ما يشوبها من حسن السمعة والرياء ، فحقق

ال المسلمين في عالم الواقع من فضائل الأخلاق ، وآداب السلوك مالم تستطع البشرية أن تتحققه ولا قريباً منه حتى الآن .

كانت مكارم الأخلاق تختلط بمساواتها في الجاهلية فاجتاحت الإسلام تلك المساوىء ، وظهر المجتمعات الإسلامية من تلك الرذائل .

إلا أن هذه القمم الشاحنة من تلك الفضائل والمكارم أخذت تتهاوى بفعل التخلف العقدي والانحراف الفكري ومن ثم أمام الغزو الجاهلي الغربي .

فاهتزت عندها القيم واختلت الموازين في كثير من قطاعات مجتمعنا المعاصرة .

بل وكادت أن تكتسب الرذيلة والانحراف شرعية قانونية بتأثير شراسة الجاهلية الوافدة ، وهو ما يُشاهد حتى الآن ، من انتشار للفجور ، وشرب للخمور ، أو اختلاط شائن وليلٍ حمراء ، بلا مواربة ولا حياء . في كثير من بلاد المسلمين .

وتبقى الرذائل هي الرذائل ، واقتراف الآثام هي هي ، في غيبة من تحكيم شرع الله ، سواء في الجاهلية العربية قديماً وحديثاً ، أو الجاهلية الغربية بشقيها الرأسمالي والشيوعي .

ويقى ارتباط الأخلاق بالإيمان هو الضابط الدقيق للأخلاق المسلمين .. وتبقى التربية الإيمانية هي منبع الفضائل ومصدر السلوك المستقيم ، الذي ينفر من الشرور والآثام .

وكل انحراف في التطبيق لا يدل إلا على غبنش في التصور وكرازة في الطبع ، لا تسجم مع حقائق هذا الدين .

كما أن فهم العبادة ، وتطبيق مدلولاتها الشرعية س يجعلو صدأ النفوس
ويهدّيها باستمرار ، ويعيدها إلى جادة الحق والصواب .

فما أجرد أنْ يهتم دعاء هذا الدين بهذه المعانى ، وأن يولوها مزيداً
من الرعاية والتوجيه .

وما أشد حاجة البشرية الشاردة عن أمر ربها التائهة في دياجير
الظلمات إلى إعادة التصورات السليمة ، والمنشقة من رسالة السماء .

ما أحوجها إلى الإيمان الصاف والإسلام الحنيف الذي يهيمن على
شؤون حياتها كلها .. إلى الأخلاق النظيفة المرتبطة بهذا الدين .

ما أشد حاجتنا إلى دعاء صادقين مخلصين واعين ، ليعيدوا إلى
أنفسهم ومن حوالهم صفاء هذا المنهج تمثلاً وتطبيقاً ، ومتارتهم السامية
جيل القدوة من الرعيل الأول من سلف هذه الأمة .

ولينقدوا هذه الجموع التائهة مما وقعت فيه من اخراف وغبيش أو
ضلال .

وإنها لمهمة صعبة ، وجهاً شاق مرضن وطويل ولكنها سلعة الله
الغالبة ، وبشر الصابرين المُحَاهِدِين وكل منْ حاف مقام ربه ونهى النفس
عن الهوى .

والحمد لله رب العالمين

محمد الناصر

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ١ - الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام .. د. مقداد بالجن ط ١٣٩٢ هـ . مكتبة الحاخاچى بمصر .
- ٢ - أثر الانحراف العقدى عند اليهود على الفكر الصهيونى المعاصر - رسالة ماجستير .. عطا الله بخيت المعايطة / جامعة أم القرى .
- ٣ - أخطاء المنهج الغربى الوافد .. أنور الجندي - دار الكتاب لللبنانى - ط ١ - بيروت .
- ٤ - أدب الحنفية .. حبيب بن حنش الزهراني - رسالة ماجستير - جامعة أم القرى .
- ٥ - الاستيعاب .. ابن عبد البر - ط القاهرة .. مكتبة النهضة - تحقيق محمد البحاوى .
- ٦ - أسد الغابة .. ابن الأثير - ط القاهرة - ١٢٨٠ هـ .
- ٧ - الإسلام بين العلماء والحكام .. عبد العزيز البدرى - منشورات المكتبة العلمية - المدينة المنورة - ١٩٨٠ م .
- ٨ - الإسلام روح المدينة .. مصطفى الغلاينى - المكتبة الأهلية .
- ٩ - الإسلام والحضارة العربية .. محمد كرد على - ط ٣ - ١٩٦٨ - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة .
- ١٠ - الأشربة .. ابن قتيبة .
- ١١ - الإصابة في تمييز الصحابة .. ابن حجر العسقلاني - دار الكتاب العربي - بيروت .

- ١٢ - الأصمعيات .. أبو سعيد عبد الملك الأصمعي - تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون - ط ٥ - دار المعرف .
- ١٣ - إعادة النظر في كتابات العصرىين فى ضوء الإسلام .. أنور الجندي - الاعتصام - القاهرة - ١٩٨٥ م .
- ١٤ - الإعلام بأن العزف والغناء حرام .. أبو بكر الجزائري - مكتبة الضياء - جدة .
- ١٥ - إغاثة اللهفان .. ابن قيم الجوزية - دار المعرف للطباعة والنشر - بيروت .
- ١٦ - الأغانى .. أبو الفرج الأصفهانى - طبعة بولاق أو طبعة دار الكتب «حسب ما يشار في الخامش» .
- ١٧ - أمالى القالى - ط دار الكتب المصرية - ١٩٢٦ م .
- ١٨ - أمثال الميدانى - المطبعة البهية .. مصر .
- ١٩ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. ابن تيمية - دار المجتمع - جدة .
- ٢٠ - البداية والنهاية .. ابن كثير - ط دار الفكر .. بيروت - ١٩٧٨ م .
- ٢١ - بروتوكولات حكماء صهيون .. ترجمة محمد خليفة التونسي - ط ٢ .
- ٢٢ - بلوغ الأربع في معرفة أحوال العرب .. محمود شكرى الألوسى - ط ٢ / عمان .. سنة ١٤٠٤ هـ .
- ٢٣ - البيان - مجلة تصدر عن المنتدى الإسلامي في لندن .
- ٢٤ - الناجي الجامع للأصول في أحاديث الرسول .. الشيخ منصور على ناصف - مطبعة البانى الحلبي .

- ٢٥ - تاريخ الأمم والملوك .. الطبرى - روائع التراث العربى - دار سويدان
 - بيروت ١٩٦٧ - والطبعة التجارية بالقاهرة ١٩٤٩ .
- ٢٦ - تاريخ العرب قبل الإسلام .. د. جواد على - دار العلم للملائين -
 بيروت - ومكتبة الهضبة - بغداد - ط ٢ - ١٩٧٦ م .
- ٢٧ - التراث اليهودي الصهيوني والفكير الفرويدى .. د. صبرى جريش -
 عالم الكتب - القاهرة - ط ١ - ١٩٧٢ م .
- ٢٨ - تربية الأولاد في الإسلام - عبد الله علوان - دار السلام للطاعة
 والنشر والتوزيع - حلب .
- ٢٩ - التربية الأخلاقية الإسلامية .. د. مقداد بالجبن - مكتبة الحاخامي بمصر
 - ط ١ - ١٣٩٧ م .
- ٣٠ - التربص والترهيب .. الحافظ المندرى - تعليق محمد عمارة -
 مطابع قصر الوطنية .
- ٣١ - تفسير ابن جرير الطبرى - ط ٢ - مطبعة الحلبي .
- ٣٢ - تفسير سورة النور .. المودودى - دار الاعتصام - ١٤٠٢ هـ .
- ٣٣ - تفسير القرآن العظيم .. ابن كثير - دار الجليل - بيروت - ط ١ -
 ١٤٠٨ هـ .
- ٣٤ - التفسير الكبير - الفخر الرازى - الطبعة البهية المصرية - القاهرة .
- ٣٥ - تنزيه الشريعة عن إباحة الأغانى الخليعة .. أحمد بن يحيى التجمى -
 طبع الرئاسة العامة لإدارات البحث والإفتاء - الرياض -
 ١٤٠٥ هـ .
- ٣٦ - تهذيب اللغة .. الأزهرى - تحقيق عبد السلام هارون - ١٩٦٤ م .
- ٣٧ - جاهلية القرن العشرين .. محمد قطب - دار الشروق -
 ١٤٠٢ هـ .
- ٣٨ - جنة خطب العرب .. أحمد زكى صفت - ط الحلبي - مصر -
 ١٩٦٢ م .

- ٣٩ - حصوننا مهددة من داخلها - محمد محمد حسين - المكتب الإسلامي - ط ٥ - ١٣٩٨ هـ.
- ٤٠ - حضارة العرب .. جوستاف لوبيون - ترجمة عادل زعير - ط ٢
- ٤١ - الحماسة - لأني تمام - تحقيق د. عبدالله عسيلان - ١٩٨١ م.
- ٤٢ - حماية الدين والوطن عن غزو أفلام الخلاعة والفتن - الشيخ عبدالله ابن زيد آل محمود رئيس المحاكم الشرعية بقطر - ١٤١٠ هـ.
- ٤٣ - حياة الصحابة .. محمد يوسف الكاندھلوی - دار القلم - ط ٣ - ١٤٠٥ هـ.
- ٤٤ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي .. د. أحمد محمد المغوف - دار النهضة مصر - ط ٥ - ١٣٩٢ هـ.
- ٤٥ - الحيوان .. الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - ط الحلبي - ١٩٤٥ م.
- ٤٦ - الخراج .. أبو يوسف - ط دار المعرفة - بيروت - ١٣٩٩ هـ.
- ٤٧ - خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية .. عبدالله التل - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ٣ - ١٣٩٩ هـ.
- ٤٨ - خلق المسلم .. محمد الغزالى - الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية - ١٤٠٠ هـ.
- ٤٩ - الخمر وسائر المسكرات والمخدرات .. أحمد بن حجر آل بوطامي - قاضي المحكمة الشرعية بقطر - المكتب الإسلامي - ١٤٠٢ هـ.
- ٥٠ - دراسات في النفس الإنسانية .. محمد قطب - دار الشروق - ١٤٠٧ هـ.
- ٥١ - دستور الأخلاق في القرآن .. د. محمد عبدالله دراز - مؤسسة الرسالة - دار البحوث العلمية - ط ٣ - ١٤٠٠ هـ.

- ٥٢ - ديوان الأعشى - دار بيروت - ط عام ١٩٨٣ م .
- ٥٣ - ديوان حاتم الطائى - ط بيروت - دار صادر - ١٩٦٣ م .
- ٥٤ - ديوان الحادرة - تحقيق د. ناصر الدين الأسد - دار صادر - بيروت - ١٩٧٣ م .
- ٥٥ - ديوان حسان بن ثابت - دار بيروت - ١٩٨٣ م .
- ٥٦ - ديوان الحُطَيْثَةَ - ط الحلبي - مصر - تحقيق نعمان طه - ١٩٥٨ م .
- ٥٧ - ديوان الحماسة للمرزوق - لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٦٧ م .
- ٥٨ - ديوان الخنساء - دار الأندلس - ١٩٨١ م .
- ٥٩ - ديوان زُهير بن أبي سلمى - دار الكتب المصرية - ١٩٤٤ م .
- ٦٠ - ديوان سحيم - تحقيق عبد العزيز الحميد - دار الكتب المصرية - ١٩٥٠ م .
- ٦١ - ديوان السموأل - دار صادر - بيروت .
- ٦٢ - ديوان طرفة بن العبد - طبعة دمشق .
- ٦٣ - ديوان عامر بن الطفيلي - دار صادر - بيروت - ١٩٥٩ م .
- ٦٤ - ديوان عبيد بن الأبرص - شرح وتحقيق د. حسين نصار - ١٩٥٧ م .
- ٦٥ - ديوان عروة بن الورد - دار صادر - بيروت .
- ٦٦ - ديوان عترة - تحقيق وشرح عبد المنعم شلبي - المكتبة التجارية - القاهرة .
- ٦٧ - ديوان النابغة - تحقيق شكري ف يصل - دار الفكر - بيروت - ١٩٦٨ م .

- ٦٨ - الرحيق المختوم .. صفى الرحمن المباركفورى - ١٤٠٠ هـ - مكة المكرمة .
- ٦٩ - رسائل الشيخ محمد الحامد - ط دولة قطر - ١٤٠٣ هـ .
- ٧٠ - رسالة الحنين إلى الأوطان .. من مجموعة رسائل الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون .
- ٧١ - رسالة في أحكام الغناء .. ابن قيم الجوزية - تحقيق محمد حامد الفقى - دار طيبة - الرياض - ١٤٠٣ هـ .
- ٧٢ - رسالة في الرياء ذمه وأثره السيء .. سليم الهلالي - مكتبة ابن الجوزى - ١٤٠٨ هـ .
- ٧٣ - رياض الصالحين .. الإمام النووي - مراجعة شعيب الأرناؤوط - دار المأمون للتراث - ١٤٠٢ هـ .
- ٧٤ - زاد المعاد .. ابن قيم الجوزية - تحقيق محمد الفقى - مطبعة السنة الحمدية - القاهرة - ١٩٥٣ م .
- ٧٥ - الزواجر عن اقتراف الكبائر .. أحمد بن محمد الهيثمى - ط محمد الحلبي وشركاه - مصر - ٢٤ - ١٣٩٠ هـ .
- ٧٦ - سنن الحافظ ابن ماجة - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - المكتبة العلمية - بيروت .
- ٧٧ - السياسة الشرعية .. ابن تيمية - دار الكتاب العربي - ط ١ - ١٤٠٠ هـ .
- ٧٨ - السيرة النبوية .. ابن هشام - تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبيارى - عبد الحفيظ شلبى - ط ٢ - ١٩٥٥ م .
- ٧٩ - شبكات حول الإسلام ... محمد قطب - دار الشروق .
- ٨٠ - الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي .. أنور الجندي - دار الاعتصام - القاهرة - ١٩٨١ م .

- ٨١ - شخصية المسلم .. د. محمد علي الماہشی - الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية - ١٩٨٣ .
- ٨٢ - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي - تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون - لجنة الترجمة والتاليف والنشر - ط ١ - ١٩٥١ م .
- ٨٣ - شرح السنة .. الإمام البغوي - تحقيق شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش - المكتب الإسلامي .
- ٨٤ - شرح القصائد العشر للتبريزى .. عبد السلام الحوف - دار البار للنشر - مكة - ط ١ - ١٤٠٥ هـ .
- ٨٥ - الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي .. د. يوسف خلف الله - دار المعارف - مصر - ١٩٥٩ م .
- ٨٦ - شعراء النصرانية .. لويس شيخو - دار الشرق - بيروت - ط ٢ .
- ٨٧ - الشعر الجاهلي .. د. يحيى الجبورى - مؤسسة الرسالة - ط ٤ - ١٤٠٣ هـ .
- ٨٨ - الشعر والشعراء .. ابن قتيبة - تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر - دار المعارف - ط ٣ - ١٩٥٨ م .
- ٨٩ - الصحاح .. إسماعيل الجوهري - تحقيق أحمد عبد الغفور عطار - دار العلم للملايين - ط ٢ - ١٩٧٩ م .
- ٩٠ - صحيح الإمام مسلم بشرح النووي - دار الفكر - ١٤٠٣ هـ .
- ٩١ - صحيح البخاري .. الإمام البخاري - ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي - المطبعة السلفية - مصر .
- ٩٢ - صحيح الجامع الصغير .. محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - ط ٢ - ١٤٠٦ هـ .
- صحيح سنن النسائي / صحيح أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني / مكتب

- التربية العرف الدول الخليج/الرياض ١٤٠٩ هـ .
- ٩٤ المستدرك .. الحاكم التيسابوري - مطبع النصر الحديثة - الرياض .
- ٩٥ - صيغات فحول الشعراء .. محمد بن سلام الجمحي - تحقيق محمود محمد شاكر - طبعة المدى - القاهرة .
- ٩٦ - طريق الدعوة في ظلال القرآن .. جمع وإعداد أحمد فائز - مؤسسة الرسالة - ١٤٠٥ هـ .
- ٩٧ - عائد من الجحيم .. انطوان دومازة - ١٩٧٢ م .
- ٩٨ - العصر الجاهلي .. د. شوق ضيف - دار المعارف - مصر - ط ٧ - ١٩٦٠ م .
- ٩٩ - العلمانية .. د. سفر الحوالى - جامعة أم القرى - مكة - ١٤٠٢ هـ .
- ١٠٠ - العقد الفريد .. ابن عبدربه - لجنة التأليف والترجمة والنشر - مصر .
- ١٠١ - عون البارى .. الإمام أبو الطيب القنوجي البخارى - مطبع قصر الوطنية - ١٤٠٢ هـ .
- ١٠٢ - فتاوى شيخ الإسلام ابن نيمية .. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن القاسم - مكتبة المعارف - الرباط .
- ١٠٣ - فتاوى في الغناء .. أحمد بن الحسن الخنبلي - تحقيق حمد بن عبد العزيز الضويان - دار طيبة - الرياض - ١٤٠٩ هـ .
- ١٠٤ - فتح البارى .. ابن حجر العسقلاني - ط البانى الحلبي - القاهرة - ١٩٥٩ هـ .
- ١٠٥ - الفوائد .. ابن قيم الجوزية - المطبعة القيمة - ط ١ - ١٤٠٠ هـ .
- ١٠٦ - في ظلال القرآن .. سيد قطب - دار الشروق - ١٩٨٢ م .
- ١٠٧ - القاموس الحيط .. الفيروزآبادى .

- ١٠٨ - كُف الرّاعِع عن مُحرّمات اللّه و السّماع .. أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ الْهَيْمَنِي - تحقيق محمد عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٦ هـ.
- ١٠٩ - الكنز المرصود في قواعد التلمود .. د. وهنجل وزميله - ترجمة يوسف حنا نصر الله - بيروت .
- ١١٠ - لسان العرب .. ابن منظور .
- ١١١ - المجتمع الإسلامي .. محمد أمين المصري - دار الأرقام - الكويت .
- ١١٢ - جمع الأمثال .. الميداني - المطبعة البهية - القاهرة - ١٣٤٢ هـ - دار مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٦١ م .
- ١١٣ - الخبر .. محمد بن حبيب - دار الأمان الجديدة - بيروت .
- ١١٤ - مختصر منهاج السنة .. الذهبي - تحقيق محب الدين الخطيب - دار البيان .
- ١١٥ - مذاهب فكرية معاصرة .. محمد قطب - دار الشروق - ط ١ - ١٤٠٣ هـ.
- ١١٦ - مسند الإمام أحمد - دار الباز للنشر - مكة المكرمة - ط ٢ .
- ١١٧ - مشكاة المصايح .. الخطيب التبريزى - تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى - المكتب الإسلامي - ١٣٩٩ هـ.
- ١١٨ - معالم في الطريق .. سيد قطب - دار الشروق - ١٩٨٠ م .
- ١١٩ - المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي .. محمد محمود صيام - رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى - ١٤٠٢ هـ.
- ١٢٠ - معجم الشعراء .. المرزباني - دار إحياء الكتب العربية - ١٩٦٠ م .

- ١٢١ - المفضليات .. المفضل بن محمد الضبي - تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون - دار المعارف - ط٦ .
- ١٢٢ - مقدمة ابن خلدون .. الطبعة الأزهرية - مصر .
- ١٢٣ - مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي .. د. عبد الباسط بدر - دار المدار للنشر - جدة - ١٤٠٥ هـ.
- ١٢٤ - ملاظع عن دور الإسلام في بناء العمارة العربية .. د. محمد رشاد خليل - ط١ - ١٩٨٢ م .
- ١٢٥ - موسوعة أخلاق القرآن .. د. أحمد الشري باصي - دار الرائد العربي - بيروت - ١٤٠١ هـ.
- ١٢٦ - المؤطّل .. الإمام مالك بن أنس - تخرج محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى الباف الحلبي .
- ١٢٧ - نظام النفقات في الشريعة الإسلامية .. أحمد إبراهيم إبراهيم - المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٤٩ هـ.
- ١٢٨ - نوادر الأصول للترمذى - المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .
- ١٢٩ - الهجاء والهجاؤون في الجاهلية .. د. محمد محمد حسين - دار النهضة - بيروت - ط٣ - ١٣٨٩ هـ.
- ١٣٠ - هذا الدين .. سيد قطب - دار الشروق .
- ١٣١ - واقعنا المعاصر .. محمد قطب - مؤسسة المدينة للصحافة - ط١ : - ١٤٠٧ هـ .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	نقدمة
الفصل الأول :	
● المبحث الأول . حلة عن المجتمع العربي في	
٩	نعصر الجاهلي
١٥	شخصه القدي
٢٥	الناس في المجتمع الجاهلي مثارات ودرجات
٢٨	معايش العرب ونظرتهم إلى أمهاتهن
● المبحث الثاني : رأية العد وامساواة	
ترفوف على الناس في ضلال الدعوة .	
٣٥	إسلامية
الفصل الثاني :	
● المبحث الأول : مفهوم الأخلاق وطبيعة النفس	
٤٧	البشرية
● المبحث الثاني : صور من مكارم الأخلاق في	
٦٣	الجاهلية والإسلام
٦٧	١ - الكرم حتى عربي أصيل
٨٤	- الإسلام والكرم
١٠٧	٢ - الشجاعة عند العرب
٩٠٩	- الإسلام والشجاعة
١٢١	٣ - العبرة والعفة
١٢٧	- العبرة والعفة في نظر الإسلام
١٣٦	٤ - الوفاء عند العرب
١٤١	- الوفاء في الإسلام

الصفحة	الموضوع
١٤٩	٥ - المخرية وإباء الضي - استعلاء الإيمان ومحاربة الظلم
١٥٦	٦ - في الإسلام
١٦٣	٧ - حسن الجوار خلق عربي أصيل
١٦٥	- حقوق الجار في الإسلام
١٧٥	٨ - الحلم عند العرب
١٨١	- الحلم والأناة من أخلاق المؤمنين
١٨٩	٩ - صفات حبيدة أخرى
● المبحث الثالث : صور من الأخلاق الذمية و العادات القبيحة	
١٩٥	١ - الجنون في الشعر الجاهلي
١٩٨	- الطهر والعفاف في ظلال الإسلام
٢٠٧	- الجنون والاستهتار في حضارة القرن
٢١٣	العشرين ٢ - الخمور و مجالس الشراب عند أهل الجاهلية
٢١٨	- الإسلام يحرم الخمر والمسكرات
٢٢٩	- الخمر والمسكرات في حضارة القرن
٢٣٧	العشرين ٣ - الق bian و الغناء في الجاهلية
٢٤١	- الغناء و المعازف في نظر الإسلام
٢٤٥	- أقوال الأنئمة و العلماء في الغناء و المزامير
٢٥٣	- الغناء و المعازف في العصر الحاضر
٢٦٢	٤ - الميسير
٢٦٦	- تحريم الإسلام للميسير
٢٧١	- أنواع من القمار قديماً و حديثاً
٢٧٣	٥ - أخلاق ذمية أخرى يصورها الشعر الجاهلي
٢٧٩	

الموضوع

الصفحة

الفصل الثالث :

● ثبرر السمات الأخلاقية في المجتمعات الإسلامية واجاهلية

٢٨٣

● البحث الأول :

١ - أثر العقيدة في توجيه السلوك والأخلاق

٢٨٥

٢ - الارتباط الوثيق بين العبادة والأخلاق

٢٩٥

٣ - من سمات المجتمع المسلم أن أخلاقه واقعية

٣٠١

(أ) الإخلاص والتجرد لله تعالى

٣٠٦

(ب) الحب والشاحي

٣٠٩

(ج) التناصح « الأمر بالمعروف والنهي

٣١٢

عن المنكر »

٣١٧

(د) لوم النفس ومقاومة الأهواء

● البحث الثاني :

١ - فساد في التصور وانهيار في الأخلاق

٣٢٣

٢ - سيادة الأخلاق التفعية

٣٢٣

٣ - الفلق والخيرية والاضطراب

٣٢٩

٤ - السُّعَار الجنسي والتَّهْتَكُ الأخلاقي

٣٤٦

- الشذوذ الجنسي

٣٤٨

- دور اليهود

٣٤٩

الخاتمة

٣٥٣

أهم المصادر والمراجع

٣٥٦

فهرس الموضوعات

٣٦٦

